دروس

حول تفسير

بعض آيات القرآن الكريم

ألقاها:

العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

جمع وتقديم

محمد محيي الدين سراج الدين

مكتبة دار الفلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

هب ثواب قراءتك لسورة الفاتحة

إلى العلاّمة الكبير والعارف الشهير

الإمام الحافظ المفسّر المحدّث

الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

كلّما قرأت في كتاب من كتبه، أو سمعت بخبره

وجزاك الله خيرًا

بسم اللہ الرحمن الرحیم

دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم

للعلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام الحافظ المفسر المحدث
الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني
رحمه الله تعالى ورضي عنه

جمع وتقديم
محمد محيي الدين سراج الدين

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م

موافقة وزارة الإعلام
رقم ٧٤٨٩٢
تاريخ ٢٠ / ٧ / ٢٠٠٣

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: فإني أُقدم للقارىء الكريم جُملة واسعة مِنْ دروس الشيخ الإمام مولانا الوالد رضي الله عنه ، حول تفسير آيات من القرآن الكريم ، كان قد ألقاها في جامع الحَمَوي ، الواقع قُرب بابِ الأحمر حول قلعة حلب ، إذْ كان مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه يُلقي فيه دَرساً في التفسير صباح كل يوم أحد؛ بعد شروق الشمس بقليل.

وإني لم أتمكن من الحصول على تلك الدروس كاملة لأسبابٍ منها: أنّها لم تكن قَد سجّلت بشكل دوري منتظم ، وقد بذلت جهداً كبيراً في جَمْعِ وكتابة تلك الدروس ، بسببِ رداءَةِ التسجيل ، وعدم وضوح الصوت ، وتقادم الزمن على تلك الأشرطة؛ مما أفسد جزءاً منها.

وقد حرص بعض أهل العلم والصلاح مِمّن كان يُواظب على حضور وسماع تلك الدروس ـ حَرِص وألحَّ علينا أن تُكتب تلك

الدروس ، وتُطبع وتُنشر ، لما لها مِنْ مكانة عِلميّة ، ومنفعة جليّة لكل قارئٍ ، ولما في ذلك مِنْ وقع كبير في قلوب المحبين الصادقين.

هذا وإنّ نشر تلك الدروس القيّمة يعتبر من جملة العلوم التي ورّثها الشيخ الإمام رضي الله عنه لمن بعده ، لينتفع بها الناس إلى يوم الدين ، ويكون ذلك في صحيفة حسنات الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وكتاب أعماله الواسع ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية ، أو علمٍ يُنتفع به ، أو ولدٍ صالح يدعو له» رواه الإمام مسلم.

وإنّي أسأل الله تعالى التوفيق لجمع وطباعة ، ونشر جميع ما نُقِل عن مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه؛ من محاضرات ودروس وكلمات خاصّة وعامّة ، وفي مختلف المناسبات ، لما في ذلك مِنْ إحياء لآثاره الطيّبة ، وفوائد ومنافع جدير بكل مؤمن أن يطّلع عليها ، فيزداد إيماناً وهدى وصلاحاً وتقىً.

وكثيراً ما كان رضي الله عنه يردّد:

إنّما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وإنّي أجد في نفسي باعثاً إلى الاعتراف بالجميل ، والنطق بالفضل لذويه ، إلى أخي الكبير بسنّه وقدره وعلمه ، الشيخ الدكتور محمد نجيب سراج الدين حفظه الله تعالى ، الذي كان له الأثر العظيم في تشجيع هذا العمل الخيّر وتأييده ، لِمَا رأى فيه مِنْ نفع ونور ينتشر في آفاق البلاد ، ونفعٍ لأصناف العباد.

وإنّ أخي الشيخ الدكتور السيد محمد نجيب ـ أمدّه الله بعونه

وتأييده ـ كان قد درس العلوم الشرعية ، وحاز على الشهادة العالمية المعروفة بالدكتوراه بالفقه المقارن من كلية الشريعة في جامعة الأزهر الشريف ، إذ قام بتحقيق كتاب: (الإشراف على مذاهب أهل العلم) للإمام محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى عام / ٣١٨/ هـ ، قام بهذا العمل خَير قيام ، وَقَد طبع هذا الكتاب وانتشر بين أهل العلم.

وقد عَهِدَ إليه مولانا الوالد رضي الله عنه إدارة المدرسة الشعبانية ، لِمَا رأى فيه من تمام الأهلية العلمية ، وتمتّعه بالحلم والأناة والرّويّة ، وهي صفات سَدّد الله خُطا مَنْ تحقّق بها.

ولم تكن توجيهات وتوجهات مولانا الوالد رضي الله عنه تفتر عنه ، فكان يراجعه في كثير من الأمور والقضايا ، التي تَهمّ مدرسة التعليم الشرعي ـ المعروفة باسم المدرسة الشعبانية ـ وجمعية التعليم الشرعي التي تتولّى الإنفاق على المدرسة؛ والعاملين عليها ، والقائمين على شؤونها فيتلقّى الرأي السديد والقول الفصل فيها.

وقد أذن له مولانا الشيخ الإمام بقراءة الحديث وروايته عنه في حلقة علميّة ، تضمّ مُدرسي المدرسة الشعبانية وغيرهم من أهل العلم ، حرصاً على استمرار مجالس الحديث النبوي الشريف وخيرها وبركاتها.

وكان مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه قد أشار إليّ بِشَدِّ عضد أخي الكبير حفظه الله تعالى ومؤازرته في خدمة المدرسة الشعبانية وما يتعلق بها ، ونسأل الله تعالى أن يُوفقنا للسَّير على هديه وتعاليمه ، ليبقى هذا الصَّرح منار هَدي ونفع ونور إلى يوم الدين.

كما وإني أسأل الله العظيم رَبّ العرش العظيم ، أَنْ يوفقني وسائر إخوتي الأفاضل للسير على النهج الذي بَيَّنه لنا مولانا ووالدنا الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وأن يُمدَّنا بمدده ، ويصحبنا بعونه وتوفيقه ، لحمل أعباء ما تركه لنا مِنْ مَهامَّ ومسؤوليات دينية ، علمية شرعية ، ليبقى بيت سراج الدين مُنيراً وضّاءً مدى الزمان ، خاصةً وقد وكّل مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه إلى أولاده حِملاً ثقيلاً لمّا قال قولته المشهورة ، على مسمع ومشهد من أساتذة المدرسة الشعبانية وغيرهم ، وفي عدة مناسبات ، قال رضي الله عنه : «أولادي هم خلفائي مِنْ بعدي» .

فالله تعالى نسأل ، وبجاه رسول الله نتوسل ، أن يمدّنا للقيام بحمل هذه الأمانة خير قيام ـ كلٌّ في مجاله الذي يسّره الله له .

ولابدّ لنا من توجيه كلمة شكر وامتنان للأستاذ الفاضل الشيخ محمد علي الإدلبي ، الذي لم يألُ جُهداً في خدمة كتب مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه وطباعتها ونشرها .

وأذكر في هذا السياقِ رؤيا منامية مبشرة كُنت قد رأيتها أوائل رجب من عام ١٤٢٤ هـ ، فقد رأيت الأستاذ الشيخ محمد علي قَدِمَ إلى بيت مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه ـ كعادته المألوفة عند صدور كل كتاب من تأليف شيخنا الإمام رضي الله عنه ، ليعرضه عليه ، ويكسب دعواته ـ .

ولما أُذِن له بالدخول أَخرج لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه كتاباً عنوانه : (محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم) وجعل الشيخ الإمام رضي الله عنه يقرأ فيه ، ويُقلِّب صفحاته ويبتسم ، والتفت إليَّ وقال: هذه ترجمتي؟؟

فقال له ابني عبد الله ـ وكان بجانبه ـ: نعم يا جدي ، أنت كذلك ، وأعظم من ذلك. فسكت شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وعلامات البِشر على وجهه المبارك.

ولما استيقظت من نَومي علمت من الأستاذ محمد علي أنّ الكتاب قد فُرِغ مِنْ صفّه وبُدِىءَ بطباعته ، والحمد لله على ذلك.

وأسأل الله تعالى بجاه نبيه الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أَنْ يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم سبحانه ، وأن يكون مقبولاً مرضياً عند الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ والله وليّ التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد محيي الدين سراج الدين

درس حول تفسير قوله تعالى

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾.

قَولُه سُبحَانَهُ وتَعَالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فيه بَيانُ عَظَمَتِهِ وَكِبرِيَائِهِ سُبحَانهُ وتَعَالى ، وبَيَانُ كَثرَةِ أَسمَائِهِ سُبحَانَهُ عَلَى وَجهٍ لا يَتَنَاهَى ، وَفِيهِ بَيانُ أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ قَد نَزَلَ مِنْ جَمِيع حَضَرَاتِ الأَسمَاءِ الإِلَهِيَّةِ التي لا تَتَناهَى؛ وَقَد قَالَ سُبحَانَهُ وتَعَالَى فِي آيَةٍ أُخرَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١ ـ ٢] وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١ ـ ٢].

وَمِنَ المَعلُوم أَنَّ اسمَ الجَلالَةِ (الله) هُوَ الاسمُ الجَامِعُ لِجَمِيع حَضَرَاتِ الأَسمَاءِ الإِلَهِيَّةِ ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١ ـ ٢] ، فَقَد نَزَلَ هَذَا القُرآنُ الكَرِيمُ مِنْ حَضرَة اسمِ الرَّحْمنِ ، وَاسمِ الرَّحِيمِ ، وَاسمِ العَزِيز ، وَاسمِ الحَكِيم ، وَاسمِ العَلِيمِ ، وَهكَذَا.. كُلُّ هذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُلُومَ القُرآنِ الكَرِيمِ وَمَعَانِيهِ لا تَتَنَاهَى عَلَى مَدِّ العَوَالِمِ.

قَولُهُ تَعَالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ أي: تَنزِيْلاً تَدرِيجِيّاً ، آيَاتٍ بَعدَ آيَاتٍ ، عَلَى حَسَبِ مَا تَقتَضِي حِكمَةُ الله تَعَالى ، وَمُنَاسَبَاتُ النُّزُوْلِ ، خِلالَ فَترَةِ بِعثَتِهِ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَوِيَّةِ ، وَهِيَ ثَلاثٌ وَعِشرُونَ سَنَةً؛ وَكُلَّمَا نَزل شَيءٌ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ عَلَى سَيِّدِنَا

رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليه وآله وَسَلَّمَ أَمَرَ بِوَضعِهَا فِي مَكَانِهَا ، حَتَّى جَاءَتْ عَلَى تَرتِيْبِ الْمصحَفِ المَعرُوف ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرتِيْبَ الآيَاتِ أَمْرٌ تَوقِيفِيٌّ. أَي: مَوقُوفٌ أَمْرُ ذَلِكَ عَلَى وَحيٍ مِنَ الله تَعَالى لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ وَسُمِّيَ القُرآنُ الكَرِيمُ ذِكْرَاً لأَنَّ فِيهِ ذِكْرُ كُلِّ شَيءٍ. أَي: فِيهِ ذِكْرُ العُلُوم كُلِّهَا ، والعَوَالِمِ كُلِّهَا.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] أَي: مَا قَصَّرنَا أَو أَهمَلنَا ذِكْرَ شَيءٍ فِي هذَا القُرآنِ.

وَقَال سُبحَانَهُ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أَي: مَا كَانَ هَذَا القُرآنُ الكَرِيمُ حَدِيْثَاً يُفْتَرَى ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَي: مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] أَي: ذِي التَّذكِيرِ وَالمَوعِظَةِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] أَي: إِنْ جَهلتُم شَيئَاً مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالشَّرِيْعَةِ ، فَاسأَلُوا أَهْلَ العِلمِ بِالقُرآنِ ، لأَنَّ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ ذِكْرُ كُلِّ شَيءٍ.

وَلا بُدَّ لِفَهْمِ القُرآنِ الكَرِيمِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلى أَحَادِيثِ سَيِّدِنَا رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وآله وَسَلَّمَ ، التِي هِيَ بَيَانَاتٌ لِلقُرآنِ الكَرِيمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فَأَهْلُ الذِّكْرِ إِذَاً هُم: أَهلُ القُرآنِ الكَرِيمِ ، وَأَهلُ أَحَادِيثِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، لأَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ وَالحَدِيثَ الشَّرِيفَ مُتَلازِمَانِ.

وَإِنَّ الله تَعَالى الذِي أَنزَلَ القُرآنَ الكَرِيمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وسَلَّمَ ، أَنْزَلَ أَيضاً بَيَانَهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى الله عَليهِ وآله وَسَلَّمَ ، وَهَذَا مَعنَى الحِكْمَةِ فِي قَولِهِ تَعالَى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء : ١١٣].

وَقَالَ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ معه»(١) أَي: وَأُوتِيتُ مِثلَهُ وَحياً مِنَ الله تَعَالَى ، وَهِيَ أَحَادِيثُهُ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وسَلَّمَ ، التي هِيَ بِوَحيِ الله تَعَالَى ، لَكِنَّهَا بِالوَحيِ النَّبَوِيِّ.

وَقَد ذَكَرَ سُبحَانَهُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْ أَسمَائِهِ جَلَّ وَعَلا ، وَصِفَاتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبرِيَائِهِ ، وَذَكَرَ فِيهِ تَسبِيحَهُ وَتَحمِيدَهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمَدْحَهُ وَالثَّنَاءَ عَليهِ جَلَّ وَعَلا.

وَذَكَرَ سُبحَانَهُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ أَصنَافَ المَخلُوقَاتِ كُلِّهَا.

وَذَكَرَ الإِنسَانَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِن صِفَاتٍ ، وَمَصَالِحَ وَمَفَاسِدَ وَعَوَاقِبَ ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠].

فَلْيَبحَثْ كُلُّ إِنسَانٍ عَنْ نَفْسِهِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ ، فَفِيهِ ذِكْرُ مَا يُصْلِحُهُ وَيُسْعِدُهُ ، وَمَا يُشقِيْهِ وَمَا يُفْسِدُهُ ، وَفِيهِ ذِكْرُ مَرَاتِبِ أَهلِ الإِيمَانِ ، وَطَبَقَاتِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِيْنَ ، وَصِفَاتِهِم وَعَوَاقِبِهِم.

وَلا يُنَافِي ذَلِكَ خوفُ المُؤمِنِ مِنَ الفِتَنِ وَالزَّيْغِ وَزَوَالِ الإِيمَانِ ،

---

(١) رَوَاهُ أبو دَاودَ في كِتَابِ السُّنَّةِ ، بَابٌ فِي لُزُومِ السُّنَّةِ / ٤٦٠٤/ (٥/ ١٠) والترمذي في كتاب العلم ، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ / ٢٦٦٦/ (٧/ ٣١٠) ، وابن ماجه في المقدمة حديث / ١٢/ عَنْ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رَضِيَ الله عَنْهُ.

وَسُؤَآلِهِ الله تَعَالى أَنْ يُثَبِّتَهُ وَلا يُضِلَّهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ مَا ذَكَرَهُ لَنَا القُرْآنُ الكَرِيمُ ، فَقَالَ سُبحَانَهُ مُخْبِراً عَنْ أَهْلِ الإِيمَانِ أُولِي الأَلبَابِ أَنَّهُم يَدعُونَهُ بِقَولِهِم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران : ٨] .

وَقَد ذَكَرَ الحَافِظُ مُحمَّدُ بنُ نَصْرٍ المَروَزِيُّ فِي جُزءِ (قِيَامِ اللَّيلِ) عَنِ الأَحنَفِ بنِ قَيس ـ أَحَدِ أَتبَاعِ التَّابِعِينَ ـ أَنَّهُ كَانَ يَوماً جَالِساً ، فَعَرَضَتْ لَهُ هَذِهِ الآيَة : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠] فَانْتَبَهَ . فَقَالَ : عَلَيَّ بِالمُصحَفِ لأَلْتَمِسَ ذِكْرِي اليَومَ ، حَتَّى أَعلَمَ مَن أَنَا وَمَنْ أُشبِهُ . يَعنِي : لَمَّا عَلِمَ أَنَّ القُرآنَ قَد ذَكَرَ جَمِيعَ صِفَاتِ البَشَرِ ، وَبَيَّنَ صِفَاتِهِم وَمَرَاتِبَهُم ، أَرَادَ أَنْ يَبحَثَ عَنْ نَفسِهِ فِي أَيِّ الطَبَقَاتِ هُوَ؟ .

فَنَشَرَ المُصْحَفَ ، فَمَرَّ بِقَوْم : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٧ ـ ١٩] .

وَمَرَّ بِقَوْم : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة : ١٦] .

وَمَرَّ بِقَوْم : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٤] .

وَمَرَّ بِقَوْم : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وَمَرَّ بِقَوْم : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

وَمَرَّ بِقَوْم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٧ـ٣٨].

فَوَقَفَ الأَحنَفُ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ لَستُ أَعرِفُ نَفسِي هَاهُنَا. يَعنِي: لَم يَجِدْ هٰذِهِ الصِّفَاتِ فِي نَفسِهِ حَتَّى يَعُدَّ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ.

ثُمَّ أَخَذَ الأَحنَفُ السَّبِيلَ الآخَرَ، فَمَرَّ فِي المُصحَفِ بِقَوم: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٥ـ٣٦].

وَمَرَّ بِقَوم قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِم: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وَمَرَّ بِقَوْم يُقَالُ لَهُم: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ـ٤٧].

فَوَقَفَ الأَحنَفُ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ هٰؤُلاءِ!

فَمَا زَالَ الأَحنَفُ يُقَلِّبُ وَرَقَ المُصحَفِ، وَيَلتَمِسُ فِي أَيِّ الطَّبَقَاتِ، حَتَّى وَقَعَ عَلَى هٰذِهِ الآيَةِ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فَقَالَ الأَحنَفُ: أَنَا مِنْ هَؤُلاءِ.

وَمَنْ ادَّعَى نَيلَ مَقَام وَهُوَ لَيسَ مِنْ أَهْلِهِ وَلَم يَتَحَقَّقْ بِهِ، فَقَد افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً، وَحَرَمَ نَفْسَهُ نَيلَ ذَلِكَ المَقَامِ، لأَنَّهُ ادَّعَى أَنَّهُ

مِنْ أَهلِهِ ، وَلَم يَعُدْ يَسأَل الله تَعَالى أَنْ يُكرِمَهُ بِذَلِكَ المَقَام ، لأَنَّهُ يَرَى نَفسَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى ذَلِكَ المَقَام. وَرَحِمَ الله تَعَالى عَبدَاً عَرَفَ حَدَّهُ وَوَقَفَ عِندَهُ ، وَكَمْ مِنَ العَابِدِينَ مَنَعَتْهُم الدَّعَاوَى عَنْ طَرِيقِ الوُصُولِ إِلَى الله تَعَالَى ، وَنَسأَلُ الله تَعَالَى العَافِيَةَ.

قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أَي: نَحْنُ الذِينَ نَزَّلنَا الذِّكْرَ وَهُوَ القُرآنُ الكَرِيمُ ، وَنَحْنُ الذِينَ تَكَفَّلنَا بِحِفظِهِ. وَالضَّمِيرُ فِي قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَهُۥ﴾ يَعُودُ إِلَى أَقْرَب مَذكُورٍ وَهُوَ الذِّكرُ كَمَا فِي الآيَةِ.

وَمِنهُم مَنْ قَالَ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَولِهِ: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يَعُودُ إِلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وآله وسَلَّمَ ، الذي تَقَدَّمَ فِي الآيَةِ ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ خَاطَبَ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى الله عَليهِ وآله وسَلَّمَ بِقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَقُوْلِ قَوْلِ الكَافِرِينَ ، لأَنَّهُم لا يَعتَرِفُونَ بِنُزُوْلِ الذِّكرِ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وآله وسَلَّمَ أَصْلاً. وَمَقُولُ قَولِهِم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ فَكَيْفَ يَنْسِبُوْنَ الجُنُونَ إِلَيكَ ، وَالحَالُ أَنْتَ الذي نَزَلَ عَلَيكَ الذِّكرُ ، وَهُوَ القُرآنُ الجَامِعُ لِلعُلُومِ كُلِّهَا ، وَالمُتَضَمِّنُ ذِكْرَ كُلِّ شَيءٍ؟!!.

وَالتَّحقِيْقُ فِي الأَمرِ: أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ الله صَلَّى الله عَليهِ وَآله وَسَلَّمَ مَحفُوظٌ مَعْصُومٌ بِحِفْظِ الله تَعَالى وَعِصْمَتِهِ ، وَجَاءَ ذَلِكَ مَنْصُوصاً عَليهِ بِآيَةٍ خَاصَّةٍ ، وَهِيَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وَأَمَّا قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فَيَعُودُ الضَّمِيرُ إِلَى الذِّكْرِ ، فَقَد تَكَفَّلَ الله تَعَالَى بِحِفْظِ القُرآنِ الكَرِيم عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ ، يَحفَظُهُ مِنَ التَّغيِيرِ وَالتَّبدِيلِ ، وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقصَانِ ، كَمَا جَرَى ذَلِكَ عَلَى

الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ ، التي لَم يَتَكَفَّلْ سُبحَانَهُ بِحِفْظِهَا ، بَل وَكَلَ حِفظَهَا إِلَى الأَحْبَارِ والرُّهبَانِ فَلَم يَتَمَكَّنُوا ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وَإِنَّ حِفظَ الله تَعَالَى للقُرآنِ الكَرِيمِ يَقتَضِي حِفظَهُ سُبحَانَهُ للنَّازِلِ عَليهِ ، وَهُوَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وَسَلَّمَ ، فَحَفِظَ الله تَعَالَى القُرآنَ الكَرِيمَ ، وَحَفِظَ رَسُولَهُ صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وَسَلَّمَ مِنَ القَتْلِ أَوِ الاغتِيَالِ ، أَو أَن يُصِيبَهُ أَذىً يَمنَعُهُ عَنْ تَبلِيْغِ رِسَالَةِ الله تَعَالَى ، وَهَذَا قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وَقَد حَفِظَ الله تَعَالَى القُرآنَ الكَرِيمَ أَثنَاءَ نُزُولِهِ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَحَفِظَهُ مِنْ تَلاعُبِ الشَّيَاطِينِ ، فَكَانَ كُلَّمَا نَزَلَ جِبرِيلُ عَلَيهِ السَّلامُ بِشيءٍ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ مَعَهُ طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ المَلائِكَةِ ، تَصِلُ إِلَى سَبعِينَ أَلْفِ مَلَكٍ أَو أَكثَر ، كُلُّ ذَلِكَ تَعظِيماً لِهَذا القُرآنِ الكَرِيمِ ، وَحِفْظاً وَصِيَانَةً لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ.

كَمَا حَفِظَ سُبحَانَهُ هَذَا القُرآنَ عَلَى قَلْبِ النَّبيِّ صَلَّى الله عَليهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَلا يَنسَى مِنْهُ شَيئاً وَلا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٨] أَي: فَلا تَعجَلْ يَا رَسُولَ الله بِتِلاوَتِهِ أَثنَاءَ نُزُوْلِهِ عَليكَ ، خَشْيَةَ أَن يَتَفَلَّتَ مِنْ صَدْرِكَ ، فَإِنَّ عَلينَا أَنْ نَجمَعَهُ فِي صَدرِكَ ، وأَنْ نُقْرِئَكَ إِيَّاهُ كَمَا أَنْزَلنَاهُ.

ثُمَّ إِنَّ رَسولَ الله صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُ بَعضَ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ أَنْ يَكتُبُوا مَا يَنْزِلُ عَليهِ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ فِي صُحُفٍ

مُعَيَّنَةٍ، وَهُمْ كَتَبَةُ الوَحْيِ ، وَمِنهُم الخُلَفَاءُ الأَرْبَعَةُ ، وَزَيْدُ بنُ ثَابِتٍ، وَحَنْظَلَةُ بنُ الرَّبيع، وَغيرُهُم رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُم أَجمَعِينَ. كُلُّ ذَلكَ بِأَمْرٍ مِنَ الله تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَهَذَا هُوَ الحِفْظُ فِي الصُّحُفِ ، الذي أَشَارَ إِلَيهِ سُبحَانَهُ بِقَولِهِ: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: ٢-٣] فَهِيَ صُحُفٌ فِي أَيدِي المَلائِكَةِ ، يَتَعَبَّدُونَ الله تَعَالَى بِتِلاوَتِهَا ، وَهِيَ صُحُفٌ مَكْتُوبَةٌ بَيْنَ أَيْدِي المُؤمِنينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ.

وَهُنَاكَ الحِفْظُ فِي الصُّدُورِ ، فَحَفِظَهُ سُبحَانَهُ فِي صُدُورِ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ رَضِيَ الله عَنْهُم ، وَهَكَذَا مَنْ بَعْدَهُم مِنَ المُؤمِنينَ إِلَى يَوم الدِّينِ ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وَقَد جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ ، بَيَانُ جُمْلَةٍ مِنْ فَضَائِلِ الله تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَإِكرَامِهِ أُمَّتَهُ مِنْ أَجْلِهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَقَد رَوَى أَبُو نُعَيم فِي (الدَّلائِلِ)(١) بإِسْنَادِهِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لمَّا فَرَغْتُ مِمَّا أَمَرَنِي الله بِهِ ، مِنْ أَمْرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْتُ(٢): يَا رَبِّ إِنَّهُ لَم يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلا وَقَدْ كَرَّمْتَهُ: جَعَلْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيْلاً ، وَمُوسَى كَلِيْماً ، وَسَخَّرْتَ لِدَاوُدَ الجِبَالَ ، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ وَالشَّيَاطِينَ ، وَأَحْيَيْتَ لِعِيْسَى المَوْتَى ، فَمَا جَعَلْتَ لِي؟.

قَالَ: أَوَ لَيسَ أَعْطَيْتُكَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ: إِنِّي لا أُذْكَرُ إِلا

---

(١) كما فِي تَفسِيرِ ابنِ كَثِيرٍ عِندَ الكَلامِ عَلَى سُورَةِ الإِنشِرَاحِ.
(٢) أَي: لَيلَةَ المِعْرَاجِ.

ذُكِرْتَ مَعِي ، وَجَعَلْتُ صُدُورَ أُمَّتِكَ أَنَاجِيلَ[(١)] ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ ظَاهِرَاً ، وَلَمْ أُعْطِهَا أُمَّةً[(٢)] ، وَأَعْطَيْتُكَ كَنْزَاً مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ».

وَرَوَى مُسْلِمٌ[(٣)] ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا:

كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ[(٤)] عَبْدَاً حَلالٌ[(٥)].

وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ[(٦)] ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَاناً.

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ: عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[(٧)].

وَقَالَ ـ أَي: اللهُ تَعَالَى ـ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ،

---

(١) أَي: مَصَاحِفَ.

(٢) أَي: مِنْ قَبْلِكَ.

(٣) في كتاب صفة الجنة ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة / ٢٨٦٥/ (٥/ ٢٧٢٠).

(٤) أَي: أَعطَيْتُهُ.

(٥) يَعنِي: أَنَّ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى مَالاً مِنْ طَرِيْقٍ شَرْعِيٍّ فَهُوَ حَلالٌ لَهُ ، وَفِي هَذَا رَدٌّ وَإِبْطَالٌ لِمَا اعْتَادَهُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ تَحرِيمِ بَعْضِ أَمْوَالِهِم عَلَى أَنْفُسِهِم وَجَعْلِهَا لآلِهَتِهِم ، كَالسَّائِبَةِ وَالوَصِيلَةِ.

(٦) أَي: على المِلَّةِ الحَنِيْفِيَّةِ.

(٧) يَعنِي: أَنَّه لَم يَخرُجْ عَنِ المَقْتِ الإِلَهِيِّ إِلا الذِينَ تَمَسَّكُوا بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى ، وَهُم قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ لِغَيرِهِم.

وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَاباً لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ[1] تَقْرَؤُهُ نَائِماً وَيَقْظَانَ» الْحَدِيثَ. أَيْ: فَلَوْ فُرِضَ أَنَّهُ ذَهَبَ مِنَ السُّطُورِ فَهُوَ مَحفُوظٌ فِي الصُّدُوْرِ، بِحِفْظِ الله تَعَالَى وَعَوْنِهِ، فَلا يَخْلُوْ كُلُّ زَمَنٍ مِنْ أُنَاسٍ يَحْفَظُوْنَ القُرآنَ ظَاهِراً، مِنْهُمُ العُلَمَاءُ، وَمِنْهُمُ العَوَامُّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ القُرْآنَ الكَرِيمَ كُلَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ شَيْئاً مِنْهُ وَهٰكَذَا...

وَقَد تَكَفَّلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحِفْظِ القُرْآنِ الكَرِيمِ إِلى يَوم القِيَامَةِ، لأَنَّهُ رِسَالَةُ سَيِّدِنَا رَسُوْلِ الله صَلَّى الله عليهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ الذي لا نَبِيَّ بعدَهُ، وَلا رَسُولَ بَعدَهُ يَأْتِي بِشَرِيْعَةٍ جَدِيْدَةٍ، بَلْ إِنَّ رِسَالَتَهُ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هِيَ الرِّسَالَةُ البَاقِيَةُ، وَهِيَ الشَّرِيْعَةُ الصَّالِحَةُ لِكُلِّ زَمَانٍ، وَالمُصْلِحَةُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. حَتَّى إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَى قِيَامَ السَّاعَةِ، رَفَعَهُ مِنَ السُّطُورِ وَالصُّدُورِ، إِيذَاناً بِخَرَابِ عَالَمِ الدُّنْيَا، لأَنَّ الرُّوحَ المُمْسِكَةَ لِهَذَا العَالَمِ عَنِ الزَّوَالِ وَالخَرَابِ هِيَ: الرُّوحُ القُرآنِيَّةُ الإِيمَانِيَّةُ، فَإِنِ ارْتَفَعَتِ الرُّوحُ عَنْ هَذَا العَالَمِ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مؤْمِنٌ يَقُولُ: «الله الله»[2]، أَو كَمَا فِي رِوَايَةٍ[3]: «لا إِلَهَ إِلا الله» خَرِبَ العَالَمُ وَقَامَتِ السَّاعَةُ.

وَإِنَّ مِمَّا جَاءَ فِي فَضْلِ وَشَرَف حِفْظِ القُرْآنِ الكَرِيمِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، قَولُهُ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيثِ الذِي رَوَاهُ

---

(١) يَعنِي: أَنَّ القُرآنَ هُوَ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ التِي لا يَمْحُو المَاءُ مَا فِيْهَا، وَهَذَا أَقْوَى مِنْ حِفْظِ السُّطُوْرِ الَّتِي حَوَتْ بَقِيَّةَ الكُتُبِ، فَإِنَّ المَاءَ يَمْحُوهَا.

(٢) هَذَا كَمَا جَاءَ فِي (صَحِيحِ) مُسْلِمٍ كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ ذَهَابِ الإِيمَانِ آخِرَ الزَّمَانِ /١٤٨/ (١/ ٣٠٠) عَن أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ اللهُ».

(٣) عِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي (المُسْنَدِ): (٣/ ٢٦٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

التِّرمِذِيُّ[(١)] عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَاسْتَظْهَرَهُ، فَأَحَلَّ حَلالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، أَدْخَلَهُ الله بِهِ الجَنَّةَ، وَشَفَّعَهُ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُم النَّارُ».

وَنَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا بِالقُرآنِ، وَيَحْفَظَ القُرآنَ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ سُبْحَانَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَنْبِيَاءَ الله تَعَالَى تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ يَقِظَةٌ لا تَنَامُ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ[(٢)] عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله تَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟.

قَالَ: «تَنَامُ عَيْنِي وَلا يَنَامُ قَلْبِي».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلبُخَارِيِّ أَيْضاً[(٣)] قَالَ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: «وَالنَّبِيُّ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَائِمَةٌ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ[(٤)]».

وَلِذَلِكَ يَتَلَقَّوْنَ الوَحْيَ عَنِ الله تَعَالَى فِي حَالِ اليَقَظَةِ وَحَالِ النَّوْمِ[(٥)] عَلَى حَدٍّ سَوَاء، وَهٰذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ

---

(١) فِي كِتَابِ فَضَائِلِ القُرآنِ، بابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ قَارِي القُرآنِ /٢٩٠٧/ (٨/ ١١٢).

(٢) فِي كِتَابِ المَنَاقِبِ، باب كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَنَامُ عَيْنُهُ ولا يَنَامُ قَلْبُهُ/ ٣٥٦٩/ (٦/ ٥٧٩).

(٣) في كتاب المناقب/ ٣٥٧٠/ (٦/ ٥٧٩).

(٤) وَمِثْلُ هَذَا لا يُقَالُ بِالرَّأيِ فَلَهُ حُكْمُ المَرْفُوعِ، وَهَذا الأَمْرُ يُعَدُّ مِنْ خَصَائِصِ الأَنْبِيَاءِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

(٥) وَمِنْ هَذَا وَحْيُ الله تَعَالَى لِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَأَمْرُهُ لَهُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَقَد جَاءَ ذَلِكَ فِي المَنَامِ. كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قَالَ=

المُتَقَدِّم: «وَأَنْزَلتُ عَلَيْكَ كِتَاباً لا يَغْسِلُهُ المَاءُ ، تَقْرَؤهُ نَائِماً وَيَقْظَانَ» وَصَلَّى الله عَلَى سَيِّدنَا مُحَمْدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.
والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

= ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

الدرس الأول
حول تفسير الآية الأولى
من سورة الإسراء

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

لقد جَرَت عادة الله تعالى في القرآن الكريم أن يَفْتَتِح ذِكْر الآيات العِظَام بالتسبيح كقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧] ، وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [يس: ٣٦] ، وقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [يس: ٨٣] ، وذلك لِيُبَيِّن سَعَة عِلْمِه سبحانه وعظمة قدرته.

ولمَّا كان أمر الإسراء والمِعْرَاج أمرٌ كبيرٌ ، خَارِقٌ للعَاداتِ البَشريَّة ، وظهرت فيه قُدرة الله تعالى التي لا تَتَنَاهى؛ افتتح سبحانه ذِكْر إسرائه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد الأقصى ، وعُروجه به إلى السماوات بالتَّسبيح ، فقال سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

ففي تسبيح الله في الآية: تنزيه له سبحانه في قدرته التي

لا تتناهى عن أن يكون لها حَدٌّ أو قَيْد ، وأنه تعالى لا يُعْجِزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

كما أن في التسبيح أيضاً تنزيهاً لله تعالى عن أن يكون قد قرَّب إليه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قُرباً مكانياً أو جِسمانياً أو زمانياً ، بل هو قُرْبُ رُتْبَة وَمَقام ، خُصَّ به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من خَلْق الله أجمعين ، حتى نال مقام المُشاهدة والتكليم ، ورؤية الله تعالى بلا كَيْف وأَيْن.

وقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: ليلاً. لأنه يُقال في اللغة: سَرَى إذا مشى في الليل ، وسار إذا مشى في النهار.

وقوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ إضافة تشريف وتكريم ، وقد وصفه سبحانه بالعَبْدية دون غيرها من المقامات؛ لأنها أشرف المقامات الإنسانية ، التي تحقق بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأنَّ في العبودية التَّقَرب من حضرة الرُّبوبية ، ويلزم للتحقق بالعبودية أن يقوم العبد بواجب العبادة لله تعالى وحده ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ فيه بيان شدة عنايته سبحانه برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعظيم قدرته ، إذ جاء بالباء في قوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ للمصاحبة ، ولم يقل: رَحَل عبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فهو سبحانه بقدرته وعنايته أسرى بعبده.

ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع رجله في الغَرْز على دابته قاصداً سفراً قال: «اللهمَّ أنت الصاحب في السفر»

الحديث[1]. فهو صلى الله عليه وآله وسلم يطلب من الله صُحْبتَه له ـ أي: عنايته به ورعايته له ـ.

قوله تعالى: ﴿لَيۡلٗا﴾ مع أن كلمة أسرى تدل على حصول ذلك في الليل، نعم ذَكَرَ ذلك ليُبَيِّن أن قضية الإسراء والمعراج قد استغرقت جُزءاً يَسِيْراً من الليل، لأنّ قوله تعالى: ﴿لَيۡلٗا﴾ نَكِرَة، والنكرة هنا للتَّقليل. وهذا أبْلَغُ في القدرة.

ولمَّا كان زمن الليل يُعتبر غَيباً بالنسبة لأمر النهار، لأنَّ الأشياء تغيب فيه عن الشهود، وكان أمر الإسراء والمعراج إطلاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عوالمَ غيبية، ودخول فيها، ناسب أن يكون ذلك في زمن غيبي وهو الليل، ففي الزمن الغيبي شاهَدَ صلى الله عليه وآله وسلم المُغَيَّبَات.

ومن ناحية أخرى فإنَّ الليل هو وقت التجليات الإلَهية، والتنزلات الرَّحمانية، وهو وقت قيام المُقربين والمحبين لرب العالمين، ومناجاتهم ودعائهم وصلاتهم لله تعالى، ولذلك قرَّب الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم إليه قُرباً خاصاً به.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فهو مسجدٌ له شَرَفه وفضله على غيره من المساجد، وله حُرمته الخاصة، فلا يجوز دخوله إلا بإحرام بعمرة أو حج، وصَيْده حَرَام، وقَطْعُ شجره حرام. وانظر تفاصيل ذلك في كتب الفقه.

﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أي: المُقدَّس الطاهر، المُنزه عن الدَّنس

---

(١) كما في (صحيح) مسلم، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره /١٣٤٢/ (٣/١٣٧٨) وهو جزء من حديث طويل عن ابن عمر رضي الله عنهما.

والرِّجس ، وقد صَلَّت فيه الأنبياء ، وصلَّى فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وزاده وزادهم شرفاً.

والمراد من الأقصى في الآية: التَّقَاصي المَعْنوي ، وهو البُعد عن الدَّنس والرِّجس ، وكذلك من التقاصي المادي ، وهو أنه أبعد ما يكون من المساجد وقتئذٍ عن المسجد الحرام.

وقد ورد أَنَّ من علامات الساعة انتهاك حُرُمات المسجد الأقصى.

وتدل الآية على أن المسجد الحرام هو أعظم وأفضل من المسجد الأقصى ، لأن وصفه له سبحانه بأنه حرام ، أي: مبارك مقدَّس طاهر ، لا يَحِلُّ لأحدٍ أن يدخلَه إلا بإحرام.

وإنَّ مَوضع الكعبة المُشرَّفة هو أول بُقعة خُلِقَت من الأرض ، ثم دُحِيَت الأرض من تحتها وبُسِطَت ، ثم أمرَ الله تعالى بعد ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعدها ، وبنى المسجد الحرام أيضاً.

أما المسجد الأقصى: فهو ثاني مسجد بُني بعد المسجد الحرام ، وقد بناه سيدنا يعقوب عليه السلام ، ثم بعد ذلك جاء سيدنا سليمان عليه السلام ووسَّع بناء المسجد الأقصى.

وإن الفترة الزَّمنية بين بناء المسجد الحرام وبناء المسجد الأقصى هي أربعون سنة كما ورد ذلك في الحديث(١).

---

(١) الذي رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ١٥٠) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة / ٥٢٠/ (٢/ ٦٥٩) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: باركنا فيه حتى عمَّت البَرَكة ما حوله.

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ على وجه تخصيصه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك. ولو قال: لِيَرى من آياتنا، أي: لكان ذلك بالقُدرة البشرية، بل إن قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: بقدرتنا وليس بمُستطاع البشر ذلك.

ولقد أعدَّ الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وأمدَّه بالقُوة والقُدرة، ثمَّ أَراه وأَسمعه وأَطلعه على تلك الآيات الكبرى.

أما المُراد من الآيات التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليست آيات أرضية، تقتصر على بناء المسجد الأقصى وما هناك؛ من صَخر ووديان وأشجار، إذ ليس هذا خاصاً به صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي آيات عُلوية خُصَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برؤيتها عندما عُرج به إلى السماوات وما فوقها، وقد أشار إليها سبحانه في أوائل سورة النجم بقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

فجاءت آية الإسراء تنصُّ على الإسراء، وتدل على المعراج أيضاً الذي جاء النص عليه في أول سورة النَّجم.

وقد افتتح الله تعالى سورة النجم بالقَسَم بالنجم إذا هَوَى ، والمُراد جِنس النجوم السَيَّارة ، التي تجري في أفلاكها بسرعة فائِقة ، وهذا معنى الهُوِي ، وقد أقسم سبحانه بذلك لِيُبَيِّن أن الذي قَدَر على تسيير النجوم في أفلاكها بهذه السرعة الكبيرة وهو الله تعالى ، مع الحِفاظ على جِرمها من التَّفَتُّت ، وعلى جَريانها من الاضطراب ، لهو سبحانه قادر أن يسريَ ويعرجَ برسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويطويَ به تلك المَسافات الشَّاسِعة ، مع الحِفاظ على جِسمه ورُوحه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا أنكرت ذلك فعليك أن تُنكر جَريان النجوم في أفلاكها مع ضخامتها بهذه السرعة الفائقة ، دون توقُّف أو اضطراب أو خَلل ، ولا يَسَعك ذلك ، لأنَّ ذلك من الآيات المَشهودة لكل إنسان ، والدَّالة على عظمة قدرة الله تعالى.

فلقد أقسم سبحانه بالنَّجم إذا هَوَى لِيُقيم لك البُرهان والدَّليل على قدرته تعالى؛ على أن يسريَ ويعرجَ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في زمن يَسِير من الليل.

قوله تعالى: ﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ ﴾ صاحبكم: أي بالمعرفة ، فأنتم تعرفونه حقَّ المعرفة ، وقد تربَّى ونشأ بينكم ، ولم تعثُروا له على زَلَّة ، ولم تجربوا عليه إلا الصدق والأمانة ، والعفَّة والنَّزاهة ، فما ضلَّ بل هو على الهِداية ، وما غَوى بل هو على الرَّشاد صلى الله عليه وآله وسلم. وما دام أنكم تعرفون ذلك فيه فَلِمَ أنكرتم عليه أنه يُوحى إليه؟! وأنه نبيُّ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه قد أُسريَ به إلى بيت المقدس ثم عُرِج به إلى السماوات وما فوقها؟!!

ولو أن كفار قريش لَمَسوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضَلالة حال صغره أو شُبوبيته لقالوا له: أنت كنت فعلت كذا، ووقع منك كذا، والآن جئت تنهانا عنه!! ولكنهم لم يقولوا ذلك، لأنهم يعرفون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من صغره بالصدق والأمانة، والعفَّة والنَّزاهة، والأخلاق العظيمة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ بل هو على هداية من الله تعالى من صغره صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما عَجزت كفار قريش عن أن يعثُروا على زلَّة أو هَفْوة صدرت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم يعرفون حق المعرفة أنه الصادق الأمين، راحوا يتَّهمونه مَرَّة بالسِّحر، ومرَّة بالجُنون، ومرَّة بالكَهانة، ومرَّة بالشِّعر ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

وأمَّا المُراد من قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ فهو الضَّلال اللُّغوي، وهو أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا كان صغيراً تاه مرَّة في شِعَاب مكَّة، وردَّه الله تعالى إلى جدِّه عبد المطلب.

ولمَّا نَفَى الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كلَّ ضلالة في أفعاله صلى الله غليه وآله وسلم، وبيَّن أنَّه على الهُدى والرَّشاد، نفى عنه سبحانه أيضاً الضلال والخَطأ في كلامه ونُطقه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، فهو صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطِق عن هَوَى نفس، كمَا هو في نفوسكم وأهوائكم، بل إنَّ نطقَه وكلامَه صلى الله عليه وآله وسلم بوحي الله تعالى إليه، فلا يتكلم إلا عن أمر ووحي من الله تعالى.

وأما سِدْرة المُنتهى: فهي عالمٌ كبير مُحيط بالسماء السابعة، ينتهي إليها ما تحتها، وَيَحطُّ عندها ما فوقها من أوامر إلَهية.

ولما تجلَّى الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالرؤيا عند سدرة المنتهى: غَشِيَتْها ـ أي: غطَّتها ـ أنوارٌ من جَمَال الله تعالى، كمَا قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: ونُسمعه من آياتنا أيضاً، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فالله تعالى السميع البصير، الذي لا حدَّ لسمعه وبصره سبحانه، أَرى وأَسمع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من آياته سبحانه ما أَراه، ومن ذلك ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثمَّ رُفعت لمُستوى أَسمع فيه صَريف الأقلام»(١) وذلك بإسماع الله تعالى له، وإبصاره له.

أما فوائد الإسراء والمعراج التي تعود على الأمة المحمدية فأوّلها: أن يعلموا ويؤمنوا أنَّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أفضل الأنبياء والمرسلين، وقد خصَّه الله تعالى بالإسراء والمعراج دون غيره من الأنبياء.

ثم إنَّ فيه فوائد كبرى تحتاج إلى تفصيل، ومنها أنَّه سبحانه لمَّا أخبرنا بوجود الجنة والنار، والسماوات، والملائكة، وغيرها من الأمور الغَيبية، أَطْلَع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عليها عِياناً، وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُخبرنا إنِّي هكذا رأيت،

---

(١) كما في صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء / ٣٤٩/ (١/٤٥٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ /١٦٣/ (١/٣٢٧) عن ابن عباس وأبي حبة الأنصاري رضي الله عنهم.

ممَّا يزيد في إيمان المؤمن وإيقانه ، حتى وكأنَّه شاهد ذلك عِياناً ، لأن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لتلك المُغيبات أصدق من رؤية خلق الله أجمعين ، فلمَّا رآها وأخبرنا فكأنَّنا رأينا ، لأن رؤيتَه صلى الله عليه وآله وسلم فوق رؤيتنا ، وقوَّتَه فوق قوتنا وهكذا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.
والحمد لله رب العالمين.

* * *

الدرس الثاني
حول تفسير الآية الأولى
من سورة الإسراء

اعلم أنَّ التَّسبيح هو أساسُ التوحيد ، وهو يعني: تنزيه الله تعالى عن الشَّبيه والنَّظير ، سواء في ذاته أو صفاته ، وتنزيه الله تعالى عن جميع ما لا يليق به في كمالاته وصفاته ، فما أعظم قدرته التي أسرى بها برسوله صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عَرج به إلى السماوات وما فوقها ، وقطع تلك المسافات الشَّاسِعة في زمن يسير من الليل ، وقد قرَّب عبده وحبيبه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إليه ، قُرباً لائقاً به سبحانه ، قرباً مُنزهاً عن المكان والزَّمان ، ومُنزَّهاً عن القُرب الجسماني أو الروحاني، إذ أنه سبحانه لا يُقيِّده مكان ، ولا يحتويه زمان ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وليس العروج مُجرد صعود وعلو ، بل هو أيضاً دخول في تلك العوالم العلوية الغيبية ، كما قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٣ ـ ٤].

ولمَّا يعرج المَلَك إلى كل سماء يدخل فيها ، ويتناسب معها ، ويأخذ حكمها ، وكذلك لما عُرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات فقد دخل في كل سماء؛ وأخذ حكمها ، ورأى فيها ما رأى.

وقد بيَّن سبحانه الحكمة من الإسراء والمعراج بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ وليس المُراد بهذه الآياتِ الطريق إلى بيت المقدس ، أو الجبال أو الوِديان ، أو جدران بيت المقدس وما فيه!! فإنَّ هذا أمر يراه كل من سافر إلى بيت المقدس ، فما وَجْهُ تخصيصه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك عندئذٍ؟!

نعم إنَّ هذه الآيات هي آيات عُلوية غيبية ، خُصَّ بمشاهدتها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي تُشير إلى عروجه صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات ، التي جاء النَّص به صريحاً في قوله تعالى في أول سورة النَّجم: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ، ومن تلك الآيات: الجنة ، وسِدرة المُنتهى ، والبيت المَعمور ، والملائكة الكِرام ، وجبريل عليه السلام على حقيقته الجِبريلية ، وغير ذلك...

ولقد جاء النَّص صراحة على معراجه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريلَ عليه السلام مرة أخرى ، غير المرَّة التي رآه فيها عِند بَطْحَاء مكة ، وأين رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عليه السلام؟ قال: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وجنة المأوى فوق السماء السابعة.

واعلم أن السماوات عالم طُهْر وقُدْس ، وأما الأرض ففيها

الدَّنس وفيها القُدس ، ففيها الأماكن المُقدَّسة وفيها الأماكن النَّجِسة ، وفيها الطاهر وفيها النجس.

وأما سكانُ السماوات فَهُمُ الملائكة الطاهرون الطيِّبون ، وفيها أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتأوي إليها أرواح الأولياء رضوان الله عليهم ، ولا يدخل السماوات إلا طاهر طيب.

وإنَّ الجِن مع لَطَافة أجسامهم لا يستطيعون دخول السماء ، بل قد يصعدون لِيَسْتَرِقُوا السَّمع ويسمعوا أحاديث الملائكة ، فلمَّا تشعر الملائكة بهم يرمُونهم بالشُّهب ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر : ١٨].

كمَا أنَّ أرواح المؤمنين الطيِّبة تعرُج بها الملائكة إلى السماوات، وتفتح لها أبوابها ، كما دلَّت على ذلك الأحاديث[١].

أما الكفار فلا تُفتح لهم أبواب السماء ، لا لأرواحهم ولا لأجسامهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] ، وتُرد أرواحهم إلى أسفل سافلين ، كمَا بيَّنت ذلك أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنَّه لا يمكن لأحد أن يدخل السماء إلا بإذن من الله تعالى؛ ولو كان طيِّباً طاهر الروح ، دلَّ على ذلك حديث معراجه صلى الله عليه وآله وسلم وقوله: «فاستَفْتَح جبريل ـ أي: طلب أن يُفتح باب السماء ، لأنَّ كل باب من أبواب السماء عليه خَزَنته من الملائكة ـ

---

(١) منها في (مسند) الإمام أحمد (٢/ ٣٦٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وينظر (الدر المنثور) للسيوطي عند هذه الآية الكريمة.

فقيل: مَنْ؟ قال: جبريل. قيل: وَمَن معك؟ قال محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قيل: وقد أُرسل إليه؟ ـ أي: وهل دعاه الله تعالى إلى حضرته، ولم يقل أحدهم: وقد أُذِن له؟ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أكرم وأعظم من ذلك، وقد بُلِّغَت ملائكة السماوات بدعوة الحق تعالى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حضرته، وتهيَّأت لاستقباله وانتظاره صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: نعم. فَفَتح لنا»[1].

وكما يجب أن تفهم أنَّ دخول السماوات لا يتوقف على الصعود والارتفاع فقط، بل إنَّ الأمر يحتاج إلى إذن من الله تعالى؛ ونشأة أخرى يُنْشِئُها الله تعالى لذلك الذي أُذِن له، بحيث يتلاءم مع عالم السماء، وهكذا بحيث ترى الملائكة وتسمع كلامهم.

وإذا كنت لا ترى ملائكة عالم الأرض، أو تسمع كلامهم؛ لعدم استعدادك وأهليَّتك لذلك؛ فمن باب أولى أنك محتاج لنشأة تناسب عالم السماء حتى تدخلها، وتأخذ أحكامها، وترى مَنْ فيها وتسمع كلامهم.

وكذلك لو أنك جلست إلى جانب رجل نومان ـ كثير النوم ـ واقتربت منه، فهل يَعني ذلك أنك دخلت في عالم المنام؟! أو رأيت ما يرى هذا النائم[2]؟!

---

(١) الحديث في البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء /٣٤٩/ (١/٤٥٨) ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات /١٦٢/ (١/٣٢٠).

(٢) وعالم المنام: هو عالم برزخ بين عالم الأشباح وعالم الأرواح، وأما عالم البرزخ الذي هو بعد الموت؛ فهو عالم برزخ بين عالم الدنيا وعالم الآخرة.

فكما لا يعني قربك من النائم دخولك في عالم المنام ، كذلك لا يعني مجرد علوك دخولك في عالم السماء . فافهم .

وكذلك لو نَزَلْتَ في قبر مَيت واضجعت إلى جانبه ، فلا يعني أنك دخلت عالم البرزخ ، إذ كل عالم له نشأته وحكمته وما يناسبه .

ولمَّا عُرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات ودخل سماء بعد سماء ، كان يطَّلع على أهل كل سماء ، وتتكشَّف له الأمور ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ حُكْم كل سماء وما يناسبها ، مع البقاء على جسمه وروحه صلى الله عليه وآله وسلم . فسبحان الله العظيم ، الذي أسرى بعبده صلى الله عليه وآله وسلم وما أعظم قدرة الله تعالى ؟!!

ولمَّا عُرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات واطَّلع عليها ، واطَّلع على عالم السدرة وما فيها ، ودخل الجنة وأخبر عن صفتها ، ورأى النار وأخبر عنها ، مع أنها في أسفل سافلين ، إلا أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف موقفاً كُشف له عن النار وما فيها ، والمعذبين فيها بسبب المعاصي ، ولمَّا أخبرنا صلى الله عليه وآله وسلم عن جميع ذلك ، كان هذا من باب زيادة الطُّمأنينة في إيمان المؤمنين ، بأن حصل لهم ذلك بالخَبَرِ والمعاينة ، لأن في معاينته صلى الله عليه وآله وسلم لذلك ـ وهو أصدق خلق الله تعالى ـ تقوية لإيمان المؤمنين ، لأنّ رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم وشهوده لتلك العوالم : أقوى وأكمل من رؤية باقي الأمة ، لأن القُوى والمدارك التي خصَّه الله تعالى بها لا يشاركه أحد من خلق الله تعالى فيها .

ولو لم يكن في إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وآله وسلم منافع وفوائد تعود إلى الأمة؛ لَمَا أخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك ، ولَمَا أخبر عما رأى من أمور الجنة والنار وما هنالك ، ولو كان أمر الإسراء والمعراج خاصٌّ نفعه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَمَا حدَّثنا عن ذلك.

ومن جملة ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت ليلة أسري بي» ، «مررت ليلة أسري بي»...

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حضرة رب العالمين ، وتجلَّى سبحانه بالنُّور ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا سُئل هل رأيت ربَّك؟ قال: «رأيت نُوراً»[1] ولم يقل ما رأيته ، فقد رأى ربه بالتَّجلي النوراني ، وهو الصَّادق الأمين باعتراف أعدائه صلى الله عليه وآله وسلم ، فكيف يصح إنكار خبره صلى الله عليه وآله وسلم؟! وكيف يُتصور في العقل من رجل لم يُعْثَرْ عليه كذبة منذ صغره حتى شبابه وكبره ، ولم يُجَرِّب عليه الناس إلا الصدق والأمانة؟ كيف يُتصور منه أن يقول رأيت ورأيت الله تعالى ، وهو يكذب في ذلك؟!! هذا أمر لا يتصور في العقل.

ولو وسوس لك شيطانك أنه مَن رأى الله تعالى حتى تُصدق بوجوده؟ فاستعذ بالله منه وقل له: نعم لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أصدق خلق الله تعالى ، رأى ربه وأخبرنا عن ذلك ، ورأى جميع الأمور الغيبية التي أمرنا بالإيمان بها ، وخَبَرَه

---

(١) كما في (صحيح) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قوله ﷺ: «رأيت نوراً» / ٢٩٢/ (١/٣٤٦) ، عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

صلى الله عليه وآله وسلم أقوى من خَبَر العالم كلهم ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يرجح عليهم في كمالاته وفضائله وشمائله ، فكيف خَبَر من هذا شأنه؟! .

ولمَّا أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه أمَّة في كمالاته وتقواه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: أنَّ كمالاته تتَّسع لأمة بأكملها ، فإنَّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مجموعة الأمم كلها ، لأنه أُرسل إلى الأمم كلها ، فهو إمام الأئمة وهادي كل أمة ، فلو جَمَعْتَ كمالات الأمم بما فيها لرجحهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقيل:

وليسَ على اللهِ بمُسْتَنْكَرٍ أنْ يجمَعَ العَالمَ في وَاحِدِ

وإنَّ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يدلُ على أنَّ الإسراء والمعراج حصل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بروحه وجسده ، لأنَّ القرآنَ الكريم نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبيْنٍ ، فلمَّا قال الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] ليس المعنى: قل لأرواحهم يقيموا الصلاة ، بل الخِطاب للأجساد والأرواح .

وكذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] أي: على جسمه وروحه .

وكذلك قوله تعالى لموسى عليه السَّلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣] بأجسامهم وأرواحهم .

ومن ناحية أخرى فإن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣ـ١٥] أي: لمَّا انتهى

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك العالم بجسمه وروحه رأى ما رأى.

ولـيسَ كلُّ خلافٍ جـاء مُعتبراً   إلا خِلافاً لـهُ حظٌّ منَ الأثَـرِ

ولا خلاف في إسرائه وعروجه صلى الله عليه وآله وسلم بجسده وروحه إلى السماوات.

وأمّا المعراج الروحاني فليس خاصّاً بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إنَّ أرواح المؤمنين كلِّهم تعرج بعد الموت إلى السماوات، وقد عُرج بأرواح جميع الأنبياء في حياتهم الدنيا؛ عُرج بها إلى السماوات، إلا أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خُصِّصَ بالمعراج الجسماني والروحاني صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الدرس الثالث
حول تفسير الآية الأولى
من سورة الإسراء

وتُسمَّى هذه السورة بسورة بني إسرائيل أيضاً ، وأمَّا ما يجري على ألسنة العَوام بسورة الأسرا فهذا باطل شرعاً ، لأن أسماء السُّور أمر توقيفي ، وكلمة أسرا جمع أسير ، وهذا معنىً مُخالف كلياً لكلمة الإسراء.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قد تُطلق على الكعبة المُشرفة ، وقد تطلق على المسجد المعروف حول الكعبة ، وقد تطلق على جميع الحَرَم أي: مكة وما حولها من الحرم ، ويُعرف ذلك من السِّيَاق والمناسبة.

أمَّا المراد في الآية السابقة فالمسجد نفسه ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان جالساً إلى جانب الكعبة لمَّا جاء جبريل عليه السلام بالبُراق ، وسَرَى إلى بيت المقدس بقدرة الله تعالى ، ثم عَرج إلى السماوات وما فوقها.

﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: باركنا فيه ، وعمَّت البَرَكَة ما حوله.

أمَّا المسجد الحرام فهو أعظم وأفضل من المسجد الأقصى ، لأنه مبارك فيه ومبارَك ما حوله ، وَيَحرُم فيه ما لا يَحرم في غيره ،

ويحرم على الإنسان دخوله إلا بإحرام لعمرة أو حج.

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: آياتنا التي ما رآها غيره، إذ نسبة الآيات إلى الله تعالى ﴿ءَايَٰتِنَآ﴾ فيه تخصيصٌ وتشريفٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

وهذه الآيات هي الآيات العُلوية التي ذكرها سبحانه في سورة النَّجم بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

ومن أعظمِ تلك الآيات التي شاهدها صلى الله عليه وآله وسلم هي مُشاهدته للرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السماوات، إذ إنَّ الرسل والأنبياء هم أعظم آيات الله تعالى، وهم أعظم من الآيات الكَوْنِيَّة، بل إنَّ الأرض وما فيها مُسَخَّرٌ للرُّسل عليهم الصلاة والسلام، فقد ضرب سيدنا موسى عليه السلام البحر فانشقَّ له اثني عشر طريقاً، كما انقادَت الأحجار والأشجار لأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانشَقَّ القمر له نصفين لمَّا سأل الله ذلك، وهكذا اطَّلع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أوامر السماوات ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢]. فكلُّ أمر في السماء له وجود حِسي أو معنوي في عالم الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: المَرئيَّة، ونُسْمِعَه من آياتنا المَسْمُوعة، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهذا من باب الاكتفاء كما هو في علم البلاغة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الضَّمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى الله تعالى، فالله السميع البصير، أعطى رسوله صلى الله عليه وآله

وسلم قوةً في سمعه وبصره ، فأراه ليلة الإسراء ما لم يُرِ غيرَه ، وأَسْمَعَه ما لم يُسمِع غيره.

وقال كثيرٌ من العلماء أيضاً: إنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، المُشار إليه بقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ وقالوا: إنَّ الضَّميرَ يعود إلى أقرب مَذْكُور ، وهو في الآية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم السميع البصير ، أُعطي قوةً في السَّمع والبصر ما أُعطيها غيره ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنِّي أرى ما لا تَرَون وأسمعُ ما لا تَسْمَعُون»[(١)].

وإنَّ في الإسراء والمعراج تكريماً وتفضيلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء والمُرسلين ، وإعلاء شأنه في الملأ الأعلى ، وتقريبه صلى الله عليه وآله وسلم إلى حضرة الربوبية قُرباً لم يَنَلْه غيره صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك فوائد وعوائد كثيرة تعود إلى الأمة ، ومن جملتها: إقامة الحُجَّة وزيادة البُرهان على قضايا الإيمان الغيبية ، فإنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر عنها وأمَرَ بالإيمان بها ، وأخبر أنَّه رآها عِيَاناً ، وهو الصَّادق الأمين ، فكان هذا أبلغ في إقامة الحجة والبرهان ، إذ حصل ذلك بالدَّليل السمعي والعِياني ، لأنَّ رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم للمُغيَّبات وإخباره عنها أقوى وأصدق من

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ١٧٣) والترمذي في السنن كتاب الزهد ، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم...» /٢٣١٣/ (٧/ ٧٤).

رؤية جميع خلق الله ، لأنَّه أعظم وأفضل وأصدق خلق الله أجمعين .

وإذا كنت لا تصدق بوجود الأشياء إلا برؤيتها ، لَحَملك ذلك على إنكار أمور كثيرة ، مع أَنَّ خلقاً كثيراً قد رآها ، وهذا لا يقول به عاقل ، وإذا كنت تُصدق بخبر ورؤية من أخبرك عن وجود البلد الفلاني ، أو الأمر الفلاني ، وتعرف به الصدق والأمانة ، فاعلم أَنَّ أصدق خلق الله تعالى ، الذي اختاره الله تعالى من جميع خلقه ، وأرسله إليهم هادياً ومبشراً ونذيراً ، قد أخبرك بأنه رأى تلك المغيبات عنك ، والتي أُمرت أن تؤمن بها ، وهذا ما يحملك على الإذعان والانقياد لتصديقه ، والإيمان بها على وجه أكمل ، لأنَّ الحجة قد قامت بأدلة متنوعة خبرية وبصرية .

وأما عن صدقه صلى الله عليه وآله وسلم فقد اعترف بذلك أعداؤه حتى أبو جهل نفسه قال: لقد كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فينا وهو شاب يُدْعَىٰ الصادق الأمين ، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله .

ولا يجوز الكذب عليه صلى الله عليه وآله وسلم عقلاً ، ولا يصح ذلك في العقل ، إذ إنه صلى الله عليه وآله وسلم صاحب العقل الراجح ، والحكمة البالغة ، حيث أَلَّفَ بحكمته بين أشتات القبائل ، ونقل العالم من حال الجهل والضلال إلى حال العلم والنور والهداية ، فكيف يجوز على هذا النبي العظيم صاحب الخلق العظيم أن يكذب؟!! إذ إن الصدق هو منهج العاقل الحكيم على الدوام ، فما بالك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!!

ولم يعترف المشركون بنبوة ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه

وآله وسلم مع أنهم يعلمون أنه الصادق الأمين في جميع ما أخبر عنه ، وما ذلك إلا جحوداً منهم ، وظلماً وتكبراً ، وعصبية جاهلية كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ ـ أي : لا يعتقدون أنك كاذب ـ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] والجحود : إنكار بعد علم . بسبب ظلمهم وتكبرهم وعنادهم .

وإنَّ الإيمان ليس مجرد علم ومعرفة ، بل علم ومعرفة واعتراف ، وتصديق وإذعان للذي آمنت به ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[النساء : ٦٤] .

وليس كل مَنْ عرف الحق فقد اعترف به ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦] ومع ذلك لم يعترفوا ، بل راحوا يَتَّهمونه بالسحر والكهانة والشعر والجنون ، مع أنهم يعرفون أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعترفوا .

وإن رؤية العالِم بالشيء المخبر به؛ أقوى من رؤية من لا علم ولا خبرة له بذلك الشيء ، ولذلك كانت رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتلك المغيبات أقوى وأكمل من رؤية خلق الله ، لأنه أعلم خلق الله ، وأصدقهم وأعقلهم .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «ثم رفعت لمستوىً» ـ كلمة تطلق على كل معتلى ، لأن الاستواء هو الاعتلاء ـ «أسمع فيه صريف الأقلام»[(١)] أي : وهي تجري بأحكام القضاء والقدر ، وهو سماع فهم وإدراك . وكلما تحرك القلم بشيء ظهر أثره في عالم

---

(١) الحديث في البخاري أول كتاب الصلاة / ٣٢٩/ (١/ ٤٥٩) ومسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم / ١٦٣/ (١/ ٣٢٧).

الأرض ، إذ كل أمر يجري بقضاء الله وقدره ، وإن مَن وقف هناك فقد اطلع على أسرار حركات العالم ، فما أعظم ذلك الموقف الذي وقفه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟!!

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الدرس الرابع
حول تفسير الآية الأولى
من سورة الإسراء

إنَّ مَنْ نَظَر في كتاب الله تعالى وَجَد أنَّ الله تعالى قد افتتح بعض السُّور بالتَّسبيح، وبعضها بالتَّحميد، وافتتح بعضها بأحرف تدل على بعض أسمائه سبحانه، كلٌّ ذلك على وجهِ مدحِه سبحانه لنفسِه وثنائِه وتمجيدِه لنفسه، وحُقَّ له ذلك سبحانه لأنَّ كمالاتِه ذاتيةٌ له.

وأمَّا غيره مِنْ خلقه فلا يَحِقُّ له أن يمدح نفسه إلا على سبيل ذِكر النِّعمة من الله تعالى، وشُكره عليها سبحانه، لأنَّ جميع ما عند العبد من نِعَمٍ وكمالات هي بعطاء الله تعالى له.

أمَّا التَّسبيح: فهو التَّنزيه، ومعنى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: أنَّه سبحانه يُسَبِّح نفسه تسبيحاً مُطلقاً، ولمَّا تقول: «سُبحان الله» أي: أُنَزِّه الله تعالى تنزيهاً مُطلقاً يليق به.

وأما التَّحميد: فهو إثبات الكمالات لله اللائقة به سبحانه، وهذا أصل التوحيد والعقيدة الإيمانية، تسبيحٌ وتحميدٌ. أي: تنزيهٌ وإثبات.

أمَّا الحِكمة والمُناسبة في افتتاح ذِكر الإسراء والمعراج بالتَّسبيح فهو: ليُبَيِّن لك أنَّه سبحانه أَجَلُّ عِلماً، وأعظمُ قُدرةً ممَّا تَتَصَوَّرُه أو تتعجَّبه أيُّها الإنسان، وله سبحانه القدرة المُطلقة التي لا يَحُدُّها حدٌّ، ولا يُعجزُه شيء سبحانه وتعالى، فهو سبحانه بقدرتِه وعِلمه وحِكْمَته؛ أسرى وَعَرج بعبده صلى الله عليه وآله وسلم، وطَوى به تلك المسافات الواسعة، وأطلَعَه وأراه وأسمعه، وكشف له عن المُغَيَّبَات الكثيرة، التي أخبر عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كلُّ ذلك وقع في جُزء من الليل يسير.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الآية [يٰس: ٣٦] أي: تنزَّه الله أن يكون عاجزاً عن خلقها، بل هو الخالق والقادر على ذلك.

ولم يكن الإسراء والمعراج بالقدرة البشرية، إذ لم يقل: سَرَى عبدُه ليلاً، بل كان بالقُدرة الإلٰهية، والعِنَاية الربانيَّة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ أي: بصُحبة عبده وعِنَايته سبحانه به.

وقد ذَكر سبحانه كلمة: ﴿لَيۡلٗا﴾ مع أنَّ كلمة: ﴿أَسۡرَىٰ﴾ تدلُّ على حصول الإسراء والمعراج في الليل: ليُبَيِّن أنَّ ذلكِ حصل في قِسطٍ من الليل يسير، والتَّنكِير في الآية للتَّقليل، وهذا أبلَغُ في القُدرة الإلٰهية.

وقد ذَكَرَ أهلُ الله رضي الله عنهم قولهم: عندَ الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرى. أي: إذا كان العبد له حِصَّة من السرى في الليل فهو ينال الفلاح عند الصباح، كمن كان يقطع المسافات في الليل ويفرح بطلوع الصباح.

وقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: ذلك العبد المُخَصَّص لنيل تلك المَقَامات العالية في القُرب من حضرة الرَّب. وفي هذا بيان من الله تعالى أنَّ التَّقرب إليه لا يكون إلا بالتحقق بالعُبوديَّة، وأعظم العِبَاد والعُبَّاد سيِّدُنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، سيدُ الأولينَ والآخرِين.

ولمَّا وصل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المَقْدِس كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلُّهم ينتظرون تشريفه صلى الله عليه وآله وسلم، فلمَّا حضر قدَّمَه جبريل عليه السلام وصلى بهم إمَاماً صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ هي الآيات العُلويَّة السماويَّة التي ذكرها سبحانه في سورة النَّجم: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ الآيات، وذلك بعد ذِكر أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل عليه السلام على حقيقته الجبريلية ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ فكان الإسراء مُقَدِّمة للمعراج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: أنَّ الله تعالى السَّميع البصير، الذي لا نهاية لسمعه وبصره سبحانه، أمدَّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقوة في سمعه وبصره، حتى رأى ما رأى، وسمع ما سمع، حتى كان يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «سمعتُ تسبيح السماوات، سبَّحت السماوات العُلى من ذي المَهابة العليِّ الأعلى»[1].

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني (مجمع الزوائد) (١/ ٧٨) عن سيدنا عبد الرحمن بن قرط رضي الله عنه.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنِّي أرى ما لا ترون وأسمَعُ ما لا تسمعون» الحديث[١].

وإنَّ العُبوديَّة هي اعترافُ الإنسان بحقيقته، وتحققه بها لا يكون إلا أنْ يَعلم العبد أنَّ ما فيه من قُوىً ومدارك ونِعَم كلُّ ذلك من الله تعالى، مُعْتَرِفاً مُقرّاً على نفسه بالفقر الكُليِّ إلى الله تعالى.

ولمَّا أعطاك سبحانه ما أعطاك من النِّعم والمدارك والحواس فإنَّك لم تمتلكها، ولو كان الأمر كذلك فاملك عليك سمعك أو بصرك أو قوتك من الضعف أو الزوال، ولولا أنَّ الله تعالى يُمدُّك بذلك لَفَقَدْته، فأنت مُحتاجٌ إليه في كل لحظة، وفقيرٌ إليه فقراً ذاتياً لا يَنْفَكُّ عنك، ولا غِنى لك عن ربِّك أبداً، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

واعلم أنَّه لا حول ولا قوّة إلا بالله، فهو المُحوِّل وأنت المُتحوِّل، وهو القوي وقوتك به سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فمقام العَبْدية يقتضي منك أن تُفْنِي رسومك الأنانية كلها، وتتلاشى تحت أستار الرُّبوبيَّة، حتى تكون عبداً خالصاً لله تعالى، ولذلك شرع الله سبحانه العبادة لعباده حتى يتحققوا بذلك، وأعظم عبد مقرَّب هو الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: باركنا فيه وحوله، حتى

---

(١) تقدم تخريجه ص/ ٤١/.

عمَّت البركة جميع البلاد الشَّاميَّة حوله ، حتى أطراف الجزيرة العربية .

وأمَّا المعراج : فهو العُلو والصعود ، والدُّخول في تلك العوالم العُلوية ، والتَّناسب بما يلائمها ، والاطلاع على ما فيها ، كلٌّ ذلك تكريمٌ وتفضيلٌ لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أمَّا رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء فهو من باب الحِفظ له من الأعداء أن تمسَّ جسمه ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران : ٥٥] أي : قابِضُكَ جِسْمَاً وروحاً ، ورافعك إليَّ جسماً وروحاً ، ولو كان المُراد لروح عيسى عليه السلام فقط لَمَا سَاغَ قوله تعالى : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ لأنَّ جميع أرواح المؤمنين تُرفع إلى الله تعالى بعد الموت . فافهم .

لأنَّ الحِكمة من ذلك قوله تعالى : ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي : اليهود من أن يَمسُّوه بالقتل أو الصَّلْب ، لأنَّه سينزل آخر الزَّمن ، ويكون من علامات السَّاعة الكُبرى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف : ٦١] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

❊ ❊ ❊

درس
حول تفسير الآية الثانية والثالثة
من سورة الإسراء

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.

لقد أنزلَ الله تعالى التَّوراةَ على سيِّدنا موسى عليه السلام، مَكتوبة على ألواحٍ بكتابة عُلْوِيَّة، لا يستطيع أحد أن يقرأها غير سيدنا موسى عليه السلام.

﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي: جعلنا التوراة ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: فيه البَيَانات الكَامِلة لبني إسرائيل، فيما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وقد جعل الله تعالى التوراة هدىً لبني إسرائيل، وجَعَل القرآن الكريم الذي أَنْزَلَه على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هدىً للناس كافَّة، كمَا ذَكَر ذلك في نفس السُّورة بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وفي سورة الإسراء هذه يَذْكُر سبحانه الفَرْق بَيْن إسرائه بعبده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من المسجد الحرام إلى

المسجد الأقصى ، وما خصه به من رؤية الآيات الكبرى ، وَبَيْن إسرائه بسيدنا موسى عليه السلام إلى طور سيناء ، لَمَّا وعده الله تعالى بإنزال التوراة عليه ، وتكليمه إياه.

كما ذكر سبحانه الفرق بين التوراة التي أنزلها على سيدنا موسى عليه السلام ، وفيها هُدى لبني إسرائيل؛ وبين القرآن الكريم الذي أنزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ وفيه هدى للعالمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: يهدي جميع الأمم لأقوم أنواع الهَدْي ، وأقوم الخصال وأحكمها وأحسنها.

وقوله تعالى: ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وإسرائيل هو اسم لسيدنا يعقوب عليه السلام.

وكلمة إسرا تعني: عبد ، وكلمة إيل تعني: الله ، وهذا باللغة العبرانية ، ويعني: عبد الله.

ومنه جبرائيل، ميكائيل، إسماعيل، فجبرائيل يعني: صفوة الله، وهكذا...

وبنو إسرائيل هم ذريته الذين جاؤوا من أولاده الاثني عشر ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] والسِّبط: هي الأمة التي تكاثرت من كل ولد من أولاد يعقوب عليه السلام ، حتى صاروا كلهم أسباطاً. أي: قبائلاً وأُمَماً.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: أَنَّ الله تعالى أنزل التوراة على سيدنا موسى عليه السلام ، وضمنها البيانات والمواعظ ،

وبيان المناهي والأوامر والواجبات ، وما أحل لهم وما حرم عليهم ، لكن الأمر الأعظم من ذلك هو ما نبههم إليه وهو : أمر التوحيد ، وهو : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي : لا تتخذوا غيري وكيلاً تتوكلون عليه في أموركم ، فلا رَبَّ لكم غيري ، ولا وكيل لكم غيري .

وذلك لأن الرب هو الوكيل ، ولا ينبغي أن تتخذوا غيره وكيلاً كما قال تعالى : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل : ٩] .

وفي هذا تنبيه لهذه الأمة المحمدية ، بأن على المؤمن أن يتخذ ربه وكيلاً يتوكل عليه في جميع أموره ، وأن لا يتكل على نفسه بحيث يصير رَبَّ نفسه ، وليعلم أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا تدبيراً ، وأنّ الأمر كله بيد الله الذي خلقه ورباه .

والتوكل هو : أن يَكِلَ العبد الأمور إلى مَنْ له الأمر كله . واعلم أنه في الوكالات المقيَّدة المحدودة بين الخلق بعضهم بعضاً لا تكون إلا لمن له علم وخبرة واسعة في هذا الأمر الموكَلِ إليه ، كما لو أردت شراء دار فيجب أن تُوكل أمر الشراء إلى من له خبرة في ذلك .

وعلى هذا : لما كان الإنسان مخلوقاً لله مربوباً له ، وهو سبحانه عالم بشؤونه كلها ، وجب على الإنسان أن يكل أموره إلى الله تعالى وحده دون غيره .

وإن الأخذ بالأسباب وتعاطيها لا ينافي التوكل على الله ، طالما يعتقد أن الأسباب أسباب وليست أرباباً ، وأن الله تعالى قد أمره بالأخذ بالأسباب ؛ مع التوكل على مسبب الأسباب ؛ ورب الأرباب وهو الله تعالى وحده .

وإن السبب مَخلوق مِنْ خلق الله تعالى ، كما أنك مخلوق من خلقه سبحانه ، ولا تأثير للسبب من ذاته ، وإنما المؤثر في السبب هو الله تعالى الذي خلق الأسباب كلها ، وإنْ شاء أعملها لِمَا خلقها له ، وإن شاء أهملها فلا تأثير لها .

وقال سبحانه في بيان تعاطي أسباب المعيشة والرزق : ﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك : ١٥] أي : من رزق الله الذي يسوقه الله لكم إن أنتم سعيتم في طلبه .

وفي الحديث : «لو أَنكم تتوكلون على الله حق توكله ؛ لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خِمَاصاً وتروح بطاناً»(١) .

فلقد خرجتِ الطير من أوكارها أول النهار ، وانطلقت في طلب قُوْتِهَا ، متوكلة على خالقها وربها ، فساق لها سبحانه ما يُقيتها ، حتى رجعت آخر النهار إلى أوكارها وهي ممتلئة البطون مَكفيَّة .

ثم نادى سبحانه بقوله : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ أي : يا ذرية مَنْ حملنا مع نوح عليه السلام في السفينة ، ويدخل في هذا الخطاب كُل من جاء بعد طوفان نوح عليه السلام من ذريته ، ومنهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال بعض العلماء : المقصود من الذرية بنو إسرائيل ، أي : يا ذرية من حملنا مع نوح من بني إسرائيل ، كونوا على قَدَم أبيكم

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٣٠ و٥٢) وهو عند الترمذي في كتاب الزهد ، باب في التوكل على الله تعالى / ٢٣٤٥/ (٧/ ٩٢) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

نوح عليه السلام ، إذ إنه كان عبداً شكوراً ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ .

وقال بعضهم : الخطاب لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد : يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين حَمَلْناكم في السفينة وأنتم في أصلاب آبائكم ـ وهم أولاد نوح عليه السلام ـ كونوا عابدين شاكرين لله ، لأن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً .

والتحقيق في الأمر : أن الخطاب يشمل ذرية نوح عليه السلام كلها ، لأن الأمم كلها إنما ترجع في أصولها إلى أولاد نوح عليه السلام ، وهم ثلاثة : حَام وسَام ويَافِث .

وسام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم ، وهكذا انتشرت ذريته في الأرض لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] .

وأما أهل الإيمان الآخَرين الذين ركبوا مع نوح عليه السلام في السفينة : فلم يتوالدوا ، ولم يكن لهم ذرية .

ولذلك يقال : إن نوحاً عليه السلام هو الأب الثاني للبشر بعد آدم عليه السلام . فالأب الأول حَملهم في صلبه ، والأب الثاني حملهم في سفينته في أصلاب أبنائه .

ولقد ذكَّر الله تعالى عباده بذلك بأن يشكروا الله على هذه النعمة ؛ بأن حملهم في أصلاب أولئك الأولاد الثلاثة ، وهم أولاد نوح عليه السلام ، حملهم في السفينة ، ثم مضت أزمنة عليهم حتى ولدوا وانتشروا في الأرض .

وإن الوجود في الأصلاب إنما هو وجود حقيقي له حكمه واعتباره ، وهو وجود إجمالي يُشبه وجود الشجرة في النواة ، ثم تفصلت وصارت شجرة لها أغصانها وأوراقها ، وفروعها وثمراتها .

وكما أُجمل الكلام الذي تكتبه في دواة الحبر الذي تكتب منه ، ثم جاء القلم وفصل ذلك الكلام بالكتابة ، وهكذا أمر الخلق إجمال وتفصيل ، والعالم كله فليقة . أي : يفلقه سبحانه شيئاً من شيء ، وهذا معنى رب الفلق في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي : الفليقة بمعنى المفلوقة ـ أي : الخليقة التي فلقها الله تعالى عن شيء قبلها ـ وإن الإنسان من جملة الفليقة التي فلقها الله تعالى من الأصلاب إلى الأرحام خلقاً بعد خلق ، حيث إنه كان في صلب آدم عليه السلام ، وقد نودي وخوطب ، وجرت عليه أحكام لها شأنها ، وفي هذا يقول سبحانه : ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام ﴿جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه : ١٢٣] الخطاب للذرية الموجودة في صلب آدم . وليس المراد أن آدم عليه السلام عدو لحواء عليها السلام ، أو أن كليهما عدو لإبليس ، إذ إنه لم يُذكر في هذه الآية ، والخطاب بقوله : ﴿ٱهْبِطَا﴾ فافهم .

وقد حصلت العداوة بين ذرية آدم لاختلاف الأمم ، فمنهم الصالح والمؤمن والسعيد ، ومنهم الطالح والفاسق والشقي ، وهكذا . . .

وقد ذكر الله سبحانه هذه الأمة المحمدية بفضله عليها فقال : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة : ١١] أي : في سفينة نوح عليه السلام ، التي جرت بعناية الله تعالى ، كما قال سبحانه :

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢] ـ وأعظم صاحب أذن واعية تعي الأمور وتفهمها على حقيقتها؛ هو سيدنا علي رضي الله عنه ـ أي: حملناكم فضلاً منا عليكم ونعمة، فلم نَجعلكم من أولئك الذين أخذهم الطوفان وغرقوا ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ فَتذكروا هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ أي: تعي المعنى عن رب العالمين، ولا تقتصر على السماع فقط!!

وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك وحذر فقال: «ويل لأقماع القول»(١) جمع قِمَع، فواحدهم في سماعه للمواعظ والتذكير كالقِمع، الذي لا يستفيد شيئاً مما يُسكب فيه من سمن وعسل، فلا تكن أيها الإنسان قِمَعا ولكن كن وِعَاءً.

ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله آنية من أهل الأرض».

قالوا: وما آنية ربنا؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قلوب عباده الصالحين»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ أي: كان عبداً لله، متواضعاً له، شكوراً لله على نعمه، ويتقرب بها إلى مرضاة الله سبحانه. لأن

---

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/١٦٥ـ٢١٩) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في (فيض القدير) (٢/٤٩٦) إلى الطبراني عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه.

الشكر هو: صرف جميع ما أنعم الله عليك فيما يقربك إليه ، ونِعَمُ الله على الإنسان كثيرة ، وكل منها ينبغي صرفها فيما يُرضي الله تعالى ، حتى يتحقق الإنسان بالشكر الكامل لله تعالى .

فهناك نعمة السمع ، والبصر ، والكلام ، والعافية ، والمال ، والقوة ، وغير ذلك ، وَمَنْ لم يصرف نعمة الله فيما يُرضيه فقد كفر نعمة الله عليه ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ﴾ [سبأ : ١٣].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير

الآيات من سورة الإسراء

من قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

لقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أعظم الحقوق على العِباد، وهي عِبادته سبحانه وحدَه، ثمَّ قَرَن ذلك بذِكر أعظم حقٍّ بَيْن العِباد وهو حقُّ الوالِدَين على وَلَدِهما.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ﴾ من القضاء وهو الحُكم، والمعنى: حَكَمَ، فهناك حُكمه سبحانه بالقضاء التَّكويني؛ ويسمى بالقضاء والقَدَر، وهناك حُكمه بمعنى قضاؤه التَّشريعي للعِباد؛ وهي الأوامر التَّشريعية. وعلى هذا فمعنى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: حَكَم وشَرَع حُكماً قطعِيّاً أنَّه لا يجوز أن يُعبد إلا الله، وكذلك حَكَم وشَرَع الإحسان إلى الوالِدَين.

أمَّا القضاء التَّكويني فهو لا يَتَخَلَّف كَمَا في الحديث القُدسي:

«يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإنِّي إذا قضيت قضاءً فإنَّه لا يُرد»[1].

ومعنى القضاء والقدر التكويني: حُكْمُ الله تعالى على الأشياء بما يجري عليها بمقتضى علمه وحكمته، وكل شيء يجري بما قُضِيَ عليه وَحُكِمَ عليه، بإرادته واختياره.

وقد جيء بكلمة: ﴿وَقَضَىٰ﴾ في الآية السابقة وهي لا تكون إلا لرفع خلاف في مسألة، نَعم لأنَّ المشركين عبدوا مع الله تعالى آلهة أخرى، ومنهم من عَبَدَ القمر والشمس والنجوم، أو الدينار والدرهم، أما أهل العقل والإيمان فقد عبدوا الله تعالى وحده.

فلما جرى الخلاف في ذلك، قضى الله سبحانه وحكم: أَنْ لا يعبد إلا هو سبحانه، وحكمه وقضاؤه هو الحق والعدل.

ومن عَبَدَ الله فقد عبد الإلّه الحق، وقد عدل وأنصف، ومن عبد غير الله فقد عبد باطلاً، وظلم وجار، كما لو قضى لك قاضٍ عادل بأمر حق ثم خالفت ما قضى؛ ألا تكون ظالماً عندئذٍ؟!

فلما قضى سبحانه أن لا يعبد سواه، فمن خالفه وعبد غيره فهو ظالم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] أي: يأمر بالتوحيد وهو لا إلّه إلا الله. وقد فسَّر العدل بالتوحيد لأنه هو القضاء الذي قضى الله به،

---

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام مسلم في الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة /٢٨٨٩/ (٥/٢٧٣٦) وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه في الفتن أيضاً عن سيدنا ثوبان رضي الله تعالى عنه.

وقضاؤه سبحانه هو الحق والعدل .

فالعدل الأول المطلوب منك أيها الإنسان أن تعدل مع الله وتشهد أن لا إله إلا الله ، وتعبده سبحانه كما أمرك ، ثم تعدل مع خلق الله تعالى كلِّهم كما شرع لك سبحانه .

ومن جعل مع الله شريكاً ؛ أو عَبَدَ معه غيره ؛ أو جَحَدَ وجوده ، فهذا ظُلمٌ منه . أي : حُكمٌ منه بالظُّلم ، لأنَّه حكم بشيء لا وجود له .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أي : فَمَا دام هو الرَّبُّ الخالقُ ، المُحيي المُربي المَالك ؛ فهو الذي يجب أن يُعبَد .

وتُطلق كلمة الرَّب على السَّيِّد ، فهو سبحانه السيِّد المُطلق بسِيادة الأُلوهيَّة ، والخَلْق كلُّهم عبيدٌ له .

وقد يَسُود بعضُ الخَلْق على بعضهم بالشَّرف والفَضْل ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا قَدِم إليه عَزيز قومٍ[1] : «قُوموا إلى سيِّدكم . . . » الحديث[2] .

وأمَّا سيِّد خَلْق الله فهو سيِّدُنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال : «أنا سيِّد ولدِ آدم يوم القيامة ولا فَخْر»[3] .

وإنَّ من حَقِّ الرَّب على العبد أنْ يعبده ، لأنه هو خَلَقَه ، ويُمِدُّه

---

(١) وهو سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير ، باب إذا نزل العدو على حكم رجل /٣٠٤٣/ (٦/ ١٦٥) ومسلم في الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد . . /١٧٦٨/ (٤/ ١٨٥٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/ ١٤٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

ويُرَبيه ، ولذلك جاء في الحديث : «أتدري ما حقُّ الله على عبادِهِ» ؟ .

قلْتُ : الله ورسولُه أعْلَمُ .

قال : «حقُّ الله على عبادِهِ أن يعبدوه ولا يُشْرِكُوا بهِ شيئاً» الحديث[١] .

أمَّا العبادة فتقوم على أمرين :

امتثال ما أمرَك الله به مع محبَّته سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] فلمَّا يُصلِّي المؤمن عن محبة لله ، وكذلك لمَّا يحج أو يصوم ، أو يتقرب إلى الله تعالى بالقربات والطاعات؛ كلها بدافع محبة الله سبحانه ، ومن زعم محبة الله وهو لا يمتثل أمره؛ فهو كاذب في دعواه ، كما قالوا :

تعصِي الإلَهَ وأنت تَزعُم حبَّه ... هذا لعَمري في القِياس بديعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إنَّ المُحب لمن يحب مُطيعُ

وكلما ازداد حب المؤمن لله تعالى ازداد في طاعته له سبحانه ، وعبادته له ، التي لا تصح إلا بما جاءك عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي : حَكَمَ شرعاً بموجب علمه وحكمته وعدله سبحانه ، أن لا يَعبدوا إلا إياه ، وحكم أيضاً ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي : أحسنوا للوالدين إحساناً مطلقاً ، في

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب اسم الفرس والحمار / ٢٨٥٦/ (٥٨/٦) ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً / ٣٠/ (١/ ١٦٥) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

الكلام والأفعال ، دون أيِّ إساءة معهما ، بل إحساناً مستمراً شاملاً.

وإن الإحسان إلى الوالدين هو أعظم حقوق المخلوقات فيما بينها ، وذلك يُعرف من كلمة: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ كما تقول القاعدة: [تعليق الحُكم على المُشتق يُؤذن بعِلة الاشتقاق] فلما علَّق الإحسان إلى الوالدين أيْ لأنهما والدان ، ولداك وربَّيَاك ، وتعِبَا في ذلك ، وبهذه الوِلادة كان وجودك ، فكانا سبباً في وجودك ، ثم قامَا بشأنك حتى كبرت؛ فلا تضيع هذا كله بل أحسن إليهما.

واعلم أنَّه وإنْ كان والِدَاك لم يَخلُقاك بل إنَّ الله تعالى هو الذي خلقك ، لكنَّهما كانا سبباً في وجودك وخَلْقِك ، ولا تُنكر السَّبب وفضله ، كما لا تُنكر الواسطَة وفضلها ، كما قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] أي: لأنَّهما كانا سبباً في وجودك ، وقامَا بشأنك.

ولا تُنكر سبب هدايتك إلى الله تعالى ، وهو الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، بل اعرف له فضله ومَقَامه وشَرَفه صلى الله عليه وآله وسلم ، وله صلى الله عليه وآله وسلم الفَضْلُ عليك أعظم من فضل والِدَيك عليك ، لأنَّهما وإن كانا سبباً في وجودك؛ إلا أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم هو السَّبب في سعادتك الدُّنيويَّة والأخروية ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم حريصٌ على هدايتك ونفعِك ، ودفعِ الأذى عنك ، وجَلْبِ الخير إليك بما لا يُقاس مع حِرص والديك على ذلك ، بل قد يأتي يَوْم يتخلَّى فيه والداك عنك لِشدة المَخاوِف والمَهالِك ، أمَّا رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم فلا يتخلَّى عن أمَّته أبداً؛ حتى يَشْفَع بهم ويُدخلَهم الجنَّة ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] فاعرف الحقَّ لأهلِه تكُن عادلاً ، وإلا فأنت ظالم.

وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو السَّبب في وجود كلِّ موجود ، باعتبار أنَّ جميع الأشياء خُلقت من النُّور المحمَّدي الجامع ، فهو الأب الروحاني الأول صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا قِيل: إنَّه ليس للوالدين حقٌّ على الولد ، لأنهما لمَّا اجتمعا مع بعضهما كان ذلك بباعِث الشَّهوة ، وليس إنجاب الولد؟!!.

فيقال: نعم إنَّه بسبب ذلك أوجدك الله تعالى ، ولولا أنْ يخلق هذه الدَّواعي فيهما لمَا اجتمعا إلى بعضهما ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩].

فلمَّا أراد سبحانه وجودك ، جعل هناك الشَّهوة والبَوَاعِث عليها بين والِدَيك ، فالتقيا مع بعضهما؛ وحصل الإنجاب ، فكانا سبباً في وجودك ، مع أنَّ كثيراً من المؤمنين مَنْ يطلب من الله أن يرزقه الولد الصَّالح ، والذُّرية الطيِّبة؛ من وراء زواجه وإتيانه شهوته. ولو رفع الله تعالى الشَّهوة من النِّساء والرِّجال على النِّكاح ، وقَدَّر لك أن توجد: لخلقك من تُراب كما خلق سيدنا آدم عليه السلام ، فلا تتَّهم والديك ، ولا تُنكر حِكمة الله في خلقه سبحانه.

وكَمَا أطاعاك وأنت صغير ، بأن قامَا بشأنك ورعايتك والعِنَاية بك؛ يجب عليك أن تُحسن إليهما وأنت كبير ، ولا تتقاعس في

ذلك، وفي الحديث: «رضا الله في رِضا الوالِد، وسُخْطُ الله في سُخْط الوالِد»[(١)].

ولمَّا سأل رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ أحقُّ النَّاس بحُسْن صحابتِي؟ قال: «أمُّك». قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّك». قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّك». قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أبوك»[(٢)] فَذَكر الأمَّ ثلاث مرَّات ثمَّ الأب.

وإنَّما أعاد ذِكْر الأم بحُسن الصُّحبة من باب التَّأكيد، لأنَّ حقَّ الأم وحق الأب في حُسن الصحبة سواء، وذلك لأنَّ حق الأم قد يَتَساهل فيه بعض النَّاس، لأنَّها ضعيفة الجانِب، فجاءت وصيَّة النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بها آكد.

وهناك من قال: إن حُسنَ صحبة الأم يجب أن يكون أكبر من الوالد؛ وإن كان الإحسان إليهما على حدٍّ واحد، إلا أنَّ إلانَة الكلام وطِيب العِشرة مع الأم آكد.

واعلم أنَّه لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق، فلا تضرب زوجتك طاعةً لأمك في أمر مُخالِف للشَّريعة، وإلا أرضيت أمَّك وأغضبت ربَّك، بل أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وإنَّ غضب أحد الوالدين في غير موضعه الشَّرعي لا اعتبار له.

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ فقد

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين / ١٩٠٠/ (٦/١٥٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري أول كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة / ٥٩٧١/ (١٠/٤٠١) ومسلم أول حديث في كتاب البر والصلة والآداب / ٢٥٤٨/ (٥/٢٥٠١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

جاءت الوصيَّة الإلَهية بالوالدين إحساناً في جميع مراحل العمر ، أمّا في مرحلة الكِبَر في السِّن فجاءت الوصية آكد ، لأنه قد يَظهر منهما أو من أحدهما في حال الكِبر أشياء لا يرتَضِيها الولد ، فجاء الأمر بعدم التّأفف من ذلك أو التَّضجر ، بل عليك بالصبر والتَّحمُّل ، والإحسان إليهما ، لأنَّهما معذوران في ذلك بسبب الكِبر في السِّن.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: بالزَّجر والكلام الفاحِش ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ الآية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

جملة دروس حول
تفسير الآيات من سورة الإسراء

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

بعد أن بيَّن سبحانه حقَّه على عباده وهو أن يعبدوه هو وحده ، وبيَّن أن أعظم حقوق المخلوقات على الإنسان هو حقُّ الوالدين ، وقد أوصى بالإحسانِ إليهما عامَّةً ، ثمَّ خصَّص ذلك عند حالة الكِبَر خاصَّة ، لأنَّه في حالة الكِبَر قد يَتغيَّر مِزَاج الإنسان ، ويعتريه النِّسيان ، وهكذا جاءت الوصيَّة بهما في تلك الحالة أشد وآكد .

ومما عُرف في الإنسان عند كِبَر سنِّه التَّعسف في الرأي والتَّصلُّب فيه ، فعلى الولد أن يَعلمَ ذلك ، ولا يقابله إلا بالكلام

اللَّيِّن والخُلُق الحَسَن: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وإنَّ مِنَ ميِّزات ومحاسِن دين الإسلام: أنْ أوصى بالآباء خيراً، وأمر بالإحسان إليهما عند كِبَرهما، وجعل ذلك من شُعب الإيمان لا من باب الامتنان، كَمَا أوصى باحترام وتكريم كِبار السِّن عامَّةً من المؤمنين، لأنَّهم شَبُّوا وشابوا في الإسلام، ولهم فضلهم واعتبارهم.

وكَمَا أمر الله سبحانه بِلِين الكلام ولُطْف المَقَال معهما، أمر بحُسن الحالِ معهما، والتَّواضع لهما والتَّذلُّل لهما ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي﴾ أي: رحماني فربياني ﴿صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] لأنَّ التَّربية لا تكون إلا على أساس الرحمة.

ثم نبَّه سبحانه إلى النَّاحِيَة القلبية بعد أن ذكر صفِة القَال والحَال فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

أي: لا تُضمِروا في أنفسِكم أموراً لا يرضاها الله تعالى، واحذروا أن تُكِنوا أموراً حول أمَّهاتكم وآبائكم وغيرهم من أمور لا يرضاها الله سبحانه، ولتكن نفوسكم طاهرةً نقيَّة صافِيَة، تِجاه والدَيكم وتِجاه خَلْق الله أجمعين.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ مع آبائكم وأمهاتكم ومع النَّاس، وصالحين مع ربكم في الأعمال، فهو سبحانه العالِمُ بذلك، فما عليكم إلا بإصلاح الظَّاهر مع الباطن، لتنالوا مغفرةَ الله ورحمته.

وفي الآية أيضاً تنبيه للإنسان المؤمن أنْ لا يدَّعي الصَّلاح في نفسه ، فهو سبحانه أعلمُ بذلك ، وإنْ كان فيه صلاح فليَحْمَد الله تعالى ، وليسأله الثَّبات والزِّيادة ، وإلا فإنَّ مُراءاةَ النَّاس تُبطِل الصَّالحات .

وإذا قيل عن شيء إنَّه صالح يعني : غير فاسد ، كالتُّفاحة الكاملة في نُضجها مثلاً فهي صالحة للأكل تماماً ، وإذا اعتراها عَفن أو شيء من ذلك فيقال : إنها فاسدة لا تصلح للأكل .

وكذلك لا يُصلح الإنسان إلا سلوك طريق مُصلح الصَّالحين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الشَّرع الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن سلَكَ هذا الطريق المستقيم فهو صالح ، ويَصلح لدخول حضرات القُرب من ربِّ العالمين . أي : عنده صُلوحية وأهلية لذلك .

واعلم أنَّ سيِّد الصالحين ، ومُصلح الصَّالحين ، وسيِّد العالمين ، هو سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي شهد الله له بذلك فقال : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي : قل يا محمد للناس وأعلن لهم : إنَّ متولي أموري كلها هو الله ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ عليَّ ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] أي : على نسبةِ صلاحهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ﴾ أي : بالتَّولية الخاصة به صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم عمَّم ذلك بقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أي : فتولي الله لكل صالح على نِسبة صلاحه .

وكيف يَستحي الإنسان من ربِّه في الظَّواهر ولا يستحي منه في

الضَّمائر؟!! مع أنَّه سبحانه يعلم ويرى الظَّواهر والضمائر على حدٍّ سواء!!

فكما تستحي من فعل المعصية الظَّاهرة؛ استحِ من الله أن تُضمِر في نفسك غِشّاً أو حِقداً أو غِلّاً على أحد من خلق الله تعالى، ولا تكُن من الذين قال الله فيهم: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨] أي: والحال هو يراهم ويطَّلع عليهم، وهو معهم في جميع شُؤوناتهم. وما دام أنَّه سبحانه يعلم ما في نفوسكم، وما أضمَرتم فيها، فإنْ صدرت منكم كلمة فيها إساءة مع أَحَدِ والديكم فليرجع أحدكم إلى الله وليتُب إلى الله ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ طالما أنَّها لم تصدر عن سوء نيَّة وفساد طوِيَّة.

وقال بعضُ السَّلف في هذه الآية: إنها البَادِرة تصدر من الرَّجل حول أبيه وأمِّه عند الكِبر، لكنَّها لم تصدر عن نفس سيئة، ثم يتوب إلى الله منها، والله يغفرها له.

والأوابون جمع أوَّاب، مِنْ آب إذا رجع، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا رجع من سفر قال: «آيبُون تائِبون عابدون، لربِّنا حامدون»(١)

والأواب مبالغة من آيب، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى في القول والعمل.

وإنَّ الرجوع إلى الله تعالى على مراتب، ولذلك فإنَّ الأوابين

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره/ ١٣٤٢/ (٣/ ١٣٧٨) عن سيدنا عمر رضي الله عنه.

على مراتب، فهناك من يرجع إلى الله تعالى في أداء الفرائض فقط، ومنهم من يرجع إلى الله تعالى في أداء الفرائض والنوافل وهكذا. . .

وقيل صلاة الأوابين بعد العشاءين ـ أي: المَغْرِب والعِشاء ـ وذلك لأنَّها صفة مَن يرجع إلى الله تعالى بالصلاة حين غفل الناس عن ذلك، وانشغلوا في أسباب الدُّنيا.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من صلى بعد المغرب ست رَكَعات، لم يتكلَّم بينهُنَّ بسوء: عُدِلن بعبادة ثنتي عشرة سنة».

وفي الحديث أيضاً: «صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفِصَال»[2] أي: حين يشتد الحرُّ، وقت الضَّحوة الكُبرى للنَّهار.

ومن شأن أهل الكمال أن يصلُّوا لله تعالى أربع ركعات بعد شُروق الشَّمس وخروج وقت الكَراهة، ثم إذا ارتفعت الشمس وقت الضَّحوة الكُبرى يصلُّون ثماني ركعات. وفي الحديث: «يابنَ آدم صل لي أربع ركعات في أول النهار أكفك آخره»[3].

ثم بين سبحانه حق الأقارب فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.

---

(١) في كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل التطوع وست ركعات بعد المغرب/ ٤٣٥/ (٢/ ١٥٧).

(٢) رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الأوابين حين ترمض الفصال/ ٧٤٨/ (٢/ ٨٣٨) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٨٧) عن سيدنا نعيم بن همار الغطفاني رضي الله عنه.

ويفهم من الآية وجوب صلة الرحم والأقارب ، ومواصلة كل ذي رحم كل على حسبه ، كزيارة العمة أو الخالة وتفقد حالها ، أما بنات العمة أو الخالة فَصِلَتُها السؤال عنها ، والإحسان إليها بالمال إن كانت ذات حاجة وهكذا . . . ويكونُ ذلك على حسب ما جَرَت عليه عادة النَّاس من الصِّلَة ، في الأعياد والمناسبات ، والمُواساة عند الأحزان ، والبِّر إليهم في جميع الأحيان؛ إن كانوا بحاجة وفقر .

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ أي : ما يتطلَّبه حاله من الحُقوق ، كأنْ تَعُوْدَه إذا مرِض ، وتُعِيْنَه إذا احتاج وهكذا . . .

﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي : وإن لم يكن ذا رَحِم ، ويُسمَّى المُسافر : ابن السبيل ، لأنَّ الطَّريق الذي سلَكَه أسفر به ، وأخرج به للنَّاس لمَّا اجتمع معهم ، وكأنَّ الطَّريق وَلَدَته أي : أظهرته ، أو باعتبار أنَّه لازم السَّفر وركوب الطُّرق ، وَمَنْ لازم الشيء كأنَّه صار ابنه ، ولابن السَّبيل حق يتطلَّبه حاله من : الإيواء ، والإطعام ، والإعانة ، وهكذا . . .

ولا يكن عطاؤك وإحسانك إلى هؤلاء مَقروناً بالمِنَّة ، لأن صِلتك وعطاءك حقٌّ لهم ، واجب عليك أداؤه ، فهو إيمان وليس من باب الامتنان . فافهم .

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ أي : لا تُضع مالك الذي أنعَم الله به عليك في غير موضعه الذي أمرك الله به ، فتكون مُبذراً ، فَمَنْ حَرَمَ أرحامه ومنع المِسْكين وابن السبيل حقَّهم كان مُبذراً .

والتَّبذير : وضع المال في غير موضعه الشرعي ، إما بطريق شَهوات مُحرَّمة ، أو ارتكاب معاصٍ ، أو إعانة على ارتكابها .

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ﴾ الذين يضعون المال في غير موضعه الشَّرعي، وهذه صِفة الشَّياطين ﴿كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: كَفُوراً لِنِعَم الله عليه، من نِعَم بدنية وماليَّة وغيرها.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ والمعنى: أنَّ الأمر واجب عليك في أداء حقوق ذوي القُربى والمساكين وابن السَّبيل، ولكنْ إن قصدَك أحد منهم في حاجة؛ ولم تكن ميسوراً لذلك: فلا جُناح عليك عندئذ إذا كان إعراضك عنهم بسبب القِلَّة التي أصابتك؛ وليس تكبُّراً أو ظُلماً.

والمعنى: ﴿وَإِمَّا﴾ وإن ﴿تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: عن هؤلاء أهل الحقوق عليك ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ لا تكبُّراً وتجبُّراً، بل طَلباً من الله أن يُسهِّل لك أسباب الرِّزق حتى تعطيهم ﴿فَقُل لَّهُمْ﴾ عندئذٍ ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: في اليُسر والرَّجاء، والوعد بالخير، حتى يثبت لك الأجر، ولا تجني على نفسك بالوِزر.

وبعد أنْ أمر سبحانه بالإنفاق في وجوه الخير، نهى عن الإسراف والشُّح في الإنفاق فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وهذا في الإنفاق على نفسك وعلى عيالك.

والإسرافُ: أن تُنفق من المال فوق طاقتك، كما أنَّ البُخل الإمساك عن الإنفاق بحيث تضيِّق على نفسك وعلى عِيالك؛ مع أنَّ الله تعالى قد وسَّع عليك، وَمَنْ وقع في أحد هاتين الصفتين فقد وقع في اللَّوم والحَسرة ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ إذ تلومه نفسه، وعياله وأقاربه، وأضيَافه، ويصفونه بالبُخل والشُّح.

ومن أسرف وأنفق فوق طاقته: أصابته الحَسْرة، ويصير حسيراً

كالدَّابة المحسورة ـ أي: المُنقطعة عن السير لأنَّها أجهدت نفسها في الجَري ـ.

وأمَّا صِفة أهل الكمال فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

واعلم أنَّ البُخل صِفة ذميمة قبيحة، يجب على المؤمن أن يتحاشى عنها، وقد روى الترمذي[(١)]، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يدخل الجنَّة خَبٌّ» أي: خادع ماكِر بالنَّاس «ولا منَّان ولا بخيل».

ولمَّا خلق الله تعالى جنَّة عدن وقال لها: تكلمي، قالت: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قال لها تعالى: «وعزَّتي وجلالي لا يُجاوِرني فيك بخيل» الحديث[(٢)].

وروى الترمذي[(٣)] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «السَّخي قريب من الله، قريب من الجنَّة، قريب من النَّاس، بعيد من النَّار. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار. ولَجاهلٌ سَخِيٌّ أحبُّ إلى الله من عابِد بخيل».

وأبخل البُخل أن لا يؤدي الإنسان زكاة ماله التي فرضها الله

---

(١) في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في البخل/ ١٩٦٤/ (٦/ ١٩٢) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني، (مجمع الزوائد) (١٠/ ٣٩٧) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في السخاء/ ١٩٦٢/ (٦/ ١٩١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

عليه، وقد قَرَن ذِكر الزَّكاة مع الصَّلاة في أكثر من مائة آية في القرآن؛ ما بين أمرٍ بها، وثناء على فاعلها، وذمٍّ لتاركها، وهكذا. . .

واعلم أنَّه لا إسراف في الإنفاق في وجوه الخير، لأنَّ فعل الخير يَنبغي المُساهمة فيه قَدْر المُستطاع. ويُقال للمُوسر: جُد بمالك بحيث لا تأسف على عطاياك أو تندم على ذلك.

ومن المؤمنين من يجود بماله ونفسه طيِّبة مطمئنة، كما فعل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، ولو أنَّه جاوز الحد لَلامَه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على فعله، لكنَّه أبو بكر شيخ الصِّدِّيقين رضي الله تعالى عنه، وهو على درجة كبيرة في التَّوكل على الله تعالى، والثِّقة به سبحانه.

وأما التَّوسط في الإنفاق على النَّفس والعِيال فأمر مطلوب شرعاً، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما عال من اقتصد»[(١)] أي: توسط في معيشته، دون إسراف أو تقتير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: لمن يشاء أيضاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: لأنَّه ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فهو الأعلم بما هو أرحم وأنفع لهم، فقد يُعطي الرجل عطاء واسعاً تكريماً له، لأنه يعلم أنه سيجود وَيُعطي، وقد يقلِّل سبحانه على فلان لأنه يعلم إنْ هو بسط له قد يَمنع، وَيَضِل في شهواته، وكِلا الأمرين رحمة.

وقد يعلم الله أنَّ فلاناً سيَضِل ويفجُر فيوسِّع عليه في ماله، حتى يظهر ذلك منه، وهذا عطاءُ إهانة، وقد قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٤٤٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥_١٧] أي: فلا تقل إنَّ الله تعالى أكرمني بكثرة مالي، حتى تنظر في تصرفك في المال على مُقتضى رضوان الله تعالى، وإلا فهو إهانة واستدراج، وإمداد بالضَّلال ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وأمَّا ذلك الذي قَدَرَ الله عليه رزقه، فلا يقل: إنَّ ربي أهانن، لأنَّه سبحانه يعلم منك أموراً خفيَت عنك، ولو بَسَط لك الرزق لربما جاوزت حدك وفجرت، ومنعت وضللت ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠].

واعلم أن القِلّة في المال أو السَّعة ليست ميزاناً للكرامة أو الإهانة عند الله تعالى؛ إلا مَن تصرَّف بذلك بموجب شرع الله تعالى.

وقد قال الشَّيخ الأكبر رضي الله عنه: إنَّ تفضيل الغني الشَّاكر على الفقير الصَّابر أو العكس، إنَّما هي مسألة فُضولية، لأنَّ التَّحقيق في المسألة أنَّ الشُّكر لا ينفك عن الصَّبر، كما لا ينفك الصبر عن الشكر، وينبغي على الفقير الصابر أن يكون شاكراً لله تعالى، أَنْ ألهَمَه الصبر وعدم التَّضجُّر، وكذلك الغني الشاكر يحتاج إلى صبر في أداء ما أوجبه الله تعالى عليه؛ وإلا لَمَا كان شاكراً، وقد قَرَن بينهما سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وقالوا: إنَّ الإيمان أوامر ومناهي، فالأوامر أداء شُكر، والمناهي تحتاج إلى صبر، ولابُدَّ لكلِّ مؤمن من شُكر وصبر، وكم من نِعمة لله على الغني سِوَى نعمة المال؛

وعليه أن يشكُر الله عليها ، وهكذا كم تَعرِض على الفقير من شهوات ومُغريَات يحتاج إلى صبر عندها؛ حتى لا يقع فيها ، ويوم القِيامة يُجمع شكر هذا وصبره في ميزانه ، وشكر ذلك وصبره أيضاً ، وأيُّهما أرجح فهو أفضل عند الله تعالى.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] وكَمَا أوصى سبحانه الأبناء بالآباء ، أوصى الآباء بالأبناء ، كما قال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤] قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ﴾ [النساء: ١١].

والإملاق هو: الفقر ، إذ كانوا في الجاهلية يئدون البنات خوف الفقر والعَار على زعمهم ، فجاء قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ﴾ أي: خوف الفقر والعَيلة ، وكأنَّكم الذين ترزقون أولادكم ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾ فالله الذي خلقكم وقدَّر أرزاقكم هو الذي خلقَهم وقدَّر أرزاقهم ، ولا أحد يأكل رزق غيره.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ رُوح القُدس نَفَثَ في رُوعي» أي: ألقى في قلبي ، وهو نوع من أنواع الوحي النبوي «أنَّ نَفْساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، وتستوفي أجلها ، فاتقوا الله وأجمِلوا في الطَّلب ، ولا يحمِلَنَّ أحدكم استبطاء الرزق على أن يطلبه بمعصية الله ، فإنَّ الله تعالى لا يُنال ما عنده» أي: من الرِّزق الطيِّب «إلا بطاعته»[(١)].

وأمَّا الرزق فهو: ما انتفع به الإنسان ، من مَأكل ومَشرب

(١) عزاه في (الفتح الكبير) إلى (الحلية) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، وعزاه في (مجمع الزوائد) (٤/٧١) إلى البزار ، عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

ومَلبس ، وليس رزقه ما جمعه ، إذ قد يكون هذا لورثته أو لغيرهم ، وهو رزقهم إنْ هم انتفعوا به ، وإلا فهو رزق غيرهم وهكذا.

وفي هذا تنبيه للإنسان أن لا يسعى ويشقى في جمع مالٍ سيتركه لغيره ، كالحِمار الذي حُمِّل بالذَّهب والفضَّة ، ومشى بها ، ثم أُفرغت مِنْ على ظهره ولم ينتفع منها بشيء.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأجمِلوا في الطَّلَب» أي: فما دام رزقكم مَقسومٌ ومحتوم ، كأجلِكم المقسوم والمحتوم؛ فاتقوا الله في طلب الرزق ، وليكن طلبكم له طلباً جميلاً شرعياً ، واعلموا أنه لا يُنال ما عند الله من الرِّزق الطيِّب النافع إلا بطاعته سبحانه ، وأمَّا ما جاء بطريق الحَرَام فهو ضَرر ووَبَال على صاحبه في الدُّنيا وفي الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: نرزقهم ونرزقكم أنتم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا﴾ أي: إثماً ﴿كَبِيرًا﴾ وفي قراءة متواترة: ﴿خِطَاءً كبيراً﴾.

ولقد كانوا في الجاهلية يحرِمون البنات ميراثهم ، ويعطون المِيراث لمن يأخذ بالثَّأر ويدفع العَار ـ أي: للرجال فقط ـ فنهى الإسلام عن ذلك ، وأوصى بالأولاد بما فيهم البنات: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

ولا يجوز للإنسان أن يحرِم بعض أولاده ميراثه ، بأن يقسِم ماله في حياته على بعض أولاده ويمنع البعض. وليعلم الإنسان العاقل أنَّ القسمة التي قَسَمَها الله تعالى للورثة هي أعدل القسم وأفضلها وأصلحها ، فلا يحملنَّك الجهل والتَّكبر على العُدول عنها ، إلى

قسمةٍ استَحْسَنَتْهَا نفسك ، بأن تَقسم مالك حال حياتك على بعض أولادك وتحرم الآخرين.

أمَّا ترجيح بعض الأولاد على بعضهم بسبب مُرجِّح فلا بأس منه ، وذلك بأن يكون أحدهم أشد بِرّاً له من الآخرين ، أو أنَّه عاجز عن الكسب ، أو لفقر أو مرض وما هنالك ، على أنه لا يجوز حِرمان الآخرين حِرماناً كُليّاً في كل الأحوال ما داموا مُسلمين ، ولم يَرِد نصٌّ على أن الفِسق يَحْرِم صاحبه الميراث ، ولا يحرم المِيراث إلا الكُفر والعِياذ بالله تعالى.

ولو أنك حَرَمت بعض أولادك الميراث الشَّرعي بسبب تقصيرهم في طاعتك وبِرِّك ، ثم إنَّهم بعد مماتك تابوا وأنابوا وصلُح أمرهم ، وعُرِضت أعمالهم عليك وأنت في البرزخ ، وترى صلاحهم وتقواهم ، فتتمنى أن تعود إلى الدُّنيا وتعيد إليهم الميراث. فلا تضع نفسك في هذا الموقف.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ يشمل النَّهي عن ضربهم أو تعذيبهم بسبب قلَّة الرِّزق ، أو كثرتهم ، أو لحملهم على أن يرزقوا أنفسهم ، كإجهادهم في تعاطي أسباب الرزق أو الكسب غير المشروع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وتلك الأوامر والمَنَاهي التي يذكرها الله سبحانه في هذه السُّورة هي مُقتضى عِلْمه وحِكمته ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ فالأحكام الشَّرعية كلها قائمة على حِكَم إلَهية عالية ، لأنَّها صدرت من عليم حكيم.

والحكمة هي: الأمر الذي فيه مَصلحة الفرد والأمة ، وإذا اختلَّ تطبيقها فَسَد نظام العالم.

ولقد جاء النَّهي عن الزِّنا بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ ولم يأت الأمر بقوله: ولا تزنُوا ، فلمَّا نهى عن قُربانه فمن باب أولى عن حقيقته ، فلا تقربوا دواعي الزِّنا حتى لا تَقعوا فيه ، ومن هذه الدَّواعي النَّظر إلى الأجنبيَّة ، وشمُّ رائحتها ، والسَّماع إلى نَغْمَة صوتها ، أو الخَلوة بها ، كلُّ ذلك دواعي للوقوع في الزِّنا ، فجاء النَّهي الإلَٰهي عن القُرب من دواعي الزِّنا خَشية الوقوع فيه. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بإمراة إلا كان ثالِثهما الشَّيطان »[1].

وإذا وقع نظرُك على أجنبيَّة دون تقصُّد فلا مُؤاخذة عليك ، وأمَّا إذا أعدت الكَرَّة فقد وقعت في المُؤاخذة «لكَ الأُولى وليست لك الآخرة»[2] لأنَّ النَّظرة غير المقصودة لا يكون القلب حاضراً معها؛ فلا تترك أثراً في النَّفس ، أما النَّظرة المقصودة فهي بتحريك القلب ، ولها أثر في النَّفس قد يجرُّ إلى غيرها.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لتَغُضَّن أبصاركَم

---

(١) رواه الترمذي ، في كتاب الرضاع ، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات/ ١١٧١/ (٤/ ١٥٢) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) روى الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ٣٥٣) والترمذي في (السنن) كتاب الأدب ، باب ما جاء في نظرة الفجأة/ ٢٧٧٨/ (٨/ ١٩) وأبو داود في كتاب النكاح ، باب ما يؤمر به من غض البصر/ ٢١٤٩/ (٢/ ٦١٠) عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي رضي الله عنه: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى ، وليست لك الآخرة».

ولتَحْفَظُنَّ فُروجَكم ، أو ليَكْسِفَنَّ الله وجوهَكم»(١).

وكَسْفُ الوجه: ذهاب نُوره؛ كما يذهب نور الشمس أو القمر إذا انكسف أحدهما ، فالنَّظر إلى الأجنبيَّة يُورث ظُلمة في وجه النَّاظر ، وفي قلبه أيضاً ، فقد جاء في الحديث(٢) ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾» [المطففين: ١٤].

ولا تحمِلنَّك دعوى الصَّلاح والتَّقوى على أن تُبيح النَّظر لنفسك ، مُبرِّراً ذلك بأنَّه لا أثر لها في نفسك؛ لأنه إذا كُنت صالحاً تقيَّاً فإنَّك لا تضمن صلاحك وتقواك تلك اللحظة التي تعصي فيها أمرَ الله تعالى.

ولتعلم أنَّ صاحب العِصمَة المُطلقة صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يَرتضِ لنفسه أن يُقال عنه بأنَّه قد خَلا بأجنبيَّة ، ولم يفعل ذلك صلى الله عليه وآله وسلم ، مع أنَّه مَعصوم بعِصمة الله تعالى ، فقد روى البُخاري وأبو داود وابن ماجه وغيرهم(٣) ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٨/ ٦٣) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن الكريم ، باب ومن سورة المطففين/ ٣٣٣١/ (٩/ ٦٩).

(٣) البخاري في كتاب الاعتكاف ، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد/ ٢٠٣٥/ (٤/ ٢٧٨) ، ومسلم في كتاب السلام/ ٢١٧٥/ (٤/ ٢٢١٩) ، وأبو داود في كتاب الصوم ، باب المعتكف يدخل البيت لحاجته/ ٢٤٧٠/ (٢/ ٨٣٤) وهو في (المسند) ، وعند ابن ماجه والنسائي والدارمي.

حُيَيٍّ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنها ، أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ ، فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ ، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ ، فَقَامَ مَعَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَقْلِبُهَا ، حَتَّى إِذَّا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ الَّذِي كَانَ عِنْدَ مَسْكَنِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ورضي الله عنها ، فَمَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنْ الأَنْصَارِ ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ، ثُمَّ نَفَذَا ، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» أي: إنها زوجتي فلا تتوهما شيئاً.

قَالا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ. وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً» أي: ظنّاً سيّئاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيكون ذلك سبباً لسَلب إيمانكُما. نسأل الله العافية.

وأمَّا أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا كان يقِيل عند أمِّ سليم وهي أم أنس رضي الله عنهما ، فلم تكن أجنبية عنه ، إذ كانت مَحرمَاً له صلى الله عليه وآله وسلم من الرَّضاعة. فافهم. كما نص عليه النَّووي وغيره رضي الله عنهم.

وأمَّا الدليل على أنَّ القلب هو موضع التَّأثر بالفرح والحُزن ، وأنَّه قد يتأثَّر بشدَّة الفرح ويموت ، أو بشدَّة الحُزن فيموت، ما جاء في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٩٣] قَالَ:

«يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ ، حَتَّى يُوقَفَ عَلَى السُّورِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. فينادي به منادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَشْرَئِبُّونَ وينظرون. فيقول: هل تعرفون هذا؟ ، فيقولون: نعم ، هذا الموت ـ وكلهم قد رآه ـ ثم ينادي منادٍ: يَا أَهْلَ النَّارِ. فَيَشْرَئِبُّونَ وينظرون. فيقول: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ـ وكلهم قد رآه ـ فَيُذْبَحُ بين الجنة والنار ، فَلَوْ أَنَّ أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة ، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار»(١).

وذلك من شِدَّة فرح أهل الجنَّة بدوام النَّعيم ، وشدة تَرَح أهل النَّار بدوام العذاب. نسأل الله العافية.

ومن هنا يُقال عن القلب فُؤاداً ، لأنَّه موضع التَّأثر والانفعال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

واعلم أنَّ صوت المرأة ليس بِعَورة ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ولكن نَغْمة صوتها حَرَام سَمَاعها إلا لزوجها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: أمرٌ مُستفحش قبيح ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ يسلكه الإنسان في صَرْف شهواته.

ومن مَساوىء الزِّنا الإضرار في الأنساب والإنجاب والأولاد، إذ يحصل التَّشاكُس في الأمزِجة والأوصاف.

ومن مفاسد الزِّنا أنَّ الإنسان الذي يَزني بامرأة ثمَّ يأتي إليها غيره

---

(١) رواهُ البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾/ ٤٧٣٠/ (٨/ ٤٢٨) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها/ ٢٨٤٩/ (٥/ ٢٧١٢) والترمذي في صفة الجنة ، باب ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار/ ٢٥٦١/ (٧/ ٢٣٦).

وغيره، تراهم يتزاحمون عليها تزاحم الكِلاب على الكلبة، وكلٌّ منهم يَكيد للآخر، ويتمنَّى أن يَختصَّ بها دون غيره، مما يُورث العداوة والبغضاء فيما بينهم، بسبب وقوعهم في معصية الله تعالى، فساء الزِّنا طريقاً يسلكه الإنسان لصَرف شهوته.

واعلم أنَّ الزِّنا من المناهي الشَّرعية التي اتفقت عليها جميع الشَّرائع الإلَهية، وهي: حفظ الدين، وحفظ المال، وحفظ النَّسب، وحفظ النَّفس، وحفظ العِرض، وحفظ العقل؛ بِعَدَم تعاطي المُسكِرات والمُخدِّرات. وهي مجموعة في قول العلامة اللَّقاني رحمه الله تعالى:

وحفظُ دِين ثم نَفْسٍ مَالْ نَسب ومِثلُها عَقْلٌ وعِرضُ قد وَجَب

والله سبحانه أَغْيَرُ منك على نفسك، وأرحم منك بنفسك، فإذا كان الإنسان يرضى لنفسه أن يذهب عقله حتى يصير أضلَّ من البهائم بتعاطي المُسكرات؛ فالله تعالى لا يرضى له ذلك، ولذلك حرم المسكرات والمخدرات، لأنها تذهب بعقل الإنسان، وما قيمة الإنسان بلا عقل؟!!.

وحرم الله سبحانه الزِّنا حفظاً للأعراض، ودرءاً للمفاسد البدنية والنفسية والاجتماعية. ولم يحرِّم سبحانه المَحَارم حرماناً لك وإحراجاً، وإنما حرَّمها لمفاسدها ومضارِّها، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩] فكلُّ هذه حِكم ربانية، إذ شأن الربِّ أن يُربي عباده أحسن تربية، ومِنْ أعظم وجوه التربية هذه التَّشريعات التي ذكرها الله سبحانه، وهي بمقتضى الحكمة الربانية.

وفي تربيته سبحانه لعباده رَفْعٌ لهم من صفة البهيمية الحيوانية

إلى الإنسانية العُلوية ، حتى يصيروا أهلاً للخلود ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ولا يصح لهم ذلك إلا بالتَّقوى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر : ٥٤ـ٥٥] .

وعلى الإنسان أنْ يعمل بشرع الله تعالى وأحكامه ، بالإذعان والتَّسليم والرِّضا ، دون اعتراض وانتقاد ، لأنَّها صادرة من الرَّب الحكيم الخالق ، والذي خَلَق الخَلْق أعلم بما فيه صلاحهم ، فشرع لهم ما فيه صلاحهم في الدُّنيا والآخرة ، ونهاهم عَمَّا فيه ضرر لهم في الدُّنيا والآخرة .

وكما لا يحق للصغير أن يعترِض على أبيه في تدابير المنزل مثلاً ؛ وكما لا يجوز للمريض أن يَعترض على الطَّبيب في وصفه للدَّواء المُناسب له ، كذلك لا يليق للعبد أن يعترض على ربِّه الحكيم الذي خَلَقه وربَّاه ، وأمدَّه وشَرَع له ما فيه صلاحه .

وكما يحق للوالد أن يزجر ولده أو يعاقبه إذا اعترض عليه ، وكذلك للطبيب أن يزجر المريض إذا اعترض عليه في حكمته ، فما بالك بمن اعترض على حكمة أحكم الحاكمين رب العالمين ! ! .

وإن الإنسان يقرأ حكمة الله تعالى في نفسه ، وفي الأكوان من حوله ؛ إن هو تدبَّر وتفكر ، وإذا دخلت منزلاً وسُررت لترتيبه ونظافته وانتظام غرفه ، عرفت حكمة صاحب المنزل وأرجحية عقله من خلال حسن تدبيره لشؤون منزله ، والعكس كذلك قد تعرف رداءة الرجل من سوء تصرفه وتدبيره لشؤون منزله .

فمن نظر في صنع الله له ، عرف سعة حكمته سبحانه ، وكذلك من نظر في العوالم حوله بما فيها من سماء وأرض ، ونبات وحيوان ، لقرأ حكمة الله فيها ، ولأيقن أنَّ الصانع لها هو الحكيم

الخبير سبحانه وتعالى ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١] وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] فهو سبحانه الحكيم في خلقه، وهو الحكيم في أمره ـ أي: شَرعه ـ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس
في التواضع

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

والمعنى: ولا تَمْشِ في الأرض بَطِراً أشِراً، لأن المَرَح هو البَطَر والأَشَر، بمعنى التَّرَفُّع على الغير، فلا تمشِ في الأرض مُتَعَاظمَاً في نفسك، مُتَرَفِّعَاً على غيرك، تَبْطَر وتَمْرَح.

وإنَّ هذا الذي يمشي على وجه الأرض مُتَعَاظِمَاً مُتَرَفِّعَاً؛ ما فعل ذلك إلا لأنه رأى نفسه ثقيلاً كبيراً، ضَخْمَاً عظيماً.

فيُقال له: إنك مهما كنت ثقيلاً كبيراً؛ فلا قوة عندك تستطيع بها أن تَخْرِقَ الأرض بقدميك أثناء مِشْيَتِك المُتَعَاظمة، وهناك شيء أثقل منك يخْرِق الأرض وهو الحديد؛ فهو أحق بالتَّرَفُّع والتَّعَاظُم منك!! لكنَّ علو الرُّتبة ورِفعة المَقام ليست في ذلك.

ثم إن هذا المُتكَبِّر المُتَرَفِّع الذي يرى نفسه فوق مُسْتوى الناس ويَتَعالى عليهم، يُقال له: إنك مهما تَعاليت وتَشَامَخْت فلن تبلُغ الجبال في الطُّول، وللجبال الحق في أن تَتَعالى عليك إذا كان الأمر في الطول والتعالي!!

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي على العاقل أن يكون في مِشْيته كما وصف سبحانه عباده العقلاء في آداب مشيتهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار، دونما تكبر وتعاظم، بل عليهم سِمَة السكينة والأدب والحشمة.

وفي الآية السابقة تنبيه على أن من جملة عبادة الرحمن أن يكون العبد متواضعاً في مِشيته، وأنَّ التواضع سِمَةُ عباد الرحمن؛ مهما أوتوا من المراتب والمقامات.

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: بجهالة وسفاهة، لم يقابلوهم بالجهل والسفاهة بل ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: قالوا لهم قولاً فيه السلام والتحاشي عن جهالتهم وحماقتهم.

أو قالوا لهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: تركوهم وابتعدوا عنهم، إعراضاً عن جهالتهم عليهم.

واعلم أن هذه الخطابات بما تضمنته من أوامر ومناهي وآداب، إنما هي موجهة لعباد الله المؤمنين، وهي مِنَ الحكمة القرآنية الربانية، التي أوحاها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وافتتحها بقوله: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ الآيات [الإسراء: ٢٢-٢٣].

ولقد ابتدأها الله سبحانه بالأمر بتوحيده وعبادته، وإخلاص

العبادة له ، إلى أن قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ واختتم هذا الأمر بتوحيده سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٧ ـ ٣٩].

ومن كان في مشيته متكبراً مترفعاً متعاظماً ، وكأنه سيخرق الأرض في ثقله وتجبره فيقال له : إنك لن تخرق الأرض ، بل قد يخرق الله بك الأرض وَيَخْسفها بك .

وقد قال في بيان ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[1] ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «إن رجلا ممن كان قبلكم يتبختر في حلة قد أعجبته نفسه ـ وفي رواية : «يمشي في بردين أخضرين» أي : معجباً بفخامة لباسه وزينته ـ فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» .

وقيل : إنَّ هذا قارون ، وقيل غيره .

ويقال لهذا الذي يترفع ويتعالى ، ويتشامخ بنفسه على الناس ، وكأنه يريد أن يعلوَ الجبال في طولها ، يقال له : عليك بالتواضع ، فمن تواضع لله رفع الله مقامه فوق الجبال ، بل فوق السماوات كلها إلى سدرة المنتهى .

ألا ترى إلى الحَبَّة أو النواة أو العجمة؛ ما صارت شجرة لها

---

(١) رواه البخاري في كتاب اللباس ، باب من جَرَّ ثوبه من الخيلاء/ ٥٧٨٩/ (١٠/ ٢٥٨) ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه/ ٢٠٨٨/ (٥/ ٢١٥٤).

ظهورها وارتفاعها إلا لما دفنت في باطن الأرض ، وَمَنْ طَمر نفسه في أرض الخمول أظهره الله . أي : رفع منزلته وأعلى مقامه .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره[1] ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ثلاثة أقسم عليهن ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال عبد من صدقة» أي : ما نقص حساً ولا معنى ، بل هو في ازدياد وبركة من الله تعالى «ولا ظُلم عَبْدٌ مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاً ، ولا فتح عَبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر» وفي رواية[2] : «وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله» أي : رفعه درجات ومقامات ، وجعل لَه بين الناس حُسن سيرة وثناء .

ومن التواضع لله تعالى أن تتواضع لجميع عباد الله تعالى ، من أجل الله ؛ لا من أجل مال أو جاه أو أمر دنيوي ، وكلَّما زاد إيمان العبد وصلاحه : وجب التواضع له أكثر وأكثر .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : إنّما الدنيا لأربعة نفر» أي : أَنَّ حال الإنسان في الدنيا ما بين هؤلاء الأربع :

١ ـ «عبد رزقه الله مالاً وعلماً» أي : بالحلال والحرام ، وما يلزمه من أمور الدين الضرورية له ، وليس المراد علم العلماء

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر/ ٢٣٢٦/ (٧/ ٨١) و(مسند) الإمام أحمد (٤/ ٢٣١) عن سيدنا أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه .

(٢) في (صحيح) مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب العفو والتواضع / ٢٥٨٨/ (٥/ ٢٠٢٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

«فهو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، وَيَعلم أَنَّ لله فيه حقاً. فهذا بأفضل المنازل».

وقد جعل الله تعالى في أموال الأغنياء حقاً للفقراء ، بحيث لو مَنعوهم وحرموهم ذلك الحق في الدنيا لطالبوهم به يوم القيامة ، وَمَنْ أعطى الحق الذي عليه لصاحبه فما له مِنْ مِنَّة أو فضل عليه؛ بل هو حق واجب عليه أَدَّاه إلى مستحقه ، ولذلك سماه الله تعالى حقاً في قوله سبحانه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦] وقال سبحانه: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨] فهو حقٌّ لذي القُربى والفقير وابن السبيل، وليس هذا الحق مَحْصوراً بالزكاة فقط ، ولكن هناك حقوق أخرى في المال تَعرض على حسب الحاجة والضرورة.

٢ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعبد رزقه الله عِلْماً» أي: في أمور دينه «ولم يرزقه مالاً» أي: واسعاً «فهو صادق النية يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت بعمل فلان» أي: في أبواب الخير «فهو بِنِيَّتِه فَأَجْرُهما سواء».

وإنَّ دليل النية الصادقة التي يُؤجر عليها الإنسان؛ ولو لم يعمل ما نواه: هو أَنَّه متى تمكن من العمل وصار عنده القدرة عليه لفعله فوراً ، دون تمهل أو تسويف.

وإنَّ هذا الحديث لم يَدَعْ مُؤمناً مُفلساً ، فلو لم يستطع فعل الخير فعليه بالنية الصادقة على فعله؛ لو مكَّنه الله منه ، ويسَّر له أسباب فعله ، وليَحذر من هذا الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ

ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ـ٧٧].

٣ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً» أي: ولم يَسْعَ في طلبه لمعرفة أمور دينه، والحلال من الحرام «فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يَصِل فيه رَحِمَه، ولا يعلم لله فيه حقاً. فهذا بأخبث المنازل» لأن هذا لَمَّا رضي من نفسه أن يمنع حقوق الله في ماله؛ كان سبباً في إيقاع الفقراء الذين حرمهم ومنعهم حقوقهم في المهالك والشدائد، فهو الذي تَسبب في ذلك، وجزاؤه من جِنس عمله، فكان في أخبث المنازل وأشقاها، وأشدها بُؤساً؛ وهي في جهنم ـ نسأل الله العافية ـ فلابد أن يقاسيَ ويعاني ما قاساه وعاناه هؤلاء الفقراء.

وليعلم هذا الغني البخيل ـ الذي يَمنع حقَّ الفقراء الذي أوجبه الله عليه في ماله ـ أنَّ وجوده بهذه الصفة ضررٌ على العباد والبلاد، لأنَّه لما حَرَم الفقراء حقوقهم تسبب في إيقاعهم في الشدة والكرب، والمرض والبلاء، فهو ظالم لنفسه ولغيره.

وَمَثَلُ هؤلاء: كمثل ماء عين جارية، أقدم جماعة من الظَّلمة على سدِّها، فكانوا سبباً في ضرر الأمة، وفساد المجتمع.

وكما لا يجوز للإنسان أن يتعدَّى على غيره بسلب ماله، أو هَضْم حقه، فلا يجوز أيضاً للغني أَنْ يَسلب الفقير الذي جعل الله

له في مال الغني حقاً «فإنَّ لصاحب الحق مَقَالاً»[1] أي: إذا هضم حقه، ولذلك يأتي الفقراء يوم القيامة ويشكون إلى الله تعالى الأغنياء بأنهم منعوهم وحرموهم حقوقهم.

٤ ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ـ أي: الفاسق الذي يخبط في ماله ـ فهو بنيته. فوِزْرُهما سواء».

وعلى هذا فمن تواضع لله رفعه الله تعالى، وَمَنْ ترفَّع على عباد الله وضعه الله تعالى.

وكيف يَصح عقلاً أن يتكبر الإنسان على عباد الله؟ ويتشامخ عليهم؟ بسبب نعمة أعطاه الله إياها؟ كالمال، أو الجَاه، أو العلم، أو التقوى؟ وليعلم هذا أن المِنَّة لله عليه، والفضل له سبحانه، وعليه أن يشكر الله على ذلك.

وَمَنْ تكبَّر على عباد الله تعالى، وترفَّع عليهم؟ برؤية نفسه أنه أصلح وأتقى منهم يقال له: إنَّ العبادة والعبودية لله تعالى تقتضي الذل والانكسار، والتواضع لخلق الله، فما بالك تتعاظم وتتشامخ، وكأنك أمِنْت على نفسك من سوء العاقبة، أو الزَّيغ والضَّلال؟!! وقد يحْسُن حال فلان الفاسق، وتحسن توبته، ويرتفع مقامه، وَيُهْوى بِك إلى أسفل السافلين!! فاتق الله تعالى، واعلم أن العِبْرَة للعواقب، وأن العاقبة للمتقين.

---

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون/ ٢٣٠٦/ (٤/ ٤٨٣) ومسلم في كتاب المساقاة، باب من استلف شيئاً فقضى خيراً منه/ ١٦٠١/ (٣/ ١٦٥٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي[1] ، عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ عَيَّـرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنَّ الله تعالى أَوحى إليَّ أن تواضعوا»[2] ـ أي: لبعضكم بعضاً ـ .

وفي الحديث[3]: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثْقَال ذَرَّةٍ من كِبْر» أي: أَنَّ مثقال ذرة من كبر في قلب الإنسان تمنعه من دخول الجنة؛ ولو كان عابداً ساجداً ذاكراً . . . فلابد أن يتطهَّر من هذا المرض حتى يدخل الجنة، ولو كان هناك مانعٌ عن دخول الجنة غير ذرة الكبر لذكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فافهم.

فقال رجل: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إنّ الرجل يُحِبُّ أَنْ يَكُون ثَوْبُهُ حَسناً، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ـ أي: أذلك من الكِبر ـ ؟.

قَالَ: «إِنَّ اللهَ تعالى جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» أي: احتقار الناس.

---

(١) في كتاب صفة القيامة، باب من عير أخاه. . . /٢٥٠٧/ (٧/ ١٩٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار/ ٢٨٦٥/ (٥/ ٢٧٢٢) عن سيدنا عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٣) الذي رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه/ ٩١/ (١/ ٢٣٩) والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر/ ٢٠٠٠/ (٦/ ٢١١) وينظر سنن أبي داود كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر / ٤٠٩٢/ (٤/ ٣٥٢) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فمن كان يلبس اللباس الحَسَنَ دون تكبُّر على الناس ، أو ترفُّع عليهم فهذا محبوب إلى الله تعالى ، فالله تعالى جميل يحب الجمال ـ أي : يحب أن تأخذ بأسباب التجمل ، وأن تظهر نعمة الله عليك ـ . أما الافتخار باللباس والترفُّع به على الغير ؛ فهو بَطَر وتكبُّر عندئذ .

وانظر كيف خاف الصحابة أن يكون عند أحدهم ذرة كبر وهو لا يشعر ، فراح أحدهم يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك ! ! .

واعلم أنّ الجنة هي مجمع حضرات الأسماء الإلّهية كلها ، فلا يَدخلها إلا من كان طاهراً طيباً ، ولولا أن الله يتجلَّى على أهل الجنة بالفرح والسرور لما تنعَّموا في الجنة ، ولمَا سُروا وفرحوا بها ، كما لو دخلت بستاناً وقد أصابك من الغَمِّ والهَمِّ ما أصابك ، فلا تَجد السرور بمجرد دخولك البستان ، وقد تجلس في دار مهجورة متواضعة ، لكنك مسرور مُطْمَئِن البَال ؛ لأنه لا هَمَّ ولا غَمَّ عندك . فليست الأمور بمظاهرها . فافهم .

وإذا كانت ذرة كبر في القلب تمنع دخول الجنة ، التي هي مَجْمَع الحضرات الإلّهية ، فَمِن باب أولى أن لا يدخل ذلك في الدنيا ، وأَنَّ الكبر يمنعه من الترقي في المقامات والمراتب ، فما عليك إلا بالتواضع ، حتى تنالك تجليات الحق عليك في الدنيا والآخرة .

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] أي : لأنهم إلى ربهم راجعون ؛ فهي جملة تعليلية .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: أهؤلاء الذينَ يَـزْنُـونَ ويسرقون؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يا بنت الصِّدِّيق، ولكنَّهم الذينَ يصومونَ ويتصدقون؛ ويخافون ألا يُتَقَبَّل منهم»[1] أي: لخوفهم على أنفسهم من الرياء وعدم الإخلاص الكامل لله تعالى، فهم يرجون من الله القبول، مع خوفهم من عدم الإخلاص.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: قلوبهم على وَجَلٍ وخوف من الله تعالى حينما يُوقفهم الله يوم القيامة فيقول لهم: أنتم صليتم وصمتم وعملتم؟

فيقولون على وَجَل: الفضل منك يا رب، والمِنَّة لك.

فهم في مقام الأدب مع الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة المؤمنين / ٣١٧٤/ (٨/٣١٨) وابن ماجه في كتاب الزهد، باب التوقي على العمل / ٤١٩٨/ (٢/١٤٠٤).

درس حول تفسير
الآيات من سورة الإسراء

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ .

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول هذه السورة ـ سورة الإسراء ـ فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتخصيصه له صلى الله عليه وآله وسلم بمقام الإسراء والمعراج ، ثم بَيَّنَ فضل هذا القرآن وعظمته ، ثم ذكر سبحانه وتعالى الوجوه العشرة من الحكمة الربانية التي شرعها الله تعالى لعباده ، ثم ذكر سبحانه أنه بَيَّنَ في القرآن البيانات الواضحة ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ [الإسراء : ٤١] أي : أنواع الحجج والبراهين ، ثُم بَيَّنَ بعد أَنْ ذكر براهين القرآن وحججه أَنَّ هناك مَنْ آمن ، وهناك مَن كَفر مُعانِداً مُكابِراً ، فقال سُبحانه في المُعاندين للقرآن ـ بعد أن وَضَّح لهم الدَّليل وأقام عليهم الحُجَّة ـ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] أي : إذا قرأتَ القرآن

يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على النَّاس ، هناك مَن آمن به ، وهناك مَن أعرض وعاند بعد أن عرف الحقَّ ، فمَثَله كَمَثَل من أغمَض عينيه وأنكر طُلوع الشَّمس وهي ظَاهِرة وقت الضَّحوة . وهذا شأن الجَاحِد الذي يعرف الحقَّ ثم يُنكره . فهؤلاءِ الذينَ لا يُؤمنونَ بالآخرةِ عِناداً منهم وكِبْراً ، بعدما بَانَ لهم الدَّليل ، وأُقيمت عليهم الحُجَّة على حقيَّة قضايا الإيمان والآخرة ، فلمَّا عاندوا وكفروا ضَرَبَ الله على قلوبهم حِجاباً مَستُوراً ـ أي : ساتِراً سَتَر قلوبَهم فحجبها عن الإيمان ، فهم لا يُؤمنون ـ وهذا من باب العُقوبة لهم ، لأنَّهم سَتَروا الحقَّ وجحدوه بعدما عرفوه وظهر لهم .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام : ١١٠] أي : لأنَّهم لم يُؤمنوا به أول مرة ، وقد ظهر لهم النُّور الإيماني ، وأُقيمت عليهم الحُجَّة .

والجَاحِد : هو الذي أنكَرَ الحقَّ بعدما ظَهَرَ له ، كَمَن عَارَض طُلوع الشَّمس وقت النَّهار ، وادَّعى أنَّ الوَقت ليل ، فشأنُ هذا : الإعراض عنه ، وعدمُ جِدَاله ، لأنَّه جعل الجُحود حاجِباً بينَه وبين الاعتراف بالحقِّ ، كما قال الله تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي : أنكروا الاعترافَ بالحقِّ ، والحالُ أنَّ الحقَّ دَخَل إلى قلوبِهم؛ ما هذا إلا بسبب كِبْرهم وعُتُوِّهم كما قال سبحانه : ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] فيضرب الله تعالى عندئذٍ على قلوبِهم فيُزيغُها : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥] أي : لمَّا مَالوا وانحرفُوا عن الاعتراف بالحقِّ ـ بعد أن بَانَ لهم ـ أَمَالَ الله قلوبَهم ، فلم تَعُد تهديهم إلى الحقِّ .

وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا

يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾ أي: لا يُؤمنون بها عِناداً وجُحوداً بعدما ظَهَر لهم الحقُّ، فكان عِقاب الله لهم عندئذٍ أن ضَرَب على قلوبِهم فحجبها عن الإيمان، وهذا الحِجاب ساتِر لهم عن رؤية أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو مُعجزاته صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] أي: بسبب وجود الحِجاب السَّاتِر لهم عن رؤية أنواره وآياته ومعجزاته صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك عِقاباً لهم، لأنَّهم عاندوا وجحدوا وأصروا على جحودهم، فضرب على قلوبهم.

وقد ذَكر ذلك سبحانه في الكفار المُعرضين المُعاندين، وحذَّر سبحانه المُؤمنين إنْ هم أعرضوا عن أوامر الله ولم يستجيبوا إليها؛ فلقد هدَّدهم الله سبحانه بأنَّه قد يَحُول بين المُؤمن وبين قلبه ـ أي: يجعل بينه وبين قلبه حائِلاً، فلا يميل قلبه بعدها إلى العمل الصَّالح ـ نسأل الله العافية.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فحياة الإنسان الطيِّبة الأبدية لا تُنال إلا بالاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والعمل بما أمر به صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا قوله تعالى: ﴿ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ وإنْ هم أعرضوا عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخالفوا العمل بأمره، فليحذروا، وليترقبوا أن يحول الله بين أحدهم وبين قلبه، أي: يجعل حائلاً بينه وبين قلبه، فلو أراد يوماً أن يرجع عما هو فيه من

المعاصي؛ ويطيع أمره صلى الله عليه وآله وسلم فلا يطاوعه قلبه عندئذٍ ، بسبب قسوته وظلمته.

فَمَنْ أعرض عن أمر الله أعرض الله عنه ، وَمَنْ أعرض الله عنه حال بينه وبين قلبه ، فقد يُريد يوماً التَّوبة عما هو فيه لكن قلبه لا يطاوعه في ذلك وينفر ، وهذا من باب العِقاب الإلَهي له ، كما قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٢٥].

وكما عاقب الله تعالى الكفار المُعرضين؛ بأن ضرب على قلوبهم ، وحجبهم عن الإيمان؛ بسبب إعراضهم مرات ومرات ، وإصرارهم على الجحود؛ فقد يعاقب المؤمن المصر على الذنوب والمعاصي ، بأن يحول بينه وبين قلبه ، فلا يُطاوعه قلبه إن هو أراد التوبة والرجوع عن الذنوب ، فليحذر المؤمن من الإصرار على الذنوب . ونسأل الله العافية.

وقوله تعالى : ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي : ذا سِتر ، وهي صيغة النسبة ، كما يقال : لَابِن ، وتامر ـ أي : ذا لَبن وذا تمر ـ وليس من باب الوصف ، فإذا قلت : فلان لبَّان أو لابِن ، فليس هذا من باب الصِّفة ، لأن الصفة ما تقوم بصاحبها ، أما اللَّبان فليس اللَّبن قائماً في جسمه ، وهذا الفرق بين الوصف والنسبة ، وأما قولك فلان عاقل حَيِيّ فالعقل قائم فيه ، والحياء صفة قائمة فيه ، فهذه أوصاف قائمة في الموصوف . والنسبة تأتي على الفعل وعلى المفعول.

وقال بعض السَّلف : ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ مستوراً : وصف للحِجاب ، وهو اسم مفعول مِنْ سَتَر ، فهذا الحجاب مانع

للمشركين عن أَنْ يُؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو يروه.

وإنَّ سبب نزول هذه الآية، عندما نزل قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

فقد أخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مَرْدُوْيَه وأبو نُعيم والبيهقي معاً في (الدلائل)، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لمَّا نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العَوراء أم جميل ـ وكانت زوجة أبي لهب، شِرِّيرة بذيئة اللِّسان كزوجها ـ ولها وَلْوَلَة وفي يدها فِهر ـ حجر ـ، وهي تقول: مُذمماً أبينَا. ودينَه قلينَا. وأمرَه عصينَا. ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه، وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنَّها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه، فلم تر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا أبا بكر بلغني أنَّ صاحبك هَجَاني؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا ورب هذا البيت، ما هجاك.

فانصرفت وهي تقول: قد علِمَت قريش أني بنت سيدها.

وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في (الدلائل) مِنْ وجه آخر، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنَّ أم جميل دخلت على أبي بكر رضي الله عنه، وعنده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا ابن أبي قُحَافة، ما شأن صاحبك يُنشد فِيَّ الشِّعر؟

فقال: والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشِّعر.

فقالت: أليس قد قال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فما يُدريه ما جِيدي؟.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قل لها: هل ترين عندي أحداً؟ فإنها لَن تراني، جُعل بيني وبينها حجاب».

فقال لها أبو بكر رضي الله عنه، فقالت: أتهزأ بي؟ والله ما أرى عندك أحداً.

وأخرج ابن مَرْدُويه، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند المقام، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ظل الكعبة بين يدي، إذ جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية، زوجة أبي لهب، ومعها فِهران، فقالت: أين الذي هَجَاني وهَجَا زوجي؟ والله لئن رأيتُه لأرضُّنَّ أُنثيبه بهذين الفِهرَيْن.

وذلك عند نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فقلت لها: يا أم جميل، ما هجاك ولا هجا زوجك.

قالت: والله ما أنت بكذاب، وإنَّ الناس ليقولون ذلك، ثم ولَّت ذاهبة.

فقلت: يا رسول الله، إنها لم ترك؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حَالَ بيني وبينها جبريل».

وأخرج ابن أبي شيبة، والدَّارقطني في (الأفراد)، وأبو نعيم في (الدلائل) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأة أبي لهب فقال أبو بكر رضي الله

عنه: يا رسول الله لو تَنحيتَ عنها، فإنها امرأة بذيَّة، فقال: «إنَّه سيُحال بيني وبينها فلا تراني».

فقالت: يا أبابكر، هجانا صاحبك؟

قال: والله ما يَنطق بالشعر ولا يقوله.

فقالت: إنك لمُصدق، فاندفعت راجعة.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما رأتك؟!.

قال: «كان بيني وبينها مَلَك سترني بجناحه حتى ذهبت».

فالحجاب الذي حَجَب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أن يراه الأعداء هو حجاب مستور لا يُرى أيضاً، فهو يَحجب النظر ولايُرى بالعين.

وكثيراً ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعتصِم بالقرآن، ويحتجب بالقرآن عن أعدائه، كما فَعل ليلة هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وخرج بين صفوف الأعداء، وهو يقرأ أوائل سورة يٓس، ولم يَرَه أحد منهم، وقد رَمَى وجوههم بكف من الحصى، لم تترك وجه أحد منهم إلا أصابته، وما عادوا يُبصرون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يخرج من بينهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: أغطية، جمع كِنان وهو الغطاء، فهو سبحانه أَلقى الأغطية على قلوب الكفار وحجبها عن الإيمان، لأنهم أعرضوا وعاندوا، وهذا من باب الانتقام كما تقدم. فلا يَصِلُ معنى القرآن إلى قلوبهم، بسبب

إعراضهم عنه لمَّا قُرِئ عليهم وبان لهم حقيقته ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي: وجعل الله في آذانهم ثِقلاً، بحيث ينفرون من سماع القرآن الكريم.

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ أي: إذا ذكرتَ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ربك بالتوحيد نفروا، لأنهم يريدون أن تذكرَ آلهتهم.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: نحن أعلم بما هم مُتلبسون به، من حال الهُزء والسخرية لمَّا يستمعون للقرآن وأنت تتلوه عليهم ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ أي: يتناجى بعضهم مع بعض بكلام خفي، فيه ذَم واستهزاء بالقرآن، نحو قولهم: هذا سِحر، أو شعر، أو كَهَانة، أو أساطير الأولين ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ وهذا القول من شِدة ظلمهم وعُتوهم، ولو أنصفوا لاعترفوا وآمنوا.

وقوله تعالى: ﴿مَّسْحُورًا﴾ أي: سُحِر فَسُلِبَ عقله، كما قالوا عنه بأنه مجنون، وهذا كلام مردود عليهم، إذ كيف يصح في العقل أن يجتمع الجنون في رجل عُرف بينهم بالصدق والأمانة، وجاء بهذا القرآن الذي أعجزهم في بلاغته وعلومه وحكمته وإخباراته؟! أو أنهم أرادوا من قولهم: ﴿مَّسْحُورًا﴾ أي: ذا سحر، أي: ساحر يسحر الناس بكلامه، وهذا قول باطل، إذ ليس من صفات الساحر العفة والكرامة، والصدق والأمانة، بل تغلب عليه الصفات الخبيثة الشيطانية، وقد اعترفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدقه وأمانته، وحسن التحاكم إليه.

واعلم أَنَّ السحر الذي أصابه صلى الله عليه وآله وسلم من بعض اليهود لم يؤثر على عقله وفكره صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يمنعه عن تبليغ القرآن والأحاديث ، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: يحفظك منهم ، ويمنعك منهم ، فلا سبيل لهم عليك؛ لِمَنْعِك أو حبسك عن أداء وتبليغ رسالة الله تعالي ، لا بقتل ولا أذى ولا سحر ، وإلاّ لو كان السحر قد أثَّر على عقله وقلبه صلى الله عليه وآله وسلم لمنعه ذلك عن تبليغ رسالة الله تعالى ، والحال أنه لم يحصل شيء من هذا ، بل بقي الوحي مستمراً في نزوله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وغاية الأمر أَنَّ السحر أثر على بدنه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم كَتَوَعّك ومرض ، والحكمة في ذلك حتى يوقن أعداؤه أنه صلى الله عليه وآله وسلم ليس بساحر ، ولو كان صلى الله عليه وآله وسلم ساحراً كما يقولون لكان أسحر أهل الأرض ، لأنه أتى بما يُعجز أهل الأرض كلهم ، وكيف يُؤَثِّر السحر بمثل هذا؟! لأن الساحر لا يُسْحَرُ ويشعر بِسحر غيره له ، فكيف بأسحر أهل الأرض؟!.

كل هذا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿مَّسۡحُورًا﴾ أي: ذا سَحْر ـ أي: ذا رئة ـ ومرادهم بشر مثلهم يأكل ويشرب فكيف يتبعونه؟؟

وقد ذكر سبحانه شُبهة الكفار هذه في آيات أخرى ، وَرَدَّ عليهم ، أنه لو جعل الرسول إليهم ملكاً لما رأوه ، ولما استفادوا منه شيئا ، فما الحكمة في إرساله إليهم إذاً؟ .

فلابد إذاً أن يتمثل هذا الملك بصورة رجل حتى يأخذوا عنه، ولو تمثل لهم بصورة رجل لقالوا عنه: إنه بشر، وكيف نتبعه؟؟ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] أي: يقعون في الالتباس مرة أخرى. ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول إلى البشر من جنسهم، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ولكن الله تعالى ميَّزه عليهم بالميزات والخصائص العالية، حتى يكون أهلاً لتلقي الوحي الإلَهي عليه، والعلوم الإلَهية العالية وهكذا، فهو صلى الله عليه وآله وسلم بشر لكن فوق مستوى البشر، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦] فمقام الوحي إليه صلى الله عليه وآله وسلم رفعه عن مستوى البشرية المألوفة، وخصَّه الله تعالى بالمكارم والفضائل العالية، والكمالات التي لم يعطها أحداً غيره، وذلك لأهليته وقابليته واستعداده صلى الله عليه وآله وسلم لذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] أي: أنه تعالى يُعلن في آزال الآزال أنه لا يَليق لختم النبوة والرسالة إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لذلك فهو تعالى يُعده ويُمده منذ آزال الآزال، ولا يزال إلى ما شاء الله تعالى.

واعلم أن سادات البشر ـ وهم الرسل والأنبياء ـ أفضل من سادات الملائكة، وخواص البشر أفضل من خواص الملائكة، وعوام البشر الصالحين أفضل من عوام الملائكة.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: الأوصاف،

فمرة يقولون: عنك ساحر، ومرة كاهن، ومرة مجنون، ومرة شاعر، وهذا كلام متناقض ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩] أي: إلى الحق والهداية، لأنَّ العِناد والكبر يحول بينهم وبين الاعتراف بالحق. ونسأل الله العافية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

درس حول تفسير أوائل آيات سورة مريم

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ .

افتتح سبحانه وتعالى هذه السُّورة بخمسة حروف ، كلٌّ حرف منها يدل على اسم أو أكثر من أسماء الله تعالى ، وقد ظهرت آثار هذه الأسماء الإلٰهية في هذه السورة .

فحرف الكاف يدل على اسم الله : **الكافي** ، والهاء تدل على اسم الله : **الهادي** ، والياء على اسم الله : **الرَّحيم**[1] ، والعين على اسم الله : **العليم** ، والصَّاد على اسم الله : **الصَّمَد**. أي : المَقصود في الحاجات كلِّها .

وقد سأل سيدنا زكريا على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، سأل الله تعالى حاجتَه ، وهي الولد ، على كِبَر سنِّه وعُقْر زوجه .

وقد ورد عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وغيره من الصحابة رضي الله عنهم : (اللهمَّ يا كهيعص اغفر لي ، يا كهيعص ارحَمني)

---

(١) لأنّ هذا الاسم ظهر أثره وهو الرحمة الخاصة بزكريا على نبينا وعليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ .

مما يؤكد على دلالة هذه الحروف على أسماء إلّهية ، يَفهمها من أفهمه الله تعالى ذلك.

وقد أطلَعَ الله تعالى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على معاني تلك الحروف وأسرارها ومَرَامِيها ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنْ بَـيَّتكم العدو فقولوا: حم لا يُنصرون»(١).

وقد فهِم كبار الصحابة رضي الله عنهم مَرامِيَ تلك الحروف ، كُلٌّ على حَسَب مقامه وتفهيم الله له ، ولو كانوا لا يعرفون مراميها لسألوا عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنَّه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يعلمهم معاني الكِتاب ، لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومن ذلك ما جاء عن سيدنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾: أنا الله المَلِك أقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [أول سورة البقرة].

وقد جاءت هذه السُّورة مُفتَتَحة بهذه الحروف دون غيرها، ذلك لأن آثار الأسماء الإلّهية التي دلَّت عليها هذه الحروف قد ظهرت في الوقائِع التي أخبرت عنها هذه السورة. ومن ذلك قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، وسؤاله الولد ، وقد كَفَاه الله سبحانه وتعالى ما أهمه في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أي: خاف أن يَضعُف الدِّين مِنْ بعده؛ باعتبار أنَّه ليس هناك مَنْ يخلُفه في أمر

(١) رواه الترمذي في كتاب الجهاد ، باب ما جاء في الشِّعار/ ١٦٨٢/ (٦/ ١٢).

النُّبوة ، وَيُمسك زِمام الشَّريعة ، ويهدي الناس إلى ربِّ العالمين ، فخاف من ذلك ، وطلب الولد.

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وإنَّ مِن جُملة إعجاز القرآن الكريم ، أنَّ هذه الحروف تُقرأ بأسمائها لا بحقائقها ، إذ إنَّ لكل حرف اسماً وحقيقةً ، وحقيقة الحرف هو لفظه بهِجَائه ، كَ ، هـ ، ي ، وهكذا.

ولم تكن أسماء الحروف معروفة إلا عند فُصحاء العرب وبُلغائهم ، ولم يكن ذلك مشهوراً بينهم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقرأ عليهم هذا القرآنَ بما فيه من تلك الحروف ، وَهُم يعرفون أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ بينهم أُمِّيّاً ، لم يقرأ ولم يَتعلَّم من أحد. نَعم كلُّ ذلك من دلائل صدق نبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنَّ هذا القرآن هو كلام الله تعالى ، الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن ناحية أخرى: فإنَّ في افتتاحه سبحانه لبعض السور بحروف مُعيَّنة إعجازاً وتحدياً للإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة مثله ، فإنَّ هذا القرآن مُؤلَّف من هذه الحروف؛ وأنتم تعرفونها ، فانسِجوا منها مثله ، أو ائتوا بمثله ، لكنَّه سبحانه أثبت عَجْزهم إلى يوم الدِّين عن الإتيانِ بمثله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] أي: فاعلموا وآمنوا أنَّ هذا القرآن هو كلام الله تعالى ، الذي أنزله على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمره بتبليغه.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ «ذِكْرُ» خبرٌ لمُبتدأ

محذوف ، وتقدير الكلام: هذا ذِكر رحمة ربِّك عبده زكريا. أي: فهذا الكلام وهذه السورة فيها ذِكر رحمة الله تعالى لعبده زكريا عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: الرحمة الرَّبانيَّة ، وهذه الإضافة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها من المعاني والأسرار ما لا يُدركه أحد.

فقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ أي: ربُّك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنت أعلَم النَّاس بربك ، وأنت تعرف مِنْ أسرار رُبوبيته ما لا يعرفه غيرك. وهاهو ربُّك جلَّ وعلا يَذْكُر لك ، وأنت تذكُر للأُمة ، كيف أنَّه سبحانه رحِم عبْدَه زكريا عليه السلام.

ولقد ذكر لنا سبحانه شيئاً عن دعاء الأنبياء والمُرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وطَرفاً من سِيرتهم: لكي نتأسَّىٰ بهم ، ونسير على هَديهم ، وإنَّ في ذلك اتِّباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي طُويت في مقامه المحمَّدي صلى الله عليه وآله وسلم جميع مقامات ومراتب الرُّسل قبله ، وجَمَع الله له هدي جميع الرُّسل قبله صلى الله عليه وآله وسلم ، وزاد عليهم بالمقام المحمدي الخاص ، والهدي المحمدي الجامع ، وقال الله تعالى بعد أن ذَكَر طائِفة كبيرة من الرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد ذَكَر الله تعالى سيدنا زكريا عليه السَّلام بالعبدية؛ لأنَّها أشرف المراتب وأقربها إلى حضرة الرُّبوبية ، وعلى قَدر تحقُّق العبد بعبوديَّته يكون قربه من ربِّ العالمين.

وإنَّ أشرف عباد الله تعالى وأرقاهم مرتبة في العبودية ، هو

سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي وَصَفه الله تعالى في أعلى مقاماته وأفضلها ، والتي لم ينلها أحد من النَّبيين غيره ، وَصَفَه بالعبدية:

ففي مقام إنزال الكِتاب قال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [الكهف: ١].

وفي مقام الإسراء والمِعراج ، الذي لم يَنَله غيره قال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١] ، وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠].

وفي مقام الفرقان يوم غزوة بدر ، يوم فَرَق الله فيه بين الحق والباطل ، وبَدَرَ فيه بَدْرُ الإسلام ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

واعلم أنَّ الربوبية ذاتية لله تعالى وحده ، لا يمكن لأحد أن يشاركَه فيها على الحقيقة ، بل قد يُشْرِك الإنسان ويدَّعي الربوبية ، أو يزعُم أَنَّ لله تعالى شريكاً أو شُركاء. هذا على سبيل الدَّعوى والافتراء.

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ أي: أصناماً من حجارة أو غيرها ، وجعلوهم آلهة تُعبد مع الله ، ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: صِفُوهم على حقيقتهم ، فهم إمَّا حجارة ، أو حديد أو غير ذلك؛ وليسوا بآلهة كما تَزعُمون ، أمَّا الربُّ على الحقيقة وبالاسم فهو الله تعالى وحده ربُّ العالمين. وأمَّا العبد فهو عبدٌ شاء أم أبىٰ ، ولكن هناك فَرْق بين عَبْدٍ تحقَّق بالعبدية التي هي فيه؛

ويعتَرِف بها ، وبين عبد يُخيَّل إليه أنَّه رب نفسه ، فَيَظن أنَّه هو يُدبِّر أموره ، وأنَّ قوَّته وسمعه وبصره هي مِلْك له ، وأنَّه المُتصرِّف فيها ، وأنَّه وأنَّه . . .

ولذلك جاءت الشَّرائع الإلَهية تُزيل عن الإنسان دعاوي الربوبية ، وَتَحمله إلى التَّحقق بالعبديَّة التي هي صفته ، فجاء الشرع يقول له قل: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[1] وتحقَّقْ بها ، وتحقق بالعبودية الاختيارية.

وكلَّما ترقَّى العبد في تحقُّقه بالعبودية لله تعالى كلَّما شاهد عظمة الرُّبوبية ، وانمحت منه الدَّعاوي والرُّعونات النفسية ، وكلَّما تقرَّب إلى حضرة الربوبية كلَّما خَلَع دعاوي الأنانية والنفسية. وإذا خلع ما عليه خلع الله تعالى عليه ، وصار عبداً تولاه الله تعالى تولية خاصة ، في ذاته ، وقوَّته ، وسمعه وبصره ، وسائر مداركه وحواسه. ومَنْ لم يخلع ما عليه لا ينال خِلعة الله عليه ، لأنَّ من كان دَنِس الثياب ولا يُريد خلعها كيف تَناله الثياب الربَّانية القُدسية الطَّاهرة؟!.

ولمَّا تجلَّى الله تعالى على موسى عليه السلام بالتكليم قال له: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] وطُوى اسم الوادي ، وقد كان التَّكليم في وادي طوى؛ لأنَّه طَوَى موسى عليه السلام وما فيه في ظل الربوبية ، وفني عن نفسه وصفاته وبقي بربه ، ولذلك

---

(١) في (الترغيب) للمنذري (٢/ ٤٣٣) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي هريرة رضي الله عنه: «ألا أعلمك ـ أو ألا أدلك ـ على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة تقول: لا حول ولاقوة إلا بالله ، فيقول الله: أسلم عبدي واستسلم» وعزاه للحاكم وقال: صحيح ولا علة له.

أمره الله تعالى أن يخلع نعليه ، ويُلقيَ ما في يديه ، وفي هذا معنى التَّجرد عَمّا سوى الله تعالى ، والتَّوجه إليه سبحانه بالكلية ، حتى قال بعضهم في قوله: ﴿نَعْلَيْكَ﴾ : أي: اخلع الدنيا والآخرة. وهذا من باب التفسير الأَوْلَوِيّ ، لأنه إنْ كان أُمر بخلع نعليه ، ولم يَرض منه لبسهما ، فمن باب أولىٰ أن يخلع جميع ما عليه ، ويتجرَّد عن رؤية ذاته وصفاته ، ويتوجَّه إلى ربه سبحانه ، حتى فَنِي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] وفَنِيَ موسى عليه السلام عن نفسه وبقي بربه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فقام عليه السلام في مُنتصف الليل ، ونادى ربَّه بنداء خَفِيَ عن الناس ـ أي: في بيته ـ بمعزِل عن رؤية وسماع أحد. وكان سِنُّه وقتئذٍ مائة وعشرين سنة ، وقد اعتراه الضَّعف والوَهن ، وكانت زوجه عاقِراً لا تلِد. مع هذا كله لم يقنط من رحمة الله تعالى وراح يسأل الله الولد.

وبدأ بسؤاله لله تعالى بعَرْض حاله وافتقاره إلى الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: ما عوَّدتني يا رب إلا الإجابة ، ولم تُشقني يوماً بأن حرمتني ما سألتك ، وها أنا أدعوك الآن في هذا الأمر ، متوسلاً إليك بعطائك وكرمك السابق لي ، فأعطني ولا تحرِمني. فخَرَق له سبحانه العادة البشرية في ذلك ، وجاءته البشارة بيحيى عليه السلام.

ولقد كان نداء زكريا عليه السلام في مَعبده خفياً عن الناس ، لأنَّهم إن سمعوه يَطلب من الله الولد على كِبَر سنه وعُقر زوجه قد ينكروا عليه ذلك في قلوبهم ، ويقعوا في الإثم بل في الكفر؛ لأنه

نبي الله تعالى. فلجأ عليه السلام إلى سؤال ربه مُتوارياً عن الناس؛ رحمة بهم وشفقة عليهم، لئلا يقعوا في العَنت.

وقيل: إنّ زكريا عليه السلام كان نداؤه خفياً حتى عن نفسه، وهذا من باب: يا من يُنادَىٰ بالضمير فيسمع.

وقوله تعالى: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ الذي يعلم من عظمته وقدرته ما لا يعلمه غيره، فطَرق باب الرُّبوبية الذي لا يعجزه شيء.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهمَّ لا تجعلني بدعائك شقياً، وكُن بي حفيّاً رؤوفاً رحيماً؛ يا خير المسؤولين، ويا خير المُعطين»[1].

وقد رُوي[2] أن سيدنا زكريا عليه السلام قام في الليل وسجد لله تعالى، وقال: «يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ»، فقال الله تعالى: «لبيكَ لبيكَ لبيكَ يا زكريا». ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ بحذف الياء من لفظة رب، لأن الياء لنداء البعيد، أما زكريا عليه السلام فقد لحظ القُرب، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد يُؤتى بالياء أحياناً في الدعاء بـ يا رب، لملاحظة العبد بُعْد

---

(١) رواه الطبراني في (الكبير والصغير) في حديث طويل عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، (مجمع الزوائد) (٣/ ٢٥٢).

(٢) عزاه ابن كثير في (البداية والنهاية) إلى بعض السلف.

مقامه عن مقام حضرة الربوبية ، لا لبُعد الله تعالى عنه ، وهذا يختلف حسب ملاحظة الداعي وحاله مع الله تعالى في الدعاء.

ولا تعترضْ أيها الإنسان العاقل على أحوال وملاحظة الدَّاعين من عباد الله الصالحين ، فلكلٍّ واحد منهم مرتبته ، ولكل رتبة أحكامها ، ولكل حال مَقال يناسبه.

وقد ورد أن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يوماً: «يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ».

قال الله تعالى له: «لبيكَ لبيكَ لبيكَ».

فقال موسى عليه السلام: «يا رب ، وَمَنْ عَبْدُك موسى حتى تقول له: لبيك»؟!.

فقال: «يا موسى إني آلَيْتُ ـ أقسَمت ـ على نفسي أن لا يدعوني عبدي يا رب إلا أجبته لبيك».

وقد روى مسلم في صحيحه[(١)] ما يؤكد هذا ، أنه لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ﴾ ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قال: نعم» أي: قال الله تعالى: نعم.

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ ﴾. «قال: نعم».

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾. «قال: نعم».

﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

---

(١) في كتاب الإيمان ، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق / ١/١٢٥ (١/٢٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله: نعم».

وهذا تكريم من الله تعالى المنعم على عبده المؤمن إذا دعاه وسأله، مؤمناً ملاحظاً ربوبيته سبحانه عليه، ومُعترفاً بعبوديته له سبحانه.

وتدل الآيات: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ على أنه سبحانه إذا تكرَّم على عبد وأنعَم عليه فهو لا يقطع كرمه عنه؛ إن بقي العبد في أدبه مع الله تعالى.

ولو أنك دخلت على كريم كان قد أكرمك فيما مضى، وقلت له: أنت الذي أكرمتني في العام الماضي؛ لأَكرمك، وأتحفَك دونما أن تسأله، لأنَّه لا يريد أن يقطع كَرَمه، ولأنَّ الكرم صفته فلا يتخلَّى عنه. فما بالك برب العالمين، وأكرم الأكرمين، الذي بفضله جعل الكريم كريماً والسَّخي سخياً؟.

ومن ذلك قوله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ ولكي يُبيِّن له حصول ذلك، ويؤكده سبحانه، ذَكَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنعمه وكرمه السابق له صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ أي: عطاء مُستمراً في كل آن وحين أبد الآبدين. وإنَّ الذي أنعم عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخصَّك بالعناية والتَّكريم مُنذ صِغرك، هو لا يزال يُكرمك ويُنعِم عليك ويعطيك حتى ترضىٰ.

وقوله تعالى: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: يَلي الأمور مِنْ بعدي ، وَيَخلُفني في قومي ، وَيرثني في النُّبوة ، وَيُحْيِيْ ذكري من بعدي ، وهو سيدنا يحيى عليه السلام.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة مريم

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ .

لقد افتتح الله تعالى هذه السُّورة بقوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ، وقد تقدَّم الكلام عليها ، وأنَّها تُشير إلى أسماء إلٓهية ظهرت آثارها فيما أخبرت عنه هذه السورة .

قوله تعالى مُخبراً عن زكريا عليه السلام: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي: ولم أكن بدعائي لك مَحروم الإجابة ، بل أنت يا ربِّ ما عوَّدتني إلا إجابتي فيما أدعوك به فيما مضى ، وأنا الآن أدعوك في هذا الأمر ، مُتوسلاً إليك بعطائك وكَرَمك السابق لي؛ أن يكون مُتوالياً مُستمراً .

وقيل إنَّ معنى قوله تعالى مُخبراً عن زكريا عليه السلام: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ : أي: ولم أكن بدعائك لي شقياً ، أي:

ولم أَكُن بدعائك لي حِيْن تدعوني إلى عبادتك وطاعتك لم أكن مُتخلِّفاً ، بل كنت أَسْعَدُ بعبادتك وأسارع إليها .

وهذا من باب التَّوسل إلى الله بالأعمال الصَّالحة التي عمِلها العبد فيما مضى .

وقد جاء في هذا المعنى ، ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم «اللهُمَّ اجعلني أخشاكَ كأني أراك أبداً ، وأسعدنِي بتقواكَ ، ولا تُشقني بمعصيتك»[1] أي : وفِّقني يا ربِّ للعمل بتقواك التي دعوتني إليها ؛ حتى أكون سعيداً في الدُّنيا والآخرة ، وأبعِدْني عن معصيتك التي نهيتني عنها ؛ حتى لا أشقى شقاء الأبد .

وعلى هذا المعنى فقد توسَّل زكريا عليه السلام إلى الله تعالى بأعماله الصَّالحة ، وكأنَّه قال : فكَمَا أنني يا رب أُجيب دعوتك لي لعبادتك والعمل الصَّالح ؛ وأنا الآن أدعوك في مُهمتي فأجبني .

وإنَّ كِلا المعنيين صحيح ، والآية تحتمل كُلّاً منهما ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

وقد ذَكَر لنا سبحانه في القرآن الكريم عن دعاء الرسُّل عليهم الصلاة والسلام لربِّهم ، وتضَرُّعهم إلى الله تعالى ، وفي ذلك هَدْيٌ لنا ، لأنَّه سبحانه جمَع لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمَع له هدي مَنْ قَبله مِن الرسل ، وزاد عليهم بالهدي المحمدي الخاص ، فقد قال سبحانه بعد أن ذكر طائفة كبيرة من الرُّسل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام : ٩٠] أي : اقتد

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل .

يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهدي الذي هداهم الله تعالى إليه. ولم يقل: فبِهم اقتده.

ولذلك تجد في هدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هديَ نوح، وهدي إبراهيم، وهدي موسى، وهدي عيسى، وغيرهم من الأنبياء والرُّسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، لأنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أُرسل إلى الناس كافة، وإلى الأقوام كلِّهم، فَجَمع له هدي مَن قبله مِن الرسل، وَزاد عليهم بالهدي المحمدي الخاصِ صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: إنما أنت مُنذِرٌ وهادٍ لكلِّ قوم. وأمَّا هدي غيرك من الرُّسل فكان خاصاً بقومه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾. [هود: ٥٠]. ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: ٦١] ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [هود: ٨٤].

وكذلك أرسل الله سبحانه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل والأقبَاط، وجعل التَّوراة التي أنزلها عليه هُدىً لبني إسرائيل دون غيرهم ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢] وهكذا.

أمَّا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أُرسل للنَّاس كافَّة، فكان هديه شامِلاً جامِعاً، انطوَىٰ فيه هدي جميع مَن قبله مِن الرسل والأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وزاد عليهم بالهدي المُحمدي صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في كثير من خطبه: «أمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ،

وَخَيْرُ الْهُدَىٰ هدىٰ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم»[1] أي: أَنَّ خير وأفضل هَدي الرسل هو: هَدي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى مُخبراً عن زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ موالي الرجل هم عَصبَته وقَرابته.

وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: بعد أن أتوارى عنهم بالموت. ولقد خاف سيدنا زكريا عليه السلام مِنْ بعض قَراباته، إذ كان فيهم الأشرار ومن لا خير فيه، فخاف أن يُؤَثِّروا على النَّاس مِن بعده فسأل الله تعالى أن يُهيىء له مِن بعده مَن يَليه في أمر النُّبوة والهَدي، وإمساك زِمام الشَّريعة، حتى يحفظ على بني إسرائيل دينهم.

وكلمة الوراء تدل على التَّواري، أي: الاختفاء والغِياب، فقد يكون التواري بالحُجُب، أو في البيوت، أو بالبُعد؛ ولو كان أمامك، كمافي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي: كان أمامهم، لكنَّه مُتوارٍ عنهم لبُعده. ولو كان المراد من قوله: ﴿وَرَآءَهُم﴾ خلفهم لمَا كان لتعييب السفينة مُبَرِّرٌ، لأنهم قد مرُّوا عليه وجاوزوه.

فالوراء يطلق على كل ما توارى، سواء كان في الأمام أم في الخلف، وكلُّ ما تَوارى فهو وراء.

ومن جملة مَن توارى عنك الأموات، لعدم اطلاعك على

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة /٨٦٧/ (٢/٩٢٣) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

أحوالهم وشؤونهم ، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فيُطلِعهم الله تعالى على حال أهل البرَزَخ ، وقد يُطلع الله سبحانه بعض أوليائه على شيء من ذلك .

ولقد طلب زكريا عليه السلام من ربِّه مَنْ يخلُفه مِن بعده في أمر النبوة والهَدْي لئلا يقع بنو إسرائيل في الضَّلال والفساد؛ من بعد موته وتواريه عنهم ، وهذا قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ أي : يلي الأمر من بعدي .

وأما الحكمة في قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ لأن سؤاله الولد مِنَ الله تعالى جاء على طريق خَرق العادة البشرية في التَّوالد ، إذ إنَّه بلغ من الكِبَر عِتياً ، وكانت امرأته عاقِراً[1] لا تلِد ، لكنَّه طلب الولد من الله تعالى على سبيل الهِبة الإلّهية ، التي لا تتوقف على الأسباب والوسائط المُعتادة .

وإنَّ الهِبات المُعتادة هي ما بيَّنه قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى : ٤٩ ـ ٥٠] وهذا على حسب العادة المألوفة .

ومن هنا يجب أن تفهم أن الأولاد[2] ذكوراً كانوا أم إناثاً إنما هم هِبات من الله تعالى . وأول ما بدأ سبحانه ببيان نوع الهبات بدأ بالإناث لقوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ أي : يجمع الصِّنفين ويهبهما للإنسان ﴿ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ أي : لا ينال من الهبات شيئاً .

---

(١) تطلق كلمة عاقر على كل من لا يلد ، سواء كان ذكراً أم أنثى .
(٢) وتطلق كلمة الولد على الذكر والأنثى ، لقوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ يعني : الذكور والإناث .

وإذا كان هناك من هو كريم عليك ، ومَحبوب لديك؛ ووهب لك هبة فما هو موقفك مع هبته؟ نعم يجب أن تتقبَّلها بقول حَسن ، مع التَّقدير والتَّكريم لها ، لأنَّ هِبة المحبوب محبوبة ، وإلا فأنت كاذِب في محبَّتك له. إذا علمت هذا فما بالك يتغيَّر حالك وتَشمئِز إذا وهب الله لك أنثى ، وأنت تدَّعي الإيمان ومحبَّة الله تعالى ؟!.

ومن الحمقى من يحلف أن لا يدخل على زوجته إذا وَلَدَت له أنثى؛ أن لا يدخل عليها إلا بعد سبعة أيام ، وكان الأَولى بهذا الجاهل الأحمق الذي يدَّعي الإيمان؛ أن يشترط على زوجته حين عقَد عليها أن لا تلِد له إلا الذكور ، وما هذا إلا لسخَافة العقل وضَعف الإيمان.

وقل لمن ينفِر ويشمئِز من هبة الله تعالى له الأنثى: إنَّ فيك صفة من صفات الجاهلية الأولى ، إذ كانوا يعتبرون أنَّ الأُنثى عارٌ أصابهم ، فيلجأ أحدهم إلى قتلها ، أو وَأْدِها ، ويتوارى عن قومه من سُوء ما بُشِّر به؛ على زعمه.

فتُب إلى الله تعالى أيُّها المؤمن من هذه الخصلة الجاهلية التي فيك ، واقْبَل هبة الله لك بحمده وشُكره سبحانه. واعلم أنَّه لو كان في البنات عارٌ أو مُصيبة لما وهبهم سبحانه لأشرف خلقه ، وهم الرُّسل عليهم الصلاة والسلام ، بل ولَمَا وهبهم سبحانه لأكرم خلقه عليه وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فافهم وتدبَّر.

ومن الجهل وقلَّة الدِّين أيضاً أن يَحرِم المؤمن بناته من المِيراث مُدَّعياً أنه حُرٌّ في تصرفه بماله. فقل له: لو كان الأمر كذلك وكما تريد ، لَمَا قسم الله تعالى الميراث على الأولاد ، وبيَّن حظَّ كلٍّ

منهم ، بل لترك سُبحانه الأمر لك تفعل ما تشاء .

فاتَّقِ الله أيُّها المؤمن في أولادك وبناتك ، والزم شرع الله في التَّصرف بمالك ، ولا يكن جهلك وحماقتك سبباً لكُره وبُغض بناتك لك إنْ أنت حرمتهم ميراثك ، بل قد يكون ذلك سبباً لكُره وبُغض أزواجهن لهنَّ أيضاً إن أنت فعلت ذلك ، ويقول لها زوجها : هذا أبوك لو كان يحبُّك ويريد الخير لك لمَا حرَمَك ميراثه ؛ بل هو يُبغضك . وتنشأ العَداوة بينهما . ونسأل الله العافية .

واعلم أنَّه ليس للمرء أن يحرم أحداً من ميراثه ، بل له أن يُرجِّح أحد أولاده في العَطاء لسبب ، قد يكون مرضاً أو عَجزاً أو ضَعفاً ، أو أنَّ هذا الولد أبرُّ أولاده به وهكذا . . .

ولقد عَلِم سيدنا زكريا عليه السلام سُنَّة الله في خَلْقه ، وهي أنَّ العقيم لا يلد ، لكنَّه راح يطلب الهِبة من الله تعالى ، وهي الهبة اللَّدُنِّيَّة على وجه خارقٍ للعادة البشرية ، فقال : ﴿ فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴾ .

واعلم أن الأمر اللَّدُني هو الذي يحصل بلا واسطة .

ومن ذلك : العلم الكَسبي ، وهو ما تكتسبه بالتَّعلم ، والعِلم اللَّدني ما يكون من الله تعالى بدون واسطة .

وإنَّ سؤال زكريا عليه السلام ربَّه الولد من لَدُنه ، دليل معرفته بربه معرفة خاصة . وهذا شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ إنَّهم أعرف العارفين برب العالمين . وإمامهم وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى مُخبراً عن سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

﴿ يَرِثُنِي﴾ أي: في النبوة ـ بأن يجعله الله تعالىٰ نبياً ـ ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ من العلوم النَّبوية، التي وَرِثها زكريا عليه السلام من يعقوب عليه السلام وآله.

﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ رَضِيٌّ على وزن فعيل، يستوي فيها الفاعل والمفعول. وكِلا المعنيين مُحقَّق في يحيى عليه السلام، فهو مَرْضي وراضٍ. مرضيُّ الأقوال والأعمال؛ بأن تُوفِّقه يا ربِّ للأعمال والأقوال المَرضيَّة عندك.

وإذا جاءت الكلمة تحتمل المعنيين فتنصرف إلى معنى، وتلزم الآخر أيضاً.

وأمَّا أن يكون راضياً عن الله تعالى، فهو كما قال تعالى: ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فيما فعلوه وقالوه ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ فيما شرع لهم.

وهذا من مقامات النهايات في السَّير والسُّلوك إلى الله تعالى، وهو مقام الرِّضى عن الله تعالى، وهو مقتضى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «رضيتُ بالله ربّاً»[1] أي: تصرُّفه وتدبيره وقضاؤه كله سواء، وافق ذلك مُرادك أم خالفه.

---

(١) وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل المؤذن لمن سمعه/ ٣٨٦/ (٢/ ٥٥٥) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَـهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رَضِيتُ بِاللهِ رَبّاً، وَبِمُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رَسُولاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً: غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ».

وإيَّاك أيُّها المؤمن أن تدَّعي مقاماً لست أهلاً له ، أو لست مُتحققاً به ، ولو ادَّعيت ذلك لامتحنك الله وابتلاك حتى يعرف صدقك وثباتك ، بل سل الله الستر الجميل ، والعافية التَّامة ، وأن يوفِّقك للعمل الصالح .

ولم تمض مُدَّة يسيرة إلا ونُودي زكريا عليه السلام بالبشارة بقوله تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾ والبِشارة هي : الخبر المُسر ، الذي تَبَش له بَشَرة الوجه لدى سماعه ، ويضحك الإنسان له أو يبتسم . على عكس خبر السُّوء الذي إذا سمعه الإنسان عَبَس وجهه وتَقَطَّب جبينه .

وإنَّ البشائِر الحقيقية هي لأهل الإيمان . جعلنا الله منهم . وأمَّا ما جاء في بعض الآيات من بِشارة الكفار بالعذاب فهذا على سبيل التَّهكُّم ، فهو سبحانه يتهكَّم على الكُفار ، فإن هم أرادوا البشارة فبشارتهم العذاب الأليم . نسأل الله العافية .

وقوله تعالى : ﴿ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾ أي : اسمه ووصفه ، فهو اسم مُطابق لحقيقة المُسمَّى ، واسمه يَحيى لِيُحيي الله به ذِكرك من بعدك يا زكريا ، وهذا ما يُعرف بالمقام اليَحيَاوِي .

ولقد أحيا الله تعالى ذِكر زكريا بـ يحيى عليهما السلام ، وحمل لِواء الشريعة بعد أن قُتِل والده زكريا عليه السلام ـ وقد قتلهِ اليهود ـ وبعد أن مضت عليه مدة طويلة بلَّغ فيها ، وقام بأعباء الرسالة ثم قتله اليهود أيضاً . ـ ولم يُقتَل يحيى عليه السلام قبل أبيه زكريا عليه السلام كما ذَكَرته بعض السِّيَر ـ .

ومن جُملة أحكام المقام اليحياوي : ما ورد في بعض الآثار ، أن الذي يَذبح الموت الذي يَتمثَّل بالكَبش الأملَح يوم القِيامة هو

سيدنا يحيى عليه السَّلام ، وفي هذا روى الشيخان وغيرهما ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُنَادِي مُنَاد: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ.

فَيَقُولُ: هلَ تَعْرِفُونَ هَذَا؟

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذا الْمَوْتُ. وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ.

ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ.

فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ.

فَيُذْبَحُ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»(١) ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ وَهَؤُلاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

واعلم أنه لا بُدَّ لمقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أن تأخذ أحكامها ، وتظهر آثارها في الدنيا وبرازخ الآخرة ، وعلى العوالم في الجنة. إلا أنَّ جميع المقامات مَطويَّة أصالة لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فسمَّاه الله تعالى اسماً يدل على وصفه عليه السلام وحقيقة ما هو عليه. لأنَّ الله تعالى لا يُسمي

---

(١) البخاري ـ واللفظ له ـ كتاب التفسير ، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ / ٤٧٣٠/ (٨/ ٤٢٨) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء/ ٢٨٤٩/ (٥/ ٢٧١٢) وعزاه في (الترغيب) (٤/ ٤٧٤) إلى النسائي والترمذي.

أحداً خِلاف ما هي عليه حقيقته. أمَّا العبد فقد يُسمي ولده سعيداً، ولا يكون من السُّعداء. نسأل الله العافية.

ولقد سمَّى سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم محمَّداً، وهو على الحقيقة مُحمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إنَّه محمود عند أهل السماء والأرض، والملأ الأعلى والأدنى، وعلى لِسان جميع الخلائق في كلِّ العوالم. فما أعظم مقاماته وخِصاله وسجاياه صلى الله عليه وآله وسلم حتى حَمِدَتْهُ وتحمده عليها جميع الخلائق!!!

قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: فلم نُسم أحداً قبله بهذا الاسم، أي: فلم نجعل له من قبل من تَسمَّى باسمه، وليس هناك من تشبَّه بمقامه الذي سنعطيه إياه.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ولم يقل هذا زكريا عليه السلام على وجه الإنكار، بل إنه تقبَّل هذه البِشارة الإلَهية؛ على وجه التَّعظيم والإكبار لهذه البشارة العظيمة من الله تعالى فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾ أي: كيف يكون لي غلام على الرغم من عُقر زوجته وكِبر سنِّه، والله إن هذا الأمر لكبيرٌ عظيم!!

وإنَّ الأمر العجيبَ يدُل على عظمة قدرة الله تعالى وعلى سَعة فضله وكَرَمه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: كبرت سنِّي حتى عَتَىَ جلدي ـ أي: يَبس وجفَّ[1] ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: أن

---

(١) ويقال: عتى العظم: إذا جف ويبس، وكلما كبرت سن الإنسان عتى جلده.

الأمر هكذا فستُؤتى الولد وأنت بهذا الحال ، ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي : فكما أنه هيِّن عليه سبحانه أن يخلق الولد من شاب يلِد وشابة تلِد ، فهو هيِّن عليه سبحانه أيضاً أن يخلُق الولد من عاقِر ومن عقيم وقد بلَغ من الكِبر عِتيّاً ، وكِلاهما عليه هيِّن جلَّ وعلا ؛ لأن قُدرته لا تتناهى .

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي : خلقتُك مِن قبل يحيى عليه السلام ، ولم تَكُ شيئاً مَذكوراً معروفاً على وجه الأرض . فكَمَا خَلَقْتُك ـ وخَلْقُك هيِّن عليَّ ـ خَلَقْتُ يحيى عليه السَّلام وخَلْقُه عليَّ هيِّن .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾أي : علامة تدل على تعلُّق هذا الولد في الرَّحِم ـ أي : تدل على بَدء حمل زوجته به ـ وذلك حتى ينصرِف بالكُليَّة إلى عبادة الله تعالى وشكره وحمده .

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي : العلامة في ذلك ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي : أنَّك تُصبح ذات يوم ولسانُك لا يستطيع النُّطق بكلام الناس ، بل بذِكر الله تعالى وحمده فقط ، وتبقى على ذلك ثلاث لَيَال ، وهي آية ـ أي : علامة ـ بدء حمل زوجك بيحيى على نبينا وعلى جميع الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

❊ ❊ ❊

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة مريم

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ فلقد أمرالله تعالى نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر للنَّاس قصة مريم عليها السلام، وفي هذا الذكر إعلانٌ وثناء ومدح للسيدة مريم عليها السلام، وهذا على عادة الله تعالى أن يذكر أنبياءَهُ وأولياءَهُ بالمَدح والثَّناء.

وفي ذكر خبرهم وسيرتهم عِبَرٌ وفوائد للأُمة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها أن يتبيَّنوا حِكمة الله، وقدرة الله وعظمته ورحمته سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: في القرآن النازل عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ مَرۡيَمَ ﴾ وهو اسم عِبراني الأصل، ومعناه في العربية: العابدة المُنقطعة لله تعالى. والمعنى:

واذكر للناس يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على طريق المَدح والثَّناء أمر تلك العابدة ، التي انقطعت لعبادة ربها ، وما جرى لها.

وقد ذكر جمهور العلماء والعُرفاء أن السيدة مريم عليها السلام هي ولية صِدِّيقَة وليست نبيَّة ، وهذا كما أخبر سبحانه بقوله ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وأمَّا ما ذَكَره بعضهم أنها نبيَّة فلا يُعتمد عليه.

وقوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾ أي: اعتزلت أهلها وقومها ، بأن اتَّخذت بيتاً لها شَرقي بيت المقدس ، وفي هذا إشارات ، لأن الأماكن والجِهات لها أحكام وتُعبِّر عن معانيها ، ومن تلك الإشارات أنها سيُشرق عليها من الأنوار الإلَهية الخاصة. وقد فعلت ذلك السيدة مريم عليها السلام حتى تتوجَّه بكُليتها إلى عبادة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا ﴾ أي: فضربت على نفسها الحِجاب ، واعتزلت الناس ، وانقطعت لعبادة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾ أي: بعد أَنْ مضى عليها مدَّة ، وهي تعبدالله تعالى مُنقطعة عما سِواه ، أرسل الله إليها سيدنا جبريل عليه السلام ، ومن أسمائه عليه السلام «روح القدس» أي: روح الطُّهر والنَّقاء ، و«الرُّوح الأمين» ويقال له: «الروح».

وقوله تعالى: ﴿ رُوحَنَا ﴾ مُضافاً إليه سبحانه للتَّشريف والتَّكريم. وكلمة الروح تأتي في القرآن الكريم على معانٍ ، ولَكنْ أولاً يجب أن تعلم أَنَّ الروح ما به الحياة. فهناك الروح الإنساني، كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]

فكان سؤالهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح الإنساني ، الذي يحيَا به الإنسان ، بما في ذلك وعيه وإحساسه وَمَدارِكه كلِّها .

جاء الجواب من الحق: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي: من عالم الأمر الرَّبَّاني ، الذي يتوقف وجوده على قول الله له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] ولا يحتاج إلى مدة في تخليقه ، ولا إلى مادة يُخلق منها .

أما عالم الخلق المادي: فهو ما خلقه الله تعالى من مادة ، ويحتاج في تخليقه إلى مدَّة ، وإن كانت جميع مراحل تخليقه تحتاج إلى قول الله: «كن» ومن هذا: الأجسام البشرية ، والمخلوقات المادية المحسوسة وهكذا .

فليست الروح الإنسانية مخلوقة من طين أو تُراب كما هو شأن جسمه ، بل خُلقت بمُجرَّد قول الله: «كن» ، فوجودها مُتوقف على الأمر الإلّهي: «كن»، وإنَّ كلَّ ما خُلق بواسطة الأمر الإلّهي «كن» يتبع عالم الأمر ، فهو لايَفنى ولا يموت .

وأمَّا الموت فيُصيب الجسم الإنساني ، وهو فصل الروح الإنساني عن الجسم ، وتبقى الروح في عالم البرزخ ، ويجري على الجسم البِلى .

وهناك روح الوحي الرباني ، النازل على رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم ، كما قال تعالى: ﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] .

وإذا كان الجسم الإنساني يحيا بالروح الإنساني ، فما الذي يُحييه الروحُ الرباني النازِل على رسل الله عليهم الصلاة والسلام؟ نعم يُحيي به اللهُ الروحَ الإنساني. وأعظم من جاء بروح ربانية ، تحيا بها الأرواح ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى له : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢] وهو القرآن الكريم.

ثمَّ أمر العِباد أن يلتمسوا حياة أرواحهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال : ٢٤] أي : لمَا فيه حياة أرواحكم وقلوبكم ، وإلا فهم أحياء في أجسامهم.

فَمَنِ استجاب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وآمن به ، واتَّبع شريعته صلى الله عليه وآله وسلم حَيِيَتْ روحه وجسمه وقلبه حياة الأبد ، وسَعِد سعادة الأبد ، ومن أعرض وعاند وكفر فقد مات مِيتة الأبد ـ وإن كان جسمه حياً ـ وشقي شقاء الأبد كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النحل : ٢٠ ـ ٢١] وقال تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [يس : ٧٠].

وأمَّا إطلاق الرُّوح على سيدنا جبريل عليه السلام ، فهو كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٤].

وإنَّ من شأن الرُّوح كما تقدَّم أن تعطي الحياة ، فما أعظم الحياة العالية التي نالها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

بقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ وقد نزل عليه بأعظم روح رباني وهو القرآن الكريم!!

ولذلك نال صلى الله عليه وآله وسلم الخصائص العالية، التي لم ينلها غيره، في سائر حواسِّه ومداركه وقُواه، وسمعه وبصره صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن ذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِنِّي أَرَى مَالا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ»(١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢] وهذا من عجائب قُدرة الله تعالى وعظمته، أنَّ أعظم روح مَلَكي وهو جبريل عليه السلام، نَزَل بأعظم روح رباني عُلوي وهو القرآن الكريم، على أعظم مخلوق إنساني وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ذَكَر لنا سبحانه شيئاً من آثار قوَّة الروح الجِبريليَّة، وذلك أنه لمَّا جاء إلى موسى عليه السلام، ليصحبه إلى المِيقات الذي وقَّته الله تعالى له، ليُكلِّمه ويُنزل عليه التَّوراة، فجاء إليه جبريل عليه السلام ليصحبه تكرِمة وتشريفاً لموسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام. وقد كان جبريل عليه السلام يركب فَرَساً ـ لكنَّها من عالم الغيب ـ إلا أنَّ سيدنا موسى عليه السلام يراه، وكان يمشي إلى جانب سيدنا موسى عليه السلام وقتئذٍ موسى السَّامري، وهو منافق، آمن بسيدنا موسى عليه السلام ظاهراً وأبطن الكفر في

---

(١) صدر حديث طويل رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» / ٢٣١٣/ (٧/ ٧٤) وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء / ٤١٩٠/ (٢/ ١٤٠٢) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

قلبه ، وإنَّ قوَّة نُورانية سيدنا موسى عليه السلام جعلت موسى السامري يرى فرس جبريل عليه السلام ـ وهذا لأن مَنْ صحب النور ظهرت له الأمور ـ فرأى أن هذا الفرس إذا وطئ اليابس اخضرَّ ، وإذا وطئ التراب أنبَت ، فلمَّا مضى سيدنا موسى عليه السلام مع جبريل عليه السلام ، أخذ هذا السامري قبضة من التُّراب الذي وطئته أقدام فرس جبريل عليه السلام ، ووضعها في بطن عِجل كان قد صنعه وصَاغَه من الذهب ، فدبَّت الحياة في هذا العجل ، وصار له خُوار ، وقال لبني إسرائيل : ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٨٨] فعَبَده سبعون ألفاً من بني إسرائيل ، وأنكر عليهم ذلك هارون عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل المؤمنين .

وقد أنكر سبحانه ذلك عليهم ، ووبَّخهم وعنَّفهم على سَخَافة عقولهم وضعف إيمانهم ، فقال : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه : ٨٩] . وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٨] فكيف عَبَدَ هؤلاء العِجل بمُجرَّدِ أنْ صار له خُوار؟!

نعم هذا من جُملة الفِتن التي يُبتلى بها المُؤمن ، حتى يَمِيْزَ اللهُ الخبيث من الطَّيِّب ، ويظهر المؤمن من المنافق ، ونسأل الله الثَّبات على الإيمان الكامل .

ومن ذلك فِتنة الدجَّال التي حذَّر منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو يأتي بعجائب وغرائب وخوارقِ عادات ، ويدَّعي الوِلاية ، ثُمَّ النُّبوة ، ثم الربوبية ، فيَتْبَعه ضِعاف الإيمان لِمَا يرون منه من عجائب وغرائب ، لكن المؤمن الصادق من شأنه أن يكون يقِظاً حذِراً ، لا يُفتتن بظواهر الأمور وعجائب الأشياء ، ولو كان

الدجال ربّاً لأصلح عَوَر عينه ، فكيف يُصلح أمر غيره؟! ونعوذ بالله من فتنة الدجال ، ومن فتنة كلِّ دجال منافق.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: حتى يخلق الله تعالى من نفخته في مريم بشراً سوياً ، وهو عيسى عليه السلام الذي هو من غير أب.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: تمثَّل سيدنا جبريل عليه السلام بصورة بشر مُعتدل الخليقة ، حَسَن الصُّورة ، لاعَيب فيه ولا نَقص ، وعلى مُوجب هذه الصُّورة التي جاء بها سيَخلق الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وذلك لأن الحقيقة المَلَكيَّة لاترى إلا بأحد أمرين:

١ـ إمَّا أن يتمثَّل الملك بصورة بشر فيراه البشر ، ٢ـ أو أنه يَبقى على مَلَكِيَّتِهِ ، فيراه هذا الذي نزل عليه بموجب أنوار نبوته ، لأن هذا لا يكون إلا لنبي ، وقد يَكشف الله تعالى لِمَنْ شاء من أوليائه فيرى الملائكة بدون تمثُّل.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فلقد فزعت منه ، لأنَّها كانت قد اتَّخذت حِجاباً لها ، فمن أين دخل هذا؟!! ففزِعت وقالت: إني أعوذ بالرحمن منك أن تعتدي علي ، أو تمسَّني بسوء. وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كنت تقياً لله ، فإن تقواك تُبعدك عني ، أي: فناشَدَته بالتَّقوى. كما تقول لفلان: إن كان في قلبك خوف من الله فلا تفعل كذا.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: فلست كالبشر ، وإنما في صورة البشر ، وإنما أنا رسول ربك ، الذي له فيك عناية خاصة وتربية خاصة ، ولقد أرسلني إليك لأهب لك غلاماً زكياً ، فلمَّا سمعت

هذا هدأ رَوْعها ، وعلِمت أنَّه مَلَك مُرسل من جانب الحق جل وعلا .

وقوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ على وجه الخصوص وخرقاً للعادة ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ ومعنى قول جبريل عليه السلام: ﴿لِأَهَبَ﴾ أي: لأكون واسطة في الهِبة الإلَهية لك.

ومن هنا تَفهم أن الواسطة لا تُنكر ، بل هي شيءٌ واقعي ثابت بخلق الله وإيجاده ، وذلك لأن الوهَّاب على الحقيقة هو الله تعالى ، لقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ الآية [الشورى: ٤٩] ومع ذلك أخبر سبحانه عن جبريل عليه السلام قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي: هو واسطة في الهبة الإلَهية ، وأسند الهبة للواسطة.

وقد جاء نَحو هذا في كثير من الآيات القرآنية ، التي أُسندت فيها الأفعال إلى المخلوق على أنه واسطة وسبب في الفعل ، مع أنَّ الفعَّال الحقيقي هو الله تعالى ، لكنه سبحانه وسَّط وسائط ، ونصَّب أسباباً ، وجعل لها أحكاماً لابدَّ منها.

وأمَّا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»(١) ليُبيِّن أنَّ المسؤول على الحقيقة في كلِّ الأمور و الحاجات هوالله تعالى ، وأنَّه هو وحده المُعين على الحقيقة ، فيجب الاعتماد عليه سبحانه في كل الأمور ، والتَّوكل عليه سبحانه ، ولا أحد يملك الضُّر والنَّفع إلا هو سبحانه ،

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٥١٨/ (٨/٢٠٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ولا ينافي هذا تعاطي أسباب الرزق والعيش، والاستعانة بالمخلوقات أو سؤالهم، لأنَّ كلَّ ذلك على أنَّها أسباب خلقَها الله تعالى وسخَّرها للإنسان، ولا تأثير لها من ذاتها، بل إنَّ المُؤثِّر والفعَّال فيها هو الله تعالى.

وقد جاء في القرآن الكريم والسنَّة المُطهرة ذِكر بعض الأمور، وقد أُسند فيها الفعل إلى الواسطة والسَّبب، ومن ذلك قوله تعالى مُخبراً عن نبي الله ذي القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَتُعِينُ الرَّجلَ عَلَى دَابَّتِهِ»[(١)]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَتُغِيثُوا الْمَلْهُوفَ»[(٢)] وغير ذلك. كلُّ ذلك على أن المَسؤول والمُعين والمُغيث على الحقيقة هو الله تعالى، لكنَّه سبحانه يُسخِّر أسباباً؛ ويخلُق فيها أثر الفعل إن شاء، وليس إسناد الفعل إلى السبب أو الواسطة شِركاً بالله تعالى، لأنَّه لا تأثير لها من ذاتها كما تقدَّم.

وأعظم الوسائط بين الخَلْق والحق هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال له سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٣١٦) والبخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر /٢٨٩١/ (٦/٨٥) ومسلم في كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة على كل نوع من المعروف /١٠٠٩/ (٤/١٠٥٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الجلوس في الطرقات /٤٨١٧/ (٥/١٦١) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨٦] أي: فأنت المسؤول عني، فهو صلى الله عليه وآله وسلم المُبلِّغ عن الله تعالى، والنَّاطق عن الله تعالى، والمُشرِّع بأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿زَكِيًّا﴾ أي: طاهر النَّفس والقلب من صِغره، نامياً في الخير والبِرِّ، وهذا لأنَّ الزَّكاة تدل على الطَّهارة والنَّماء، ففيها معنى التَّخلية والتَّحلية.

واعلم أنَّه لا يدخل الجنَّة إلا من كان زكِيَّ النَّفس عن الدَّنس والرِّجس، مُتحلياً بالفضائِل والمكارِم، كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

ولقد كان من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنه جاء يُزكِّيهم، كما أخبر سبحانه[١]، فما أطهر وأطيب نفسه صلى الله عليه وآله وسلم حتى جاء يُزكي العالم كلَّه؟!!

نعم إنَّه السيد المَعصوم، الذي عصَمَه الله تعالى عن الخطأ والمَعصِية والزَّلل والنَّقص، وقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٥] صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى مُخبراً عن السيدة مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي: أنَّ الأمر عجيب، فكيف يكون لي غلام والحال أنَّه ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: بنكاح مشروع ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ بأن مسَّنِي بَشَر بالحَرام؟!

---

(١) كما في الآية / ١٦٤/ من سورة آل عمران ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وإنَّ الآية: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي﴾ كِناية عن النِّكاح ، كما هو في الآية ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦] ، وهو كِناية عن إتيان النِّساء المشروع ، وكذا قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وهذا شأن القُرآن الكريم في تَرَفُّعِه عن ذِكر ما يجري بين الرَّجل وزوجه صَرَاحة ، بل اكتفى بكلمات يَسِيرة فيهاالكِناية عمَّا هُنالك ، وذلك بأن يذكر شيئاً وَيَلزم منه شيءٌ آخر معروف ، وهذا كلُّه من باب التَّكرمة للأذهان أن تتصوَّر تلك الحالة ، وللأسماع أن تسمع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] وفي هذا كِناية عن الإتيان المعروف ، والمعنى: دخلتم بهم مكاناً وخَلَوتُم بهنَّ ، كَمَا تقول: دخلت الدار بفلان ـ أي: بصحبة فلان ـ فالباءُ تُسمى باء المُصاحبة. ويلزم من الدُّخول بالزَّوجة مَكاناً والخَلْوَة بها يلزم من ذلك إتيانه لها. ولذلك نجد في لُغة العرب أمثال هذا في الكِناية عمَّا هُنالك ، بقولهم مثلاً: (فلانٌ بَنَى على فُلانة) أي: ضرب السِّتار عليها لقضاء حاجته منها.

وهكذا ترى أنَّ الأدب القُرآني يُبعد الأسماع عن صَريحات الأمور ، ويُبعد الأذهان عن تصُّور ما هُنالك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي: أن الأمر هكذا ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فإنَّ ربك الذي رباك ويربيك ، له فيك عناية خاصة ، ومن ذلك أنه سيهب لك هذا الغلام على وجه خارق للعادة البشرية المألوفة ، وَكُلّه عليه هَيِّنٌ سبحانه ، فلا فرق عليه أن يَهب الولد من زواج ذكر بأنثى ، أو أن يخلق الولد من أنثى بلا ذكر ، أو أن يخلق الإنسان من تراب من دون أب وأم؛ كما هو حال آدم عليه السلام ،

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقد خلق الله سبحانه حواء من حَيّ، ولذلك سميت حواء، إذ خلقها الله تعالى من أعلى ضلع في كتف آدم الأيسر عليه السلام، وهذا قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] وقد خلقها تعالى خَلقاً مِن مادة تلك الضلع، لا أن آدم ولدها[1].

أما آدم عليه السلام فقد خلقه الله تعالى من أديم الأرض، أي: من ظهرها وتُرابها الطَّاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: نخلقه من أجل كذا وكذا ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾ علامة للنَّاس دالَّة لهم على قدرة الله تعالى، وأنَّه القادِر على أن يخلق بشراً من أُنثى فقط.

وقد ذكر الله تعالى في سورة آل عمران، ذكر فيها خبر عيسى عليه السلام بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يخلق ما يشاء كيف يشاء جلَّ وعلا. وكلُّ ذلك يدُل على وُجود الله تعالى، وعظمة قُدرته، وسَعَة عِلمه وحِكمته سبحانه. وقد أَشْهَدَك ذلك سُبحانه في خَلقِه للسَّماوات والأرض، وفي خَلْقه للإنسان، وفي خَلْقه لكلِّ شيءٍ. وكلُّ العوالم حَولك مَشاهِدُ على أنَّه: لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أرسَله الله تعالى إلى النَّاس كافَّة، وأيَّده بالبراهين العقلية، والمُعجزات

---

(١) وهذا كما خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب الأرض، لا أن الأرض حملت به وولدته. فافهم.

الكونية المُتنوعة ، وكلُّها دلائِل صدِق نبوَّته ورسالته ، وما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد هذا كلِّه حتَّم وأوجب أن تشهد بما شاهدت ، وإلا فأنت جاحِدٌ تُنكر شهادة ما شَهِدْت وعَلِمت بالخبر القاطِع.

وإذا كُنت لم تُعاين شيئاً من مُعجزاته الكَونية صلى الله عليه وآله وسلم ، كانشقاق القمر مثلاً وغيرها ، فاعلم أنَّه قد ثبت لديك صحَّة ذلك على وجه التَّواتر في القرآن الكريم ، وأحاديثه المُتواترة صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنَّ الخبر المُتواتر بمنزلة المُعاينة.

فكما تصدِّق وتُؤمن بوجود البلد الفلاني أو البحر الفلاني؛ ولم تَرَه بعينك ، إلا أنَّه ثبت وجوده بأخبار الجماهير الكثيرة من الناس ـ وهذا هو خبر التَّواتر ـ فعليك أن تكون بما جاءك عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أشدُّ إيماناً ويقيناً ، لأنَّ خبر القرآن المُتواتر أقوى من رؤية العِيَان ولا يقبل الخطأ.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: حتَّى نَرحَم به النَّاس أيضاً ، ونُنزل عليه الشَّريعة والأحكام التي فيها مَصالحهم وسعادتهم.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ حاصِلاً واقعاً لا محالة ، لأنَّ الله تعالى قد أراده وقضاه.

ونسأل الله تعالى التَّوفيق. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة مريم

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي: جاءها جبريل عليه السلام مُتمثِّلاً بصورة بشر سَوِيّ القامَة، مُعتدِل الجسم، حَسَن الصُّورة، لا عَيب فيه ولا خَلَل، وقد جاءها بصورة عيسى عليه السلام، الذي سيخلقه الله تعالى منها.

قوله تعالى مُخبراً عن مريم عليها السلام قولها: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ كِناية عن النِّكاح ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ كِناية عن السِّفاح.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي: آية دالَّة على وجود الله تعالى، وعلى وحدانيته وقُدرته سبحانه. وذلك لأنَّ النَّاس مُختلفون في عقائِدهم، فمنهم المُنكر المُلحِد

وجود الله تعالى ، فيُقال له: تَفَكَّر وتدبَّر في خَلْق عيسى عليه السلام من امرأة فقط دون أن يمسَّها ذَكَر بنكاح مَشروع ولا بسِفاح مُحرَّم. ولا بدَّ من وجود خالق واجب الوجود ، وليست القضية قضية طبيَّة ، ولو كانت طبيَّة لكان خَلْق الناس على نَمَط واحد ، فَمَا الذي جرى عليها حتى تغيَّر نِظامها؟!

ثم مَن الذي طَبَع الطَّبيعة على ما هي عليه؟!

نعم هناك خالق بارِىءٌ واجب الوجود ، طَبَع الطَّبائع كلَّها وميَّز المخلوقات عن بعضها في أمزجتها وطبائِعها ، فمِنَ النَّاس مَن طَبْعُه الغضب ، ومنهم مَن طبْعُه التَّأني ، وهكذا طبيعة الصَّيف الحر ، وطبيعة الشتاء البَرْد ، وطبيعة النَّجم الفلاني الحرارة وغير ذلك. كلُّ هذه الطَّبائِع الخَلقية إنَّما وُجدت بخَلْق الله تعالى ، ولو شاء لغيَّر طبائِعهاوبدَّل أنظِمَتها كيف يشاء.

وإنَّ كلمة الطَّبيعة في اللُّغة تعني: المَطبوعة ، كما تقول فَتِيلة يعني: مَفتُولة ، وقَتيلة يعني: مَقتولة وهكذا. فهي على وزن فَعيلة يعني: مفعولة.

والطَّبيعة إذاً لا بُدَّ لها من طابِع ، هو الله سبحانه وتعالى ، الذي خَلَق الطبيعة وطَبَع الطَّبائع كلَّها ، ويتصرَّف فيها كما يشاء. فلو أراد لأَمْطَر السَّماء في الصيف ، ولأَدفَأ الجَوَّ في الشِّتاء ، ولأحرق بالماء ، أو لبرَّد بالنَّار كَمَا وقع ذلك لإبراهيم عليه السلام. ولو تَملَّكت النار صِفة الإحراق من ذاتِها لأَحْرَقت الخَليل عليه السلام!! فلا طبيعة تُؤثِّر من ذاتها؛ بل بخَلْق الله وتصرُّفه سبحانه ، ولذلك قال في خَلْق عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ تدلُّهم على وجوده ووحدانيته سبحانه ، وعظمة قُدرته.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّآ﴾ أي: ورحمة لمن يُريد الرَّحمة من النَّاس فيُبرىءُ الأَكْمَه والأَبْرَص، وَيَمسح على الأعمى فيُبصر، وعلى المُقعَد فيمشي، وعلى الكَسِير فيُجبَر، وعلى المريض فيشفى.

وقد أعطى الله تعالى جميع ذلك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكم أبرَأ صلى الله عليه وآله وسلم بمَسَحَاته أجساماً مريضة، وبصَّر عُمياناً، وهدى ضُلالاً، صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: وكان هذا النَّوع من التَّخليق الإنساني كان أمراً قد حَتمه الله تعالى وقَضَاه مُنذ آزال الآزال، وليست القضية حادثة، بل هي مَسبوقة بعِلم الله الذي لا أوَّل له، وفي قضائِه وحِكمته جلَّ وعلا.

ومعنى: ﴿مَّقْضِيًّا﴾ أي: قضى الله تعالى به، بمعنى حَكَم الله تعالى به من القضاء وهو الحُكم. وهذا معنى القضاء والقَدَر. فالقضاء هو: الحُكم السَّابق، والقَدَر هو: التَّنفيذ اللاحق. والقَدَر تابع للقضاء.

ومن الخطأ تفسير القضاء الإلَهي بالعلم الإلَهي، لأنَّ معنى القضاء في اللُّغة هو: الحُكم، وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مُبين، فلا يَصح فَهْم معانيه إلا بما تقتضيه لُغة العرب.

وإنَّ القضاء الإلَهي أي: الحكم الإلَهي على الأشياء بما ستكون عليها، هذا الحكم تابع للعِلم الإلَهي الأزلي، وللحِكمة الإلهية الأزلية.

وأمَّا قولك: طالما أنَّه سبحانه وتعالى قد قضى جميع الأشياء والأمور؛ فَلِمَ يُؤاخذ النَّاس على ما قضى وحَكَم؟؟.

فيُقال: إنَّ قضاءه سبحانه عليك بأن تفعل كذاوكذا، لايَسْلِبُك الاختيار في فِعل ما تريد وتشاء، لأنَّه قَضى أنَّك ستفعل كذا وكذا باختيارك وإرادتك، فالمُؤاخذة تكون على الأمور الاختيارية للعبد، وأمَّا الأمور التي لا اختيار له فيها فلا مُؤاخذة عليه. وهذا ما ثبت عقلاً وذَوْقاً وشرعاً.

فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أمراً مُحكماً قَضَاه الله تعالى في الأزل، أنْ سيكون تخْلِيق عيسى ابن مريم عليه السلام على هذا الوجه، ولا بُدَّ من نفاذ ذلك، لأنَّ هذا الأمر مقضِيّ بقضاء الله تعالى السَّابق، الذي هو حُكمه تعالى على الأشياء بما ستكون عليه هذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: فلمَّا جاء جبريل عليه السَّلام إلى مريم عليها السلام، ونفخ في جيب دِرعها[1]، فكوَّن سبحانه بهذه النَّفخة عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك لقوَّة الروح الجبريلية التي أمدَّ الله تعالى بها جبريل عليه السلام.

وقد ذَكَر سبحانه في آية أخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فكانت النَّفخة في الدِّرع، وانتهت إلى موضع تخليق الولد، وحصل الحَمل بعيسى عليه السلام.

وكانت مادة تخليق عيسى عليه السلام هي ماء مريم عليها السلام، الذي استقرَّت عنده نفخة جبريل عليه السلام، ومن هذا

---

(١) الدرع في اللغة: قميص المرأة.

استدَلّ العلماء على أن ماء المرأة يحوي عناصِر الحياة.

ولا تستبعدْ ذلك على قُدرة الله تعالى، فالذي قَدر على خَلْق آدم عليه السلام من تُراب بلا أم ولا أب؛ لَهُوَ قادر على أن يخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أي: تَبَاعَدَت عن قومهاإلى مكان بعيد، لمَّا كبِر الحَمْل في بطنها؛ حتى لا يرتابُوا في أمرِها، أو يتكلَّموا في حقِّها.

وأكثر العلماء على أن مُدَّة حَمْلها بعيسى عليه السلام كانت كعادة النِّساء تسعة أشهر، وهناك من قال: خمسة أشهر، على اعتبار أن مُدَّة التَّخليق الأُولى قد تَّمت بأثر نَفْخة جبريل عليه السلام، ولم تمُر على التَّخليق فترة النُّطفة والعَلَقة والمُضغة، التي جاء ذِكْرُها في الحديث الذي رواه الشيخان(١) وغيرهما(٢)، عن عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكَاً، يُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ» الحديث.

---

(١) البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة /٣٢٠٨/ (٦/ ٣٠٣) مسلم أول حديث في كتاب القدر /٢٦٤٣/ (٥/ ٢٠٦١).

(٢) في السنن الأربعة (ومسند) الإمام أحمد.

وقد انطَوَت هذه المدَّة وهي أربعة أشهر انطوت من فترة تخليق عيسى عليه السلام ، ودبَّت فيه الحياة مُنذ نَفَخَ جبريل عليه السلام الرُّوح في مريم عليها السلام ، وحَمَلَته خمسة أشهر فقط.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: ألجأها المخاض ـ وهو ما تخُوض فيه المرأة الحَامِل المُتِم ـ أي: أتمَّت فترة حَمْلها ، وآنَ وقت وِلادتها ، فيَعتريها ألَمٌ لتُطلِق ما في بطنها.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: أمسكت بجذع النخلة لمَّا اعتراها ألَم الوِلادة، لتُطلِق ما في بطنها. وإنَّ المرأة حال وِلادتها تُريد أن تُمسك بشيءٍ لتتمكَّن من إطلاق ما في رَحِمِهَا، ولم يكن أَحَـدٌ مع مريم عليها السَّلام ، فَلَجَأت إلى جِـذع نَخلـة يابِسة وأمسكت به.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فلقد تمنَّت الموت خوف أن تتكلَّم فيها الناس ، ويرمُوها بالفاحشة ، فتمنَّت الموت خلاصاً من ذلك ، ولم تتمنَّ الموت من شدَّة ألم الوِلادة.

واعلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد نهى عن تمنِّي الموت من شدة ألمٍ أو ضُرٍّ أو كَرْب أصاب العَبْد ، بل عليه أن يقول كما بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما[1] ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم المَوتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ ، فَإِنْ

(١) البخاري في كتاب المرضى ، باب تمني المريض الموت / ٥٦٧١/ (١٠/١٢٧) مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة / ٢٦٨٠/ (٥/٢٥٩٠) أبو داود في كتاب الجنائز / ٣١٠٨/ (٣/ ٤٨٠) وهو عند الترمذي والنسائي وابن ماجه. =

كَانَ لا بُدَّ فَاعِلاً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرَاً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرَاً لِي».

أما تمنِّي الموت خوفَ الفِتنة على الدِّين أو العِرْض فلا بأس منه؛ كما فَعَلت السيدة مريم عليها السلام، التي خافت من كلام قومِها في حقِّها وتمنَّت الموت.

وقوله تعالى مُخبراً عنها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: شيئاً مَترُوكاً لا تذكره النَّاس.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ أي: ناداها جبريل عليه السلام من أسفل الوادي التي كانت قائمة على شاطئه، وليس المراد التَّحتية المُباشرة، لأنها لجَأت إلى النَّخلة ـ وهي في مكان مُرتفع ـ، لمَّا اعتَرَاها المَخَاض، فناداها جبريل عليه السلام من بطن الوادي التي كانت فيه.

وقال بعضهم: إنَّ الذي ناداها هو عيسى ابن مريم عليهما السلام، الذي وَلَدته بعد أن اشتدَّ عليها المَخاض، وقالت ما ذَكَره سبحانه عنها، ناداها عيسى عليه السلام الذي كان تحتها وقتئذٍ. أي: وقت ولادته.

لكنَّ سِيَاق الآيات يناسِب أنَّ المناديَ هو جبريل عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ وهذا الجَعْل فَوري، إذ خلَق الله تعالى ماءً يجري تحتها ﴿سَرِيّٗا﴾ أي: جَدولاً يسري فيه الماء الكثير، عَوناً لها وقُوتاً.

وقال بعضهم: إنَّ المُراد بالسَّري هو عيسى عليه السلام، فلقد

ناداها جبريل عليه السلام وبشَّرها أن الله تعالى قد جعل تحتها عيسى ابن مريم السَّري. أي: السَّخي النَّفس[1] ، النَّقي التَّقي الزَّكي ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ فلقد أَجرَى الله تعالى الماء تحتها ، وسخَّر لها رُطَب النَّخلة لتأكل منه ولقد كان جِذع النَّخلة يابِساً ، إلا أنَّ الله تعالى أحياها وأمدَّها بالثِّمار الجَنِيِّ؛ وهو الرُّطَب الذي آنَ أوان جَنْيه .

والرُّطب: هو ما طَاب أكله من الثَّمر قبل أن يَجِفَّ ويصير تمراً قاسياً .

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: هُزِّي غُصن النَّخلة إلى جانبك ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ آنَ وقت أن يجنيَها الإنسان ، وقد استدلَّ العلماء على فائدة ومَنفعة أكل التَّمر ، وخاصَّة الرُّطب للمرأة بعد وِلادتها ، وأنَّه يُغَذِّي جِسمها ويزيد في لَبَنِها لرَضيعها .

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ﴾ فيه بيان أن الأمر خاصٌ بالسيدة مريم عليها السلام ، ولو أنَّ يدَ غيرها هزَّ جِذع النَّخلة لَمَا تساقط عليها شيء .

كما أنَّ عصا سيدنا موسى عليه السلام ، لا تعمل إلا في يد موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

كما أنَّ من لَبس عِمَّة وَلِيٍّ لله تعالى أو جُبَّته ، ما نال مقامه ، بل ناله البَرَكة والخير ، وهكذا فإن الأمور بحقائقها لا بمظاهرها .

---

(١) ويقال: رجل سري من السراة. أي: أنه سخي النفس ، كريم الطبع ، حسن الخَلق والخُلق .

وليس كلُّ من حَمَل السَّيف فهو بطل شجاع ، بل إن السَّيف البتَّار لا بدَّ له من زِند عامِر قوي ، وقلب شجاع مقدام.

وليس من جلس في مجلس الأولياء صار ولياً أو نال مقاماتهم. بل يناله الخير والبركة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ في حين أنَّه سبحانه قادِر على أن يُسقط رُطَب النَّخل بدون هزٍّ منها ، وذلك لكي تَظهر حِكمة الله تعالى في خَلْقه للعبد وللأسباب عامة ، فمن نظر إلى جهة قدرة الله تعالى المُطلقة ، فهو سبحانه قادر على أن يُسقط الرُّطب بدون هزٍّ من يد مريم عليها السلام ، ولكن يُقال عندئذٍ: ما الحكمة في خَلْق اليد؟.

وقد يقول آخر: إنَّه سبحانه قادر على أن يجعل الرُّطب في فمِها مباشرة من النَّخلة بدون هزٍّ وتناول منها!

وبهذا المنظار تكون الحِكمة من خلق اليد والأصابع قد ضَاعَت ، وهو سبحانه قادِر على أن يخلق الغِذاء والقُوت في نفسها دون هزٍّ للنَّخلة؛ أو أكل الرُّطب ، وبهذا تضيع حِكمة الله من خلق اليد والأصابع والفم واللِّسان والمَضْغ ، إذ لا بدَّ للأسباب من ظُهور أثرها ، ولا يحمِلنَّك النَّظر إلى قُدرة الله تعالى إلى تعطيل حِكمة الله تعالى من خَلْقه للأسباب والوسائِط. فهو سبحانه العزيز ، والعليم ، والحكيم ، ولا بدَّ من ظهور آثار أسمائه سبحانه في العوالم والخلائق كلِّها ، ومن نَظَر إلى اسم من أسماء الله تعالى وعطَّل غيره ، كان كَمَن نَظَر إلى آية من كتاب الله تعالى وعطَّل آيـات ، كمن قرأ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ ووقف عندها وخَتَم قراءتـه ، فقد أبطَل معنى الآية ، وعطَّل حُكمها وارتباطها بغيرها

من الآيات ، وذلك لأنَّ آيات القرآن كلَّها مُرتبِط بعضُها ببعض ، ولا يصح الاستقلال بفهم آية وإهمال غيرها ، وكذلك فإن الأسماء الإلٰهية مُتآخية ، آخِذٌ بعضها ببعض ، ومرتبط بعضها ببعض ، ولا بدَّ من ظهور آثار ذلك كلِّه في الأكوان.

وهو سبحانه قادِر على أن يجعل القلعة مثلاً ذهباً ، لكنّ حكمته سبحانه تنافي ذلك ، فلا تسأل ربك أن يجعل لك جبل القلعة ذهباً لتبتلعه ، ولكن اقتضت حِكمة الله تعالى أن يكشف الفُرات في آخر الزَّمان عن جبل من ذهب ، كما أخبر عن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى يَحْسِرَ الفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيهِ ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، وَيَقُوْلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُوْنُ أَنَا الَّذِيْ أَنْجُو»[1] وهذامن أشراط الساعة ، وهو جبل ذهب حقيقة ، لا تَصرفه عن حقيقته بتأويلك أنَّه البترول وغير ذلك ، إذ إنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أَفْصَحُ من نَطَق بالضَّاد ، قد قال: «جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ» ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم صاحب البيان ، يعرف كيف يعبِّر عما يُخبِر. فافهم.

قوله تعالى: ﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾ أي: فكُلي من الرُّطب ، وكفى به غذاءً ، واشربي من جدول الماء الذي أسرَاه الله لك ، ﴿ وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾ أي: فلا يَهُمنَّك كلام الناس.

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ أي: إنْ أتاك أحدٌ من النَّاس وسألك عما جرى لك ،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات.. /٢٨٩٤/ (٥/٢٧٣٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد رواه البخاري مختصراً في كتاب الفتن ، باب خروج النار /٧١١٩/ (١٣/٧٨).

فقولي: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ عن الكلام مع الناس.

وإنَّما كانت مشغولة بذكر الله تعالى وتسبيحه وَحَمْدِه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أمَّا غير الإنس من الملائكة فقد تكلِّمهم ويكلِّمونها.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: شيئاً عجيباً ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المولود، قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: قال عيسى عليه السلام وهو في المهد: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] أي: يكلِّم الناس في صِغره كَمَا يكلِّمهم في حال كُهولته على حدٍّ سواء ـ أي: لا بكلام صغير لا يحسن النُّطق، بل يتكلَّم وهو صغير بكلام بليغ فصيح، كما يكلِّمهم وهو كَهْل ـ.

وإذا قيل: كيف حصل هذا وهو صغير الجسم؟!

فاعلم أنَّ الروح الإنساني التي ينفخها المَلَك في الجَنين وهو في بطن أمه؛ إنَّما هي روح تبقى مع الجسم الإنساني إلى حين وفاته، ولا تتَّصف الروح بالكِبَر والصِّغَر والهَرم، وإنَّما تعمل في الجسم الإنساني على حسب استعداده وقابليته، فإذا كان الجسم صغيراً تكون حواسه محدودة، فإنَّ أثر ظهور الروح في حواسه ومداركه على حسب قوتها وقابليتها، حتى إذا كبِر الجسم عظُم أثر الروح فيه، وظهر الوَعي والتَّعقُّل والتَّفكير والنَّظر وغير ذلك.

ولكي يتَّضح لك ذلك أكثر: فانظر إلى قُوَّة الكهرباء، فإنْ

سَلَّطتها على مِصباح صغير كان أثر النُّور فيه ضعيفاً ، وكلَّما كبر استعداد المصباح عظُم النُّور ، مع أنَّ القوَّة المُسلَّطة هي واحدة ، ولكن يظهر أثرها مختلفاً على حسب قابلية واستعداد ما تتوجَّه إليه .

ومن هنا تُدرك سرَّ مُعجزة الله تعالى ، إذ إنَّه سبحانه أنطَقَ عيسى عليه السلام وهو في المهد صغير الجسم ؛ أنطَقَهُ نُطقاً كاملاً كَمَا تتكلَّم فُصَحاء الرِّجال . وهذا لأنه سبحانه أعطى جِسم عيسى عليه السلام حالة الصِّغر ؛ أعطاه الاستعداد الكامِل كما في حالة الكِبَر ، وذلك من ناحية ظهور كمالات الروح في النُّطق الفصيح . وإذا أراد سبحانه شيئاً أحكمه وهو يفعل ما يشاء .

وإذا علمت أن ظهور أثر الروح في الجسم يكون على حسب استعداد الجسم وقابليته ، فاعلم أنَّ الأرواح نفسَها مُختلفة في الاستعداد والقابليَّة ، وإنَّ استعداد الأرواح وقابليَّتها لِتَلَقي العُلوم والمَعارِف الإلَهية ، والأسرار والأنوار الإلَهية ـ هذا الاستعداد ـ يختلف ويتفاضَل من روح إلى أُخرى .

وإنَّ أعظم روح ، وأقوى روح في القابليَّة والاستعداد لتلقي العلوم والمعارف والتَّجليات هي : روح السيد الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلك كانت روحه الطَّاهرة أول الأرواح خَلقاً في عالم الأرواح ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أوَّل من نبَّأه الله تعالى في عالم الأرواح ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم مُتقبِّل ومُستعد للأنوار الإلَهية الفيَّاضة المُتواصلة المُستمرة النَّازِلة عليه صلى الله عليه وآله وسلم ومِنْ نُوْره صلى الله عليه وآله وسلم تشع الأنوار وتسري في العالمين ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم يستمِد من رب العالمين الكُلَّ ، ويُمِدُّ الكلَّ بالمَدد

الفَيَّاض ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي»[1] .

ولولا سَريان أنواره صلى الله عليه وآله وسلم في قلوب المؤمنين إيماناً حقاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لَمَا كان لأحد منهم حَظٌّ من نور الإيمان ولا شَعَرَ أَحَدٌ بلذَّة الإيمان ونعيم الخشوع لله تعالى .

وبهذا السَّريان النُّوراني المُحمدي صلى الله عليه وآله وسلم في قلوب المؤمنين عَرفوا الله وآمنوا واهتدوا .

وقد ذكر سيدي الشيخ عبد العزيز الدَّبَّاغ رحمه الله تعالى عن بعض أهل الخذلان من المُبتدعة ، أنَّه أنكر واعترض على أهل الله تعالى قولهم : (إنَّ قلب كلِّ مُؤمن يستمدُّ نُورَه من نور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمِدُّ نورَه من الله تعالى ، ولولا هذه الخُيوط النُّورانية المُمتدة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قلب المؤمن لمَا ثَبَتَ عليه الإيمان) .

فلما أنكر بعض المُبتدعة هذا الكلام ، قال الشيخ رحمه الله تعالى : يا هذا إمَّا أن تصدِّق وهذا أَولى بك ، وإمَّا أن نقطعَ الخُيوط بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال له : لا أصدق .

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين / ٧١/ (١/ ١٦٤) ومسلم في كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة /١٠٣٨/ (٢/ ١٠٧٥) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه .

فاعاد عليه الشيخ رضي الله عنه ذلك مِراراً وهو يُعرِض ويُنكر.

فقال له الشيخ: قطعنا الخيط بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلمَّا قام الرَّجل من المجلِس وخرج، عرضت له فتنة فسجد لغير الله تعالى.

ونسأل الله العافية، والثَّبات على الإيمان الكامِل بجاه سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم صاحب مقام الوسيلة الفرداني في الجنَّة، وَمِن مقامه العالي تَمتدُّ وتُشِع الأنوار إلى جميع قُصور ومنازل أهل الجنة؛ كُلٌّ على حَسَبه.

فلا غِنى لك أيُّها المؤمن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ ولا حتى في الجنَّة.

واللهَ نسأل أن يجعلَنا في زُمرته وتحت لوائِه صلى الله عليه وآله وسلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة مريم

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

قوله تعالى مُخبِراً عن عيسى عليه السَّلام قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ وفي هذا بيان من عيسى عليه الصلاة والسلام أنَّه عَبْدٌ لله تعالى ، خصَّه الله تعالى بالنُّبوة والرِّسالة كغيره من الأنبياء والرُّسل عليهم الصلاة والسلام ، وفيه أيضاً بيان أنَّ عيسى عليه السلام دعا إلى عبادة الله تعالى ، على الوجه الذي شَرَعه الله تعالى ، وهو الصِّراط المستقيم .

وإنَّ الصرط المستقيم في عبادة الله تعالى هو دعوة جميع الرسل ، وهو صِراط الشَّريعة التي أوحاها الله تعالى لكلِّ رسول ، وتختلف الشَّرائع ـ يعني الأحكام العمليَّة ـ فيما بينها ، وذلك حسب ما تقتضيه مَصلحة وسعادة كلِّ قوم ، وهذا قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] .

أمَّا الأُصول فهي نفسها في كلِّ الشَّرائع الإلَهية ، وهذا معنى

الدِّين الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: العقيدة والإيمان ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وهو صراط الشَّريعة الذي أمرنا سبحانه أن نسأله التَّوفيق للعمل به بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو صراط عبادة الله تعالى، على مُقتضى ما شَرَعه سبحانه، وهو المُشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

ومعنى **الصِّراط في اللُّغة**: الطَّريق الواسع، الذي يتَّسع للمارِّين عليه مهما كثُروا، **والمستقيم**: الذي لا اعوِجَاج فيه.

وهناك الصِّراط المُستقيم بمعنى صِراط الرُّبوبية، أو صِراط قضاء الله وقَدَره، وهو المُشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] أي: فلا ظُلم ولا جَور، ولا جَبر ولا إكراه لأحدٍ في قضائه وقَدَره وتصرُّفه في عباده سبحانه، وهو المُشار إليه أيضاً بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٥ ـ ١٢٦] أي: وإنَّ شَرحه سبحانه لصَدر فُلان للإيمان، وتضييقه لصدر آخر: هو بمُقتضى عِلمه وحِكمته ورحمته

سبحانه ، فلا ظُلم ولا جَور ولا جَبر في قضائِه سبحانه ، وهذا معنى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام: ١٢٦] ، أي : لا ظلم فيه ولا إكراه ، بل هو بمُقتضى العِلم والحِكمة والعَدل.

وأمَّا معاني الهداية: فإمَّا أن تكون على معنى البيان والدلالة ، أو على معنى التَّوفيق للإيمان والعمل الصالح.

وقد تكفَّل سبحانه وحتَّم على نفسه هِداية البيان لجميع خَلْقه ، وهذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل : ١٢] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الإنسان : ١٣] أي : بيَّنا للإنسان طريق الخير من طريق الشر ، وطريق السَّعادة من طريق الشَّقاء ، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي : بيَّنا لهم الحق من الباطل ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧].

وهداية البيان تكون بواسطة الرُسل عليهم الصلاة والسلام ، الذين يُوحِي إليهم سبحانه الشَّرائع ، ويُقيمون على النَّاس الحُجَّة والبُرهان على حقيَّة قضايا الإيمان.

وإنَّ أعظم من جاء يهدي من عند الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «وخَيْرُ الْهُدىٰ هدىٰ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم»[1] ، أي : خير وأفضل وأجمع هدي الرسل ، إنَّما هو هديه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٥٢ _ ٥٣].

---

(١) كما جاء في (صحيح) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة /٨٦٧/. (٢/٩٢٣) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وأمَّا هداية التَّوفيق للإيمان والعمل الصالح ، فهي ما جاء في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: وفِّقنا للسَّير عليه ، مُتَّبعين في ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: وفَّقكم للإيمان فآمنتم.

ولكي يتَّضح لك الفرق في معنى هداية البيان وهداية التوفيق: فلو أنَّ إنساناً ضلَّ طريق الوصول إلى البلد الفلاني ، وسألك عنه فدَلَلته وبيَّنت له الطَّريق المُوصِلَ إلى البلد الفلاني ، فيُقال: إنَّك هديته ، بمعنى: بيَّنت له الطريق.

وبعد ذلك فهو إمَّا أن يسلكَه ويمشي فيه ليَصل إلى مُراده ، وإمَّا أن يُعرِض وينحرِف في طريقه ، ولا تملك أنت أن تحمِلَه على السَّير في الطريق الذي دَلَلْتَه إليه.

ومن هنا تفهم أنَّ هِداية التَّوفيق للإيمان والعمل بمقتضاه لا يملِكها إلا الله تعالى وحدَه ، وهو يتصرَّف سبحانه في خَلْقه على مُقتضى عِلمه وحِكمته وعَدله ، وهذ قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] أي: على مُوجب حِكمته وعَدله سبحانه.

وإنَّ مَنْ سَلَكَ الطَّريق المستقيم ، وهو صِراط شَرْع الله وعبادته انتهى به الصِّراط ووصَّله إلى الله تعالى؛ بدخول جَنَّتِهِ والفوز بكرامته.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره(١) ، عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ

---

(١) (مسند) الإمام أحمد (٤/ ١٨٢) ، (المستدرك) للحاكم.........................=

سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه ، عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم قالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ، صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ـ أي: طريقاً مستقيماً لا اعوجاج فيه ـ وَعَلى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ ـ وفي رواية: «على كتفي الصراط» ـ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ ـ أي: على نهاية الصراط ـ دَاعٍ يَقُولُ: يا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً واستقيموا ولاَ تَعوجُوا، ودَاعٍ يَدْعُو مِنْ فوق الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ الإنسان أن يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ ، فإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فالصِّرَاطُ الإِسْلامُ ـ أي: الدين الإسلامي ، بما اشتمل على عقائد وعمل وقول ـ والسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تعالى ، والأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تعَالَى ، وذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، والدَّاعِي فوق الصراط واعِظُ اللهِ في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وهذا ما يجده كلُّ مؤمن في قلبه إن هو أراد ارتكاب الحرام ، فيجد من قلبه من يقول له: لا تفعل ، حتى يجرِّىء نفسه بدافع الهَوى والشَّيطان فيرتكب الحرام ، حتى إذا تمادى في ذلك ولم يُبال بواعِظ إيمانه في قلبه: ضعُف إيمانه شيئاً فشيئاً ، وراح يرتكب الحرام دون تكلُّف ، ونسأل الله العافية.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاط كِتَابُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ» ولا يُؤخذ القرآن ولا تُفهم معانيه إلا

= (١/ ٧٣) وينظر (الترغيب) (٣/ ٢٠٢). =

عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي نزل عليه وبيَّنه الله له.

والقرآن الكريم قائِم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُتمثِّل به ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم القائِم على رأس الصِّراط ، يُنادي بالقرآن النازِل عليه ، ويأمر النَّاس أن يستقيموا على الصِّراط ولا يعوجوا.

وقد قال الله تعالى إخباراً عن أهل الإيمان: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] وهذا المُنادي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي دعا ونادى العالم بالقرآن النازل عليه ، والقرآن كلُّه متحقِّق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، عقيدة وقولاً ، وعملاً وخُلُقاً وأدباً ، ولا يُؤخذ القرآن إلا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ وهو القرآن ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الآية [الطلاق: ١٠ ـ ١١] فقرَن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، لأنَّه نزل عليه ، وإليه دعا ويدعو صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن سار على الصراط المستقيم فليعلم أنَّ أمامه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فليتخذه إمامَه وليمشي وراءه، مُتَّبعاً له صلى الله عليه وآله وسلم ، واستح من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يُناديك من على رأس الصراط: «استقيموا ولا تعوجوا» وليكُن لك من إيمانك واعِظٌ يردعك عن الوقوع في الحرام.

ومن لم يكن له من نفسه واعظٌ لا تنفعه المواعظ. أي: لأن المواعظ القرآنية والنبوية ترد إلى القلب، وتُقَوِّي الواعظ الإيمانيّ فيه فيتَّعظ المؤمن.

أمّا إذا كان واعِظ الإيمان في قلبه ضعيفاً؛ أو قد تلاشى بسبب إصرار العبد على المعاصي؛ فلا تؤثِّر عندئذٍ المواعظُ فيه، وليس لها في قلبه قابلٌ.

ومن وجد في نفسه عدم تأثُّر بالمواعِظ فليرجع إلى نفسه، وليحاسبها، وليُبادِر إلى التَّوبة إلى الله تعالى، وفعل الصَّالحات، حتى يَلين قلبه ويحيا الواعِظ الإيماني في قلبه.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: المُتفرِّعة عن جوانب هذا الصراط ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] أي: فتخرجوا عن الصراط وتضلُّوا.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: أن هذه هي قضية عيسى ابن مريم عليه السلام، رسول من الله تعالى، وعبد له، آتاه الله الكتاب، ودعا إلى عبادة الله، وإلى توحيد الله، ودعا إلى لا إلّه إلا الله، وبشَّر بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بعد ذلك اختلف فيه الأحزاب من النصارى، فمنهم من يقول: إن عيسى كان ابن الله، وآخر يقول: إن عيسى إلّه، وآخر يقول: إن عيسى ثالث ثلاثة، وهم الله ومريم وعيسى، وهذا قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: كلٌّ تحزَّب وادَّعى دعوى لا دليل لها، فضلُّوا وكفروا، ولم يؤمنوا بالله ولا بعيسى على الحقيقة، إذ أعطَوه مقام الألوهية أو ابن الله، فكفروا بالله وكفروا بعيسى،

وذلك لأنَّ الله واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ، وكفروا بعيسى إذ لم يعتقدوا أنَّه عبد الله ورسوله ، بل اتَّخذوه إلَهاً ، مع أنَّه قال لهم كما أخبر سبحانه : ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف : ٦] وقال : ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة : ١١٧].

ولذلك قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي : وهم الأحزاب الذين اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام ، وقالوا فيه ما قالوا.

قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي : من مشاهدة يوم عظيم يشاهدونه من أهوال الآخرة ، وذلك لمَّا يظهر الحق ، ويتبيَّن لهم أن عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله ، وأنَّه عليه السلام سيعلن براءته مما قالوا فيه.

قوله تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي : ما أشدَّ سمعهم ، وما أقوى بصرهم يوم يأتون ربَّهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

وذلك لأنَّ نشأة الإنسان في الآخرة تختلف عن نشأته في الدنيا ، قال الله تعالى : ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة : ٦١ ـ ٦٢].

فيُنشىء الله تعالى عباده نشأة أخرى ، في الجسم والحواس والمدارك والإحساس ، ويُعطون قوَّة في أسماعهم وأبصارهم ومداركهم ، فأمَّا أهل النار ـ نسأل الله العافية ـ فهم يُعطَون ذلك ليزدادَ تحسُّسهم بالعذاب الأليم ، وليشاهدوا ويسمعوا أهوال الآخرة والعذاب من جهنم.

وأمَّا أهل الجنَّة ـ نسأل الله أن يجعلنا منهم ـ فيُعطَون قوَّة في السمع والبصر والمدارك ، ليزداد نعيمهم وشعورهم بلذَّة

ما يشاهدون ويسمعون من ألوان النَّعيم في الجنة.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد[1] عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ في مُلْكِهِ أَلْفَيْ سَنَةٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ، يَنْظُرُ في أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ، وإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ في وَجْهِ الله تعالى كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ».

أي: أنَّه يشاهد ذلك، ولا فرق عنده بين القريب والبعيد، إذ يراهما على حدٍّ سواء ليتنعَّم بذلك.

وقد روى مسلم في صحيحه[2]، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ضِرْسُ الْكَافِرِ ـ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ ـ مِثْلُ أُحُدٍ، وغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ» إذاً فما أعظم ضخامة جسمه!!

نعم هذا حتى يذوق العذاب الشديد ويتحمَّله جسمه.

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكافرون ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ضلال بيِّن واضح

وأيُّ ضلال أعظم من ضلال من اعتقد أنَّ عيسى الذي كان يأكل ويشرب وينام يعتقد أنَّه إلَه، فلو كان إلَهاً لأغنى نفسه عن الطعام والشَّراب، وما هنالك؟!!

---

(١) (المسند) (٢/ ١٣).

(٢) في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء / ٢٨٥١/ (٥/ ٢٧١٣).

وكيف بمن لا يَمْلك لنفسه شيئاً؛ يملك خلق غيره وإمداد غيره؟!!

وقد أشار إلى هذا المعنى سبحانه بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] أي: ومن احتاج لأكل الطَّعام احتاج إلى شُرب الماء، ومن أكل وشرب احتاج إلى دُخول الخَلاء لإخراج الفَضَلات، فكيف يَتَصَوَّر العقل إلّهاً هذا شأنه؟!!

قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: كيف نُبين لهم الآيات الدالة على أن عيسى عليه السلام عَبْدُ الله ورسوله، وأَنَّ أمه امرأة صِدِّيْقَةٌ، وليسا بإلّهين ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥] أي: أين يصرفون عقولهم وأفكارهم بعد هذا البيان؟!

ولذلك أخبر سبحانه أنهم في ضلال مبين حقّاً.

أما الله تعالى فهو ربُّ العالمين، وهو غنيٌّ عن العالمين. أي: من بعدما خلق العالمين فهو غني عنهم، ولم يخلق العالمين لحاجة إليهم، فكما كان غنياً عنهم قبل أن يخلقهم؛ فهو غني عنهم بعد أن خلقهم، فافهم.

أما العالَمين فلا غنى لهم عن الله تعالى ولا للحظة، بل كلُّ العالم صامد إلى ربه، أي: قاصد ربه سبحانه، وهو الصمد. أي: المقصود في الحوائج كلها، والغني عما سواه.

فلذلك ليس هناك مُشابهة أو مُماثلة بين الخالِق والمخلوق.

وإنَّ أوَّل التَّوحيد والإيمان بالله تعالى، هو كما قال الإمام

الجنيد رضي الله عنه ، ـ لمَّا سُئِل عن التَّوحيد فقال ـ: تمييز الحادِث من القديم. أي: فلا تشابه بين الخالق القديم الذي لا أوَّل له ، وبين المخلوق الحادث الذي خلقه الله تعالى.

وهو سبحانه كما أخبر: ﴿ أَحَدٌ ۝١ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي: ولم يكن أحدٌ كفؤاً ولا شبيهاً ولا مثيلاً ولا عديلاً لله تعالى[١] ، فلا أحد يشبه الله تعالى ، لا في ذاته ولا في صفاته ، بل ولا في شيء من صفة من صفاته سبحانه.

وإذا كان سمع المخلوق وبصره مقيَّد بشروط ، ونِسَب وأبعاد ، ومساحات معينة في القُرب والبُعد ، فإنَّ سمع الله تعالى وبصرَه مُطلَق لا يتناهى ، وجميع المرئيَّات والمسموعات بالنِّسبة له على حدٍّ سواء؛ لأنَّها مُتناهية ، ونِسبة المُتناهي مهما كبُر أو صغُر إلى اللامُتناهي هي واحدة ، فافهم ، فلا فرق عليه سبحانه بين القريب والبعيد في السمع والبصر ، ولا بين الصغير والكبير.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أي: أنذر النَّاس يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واذكُر لهم يوم الحَسرة وخوِّفهم منه ، وهو يوم يتحسَّر فيه الكفَّار والعُصاة الذين لم يتوبوا من ذُنوبهم قبل موتهم.

ويوم الحسرة: هو يوم القيامة ، ويبدأ الدُّخول فيه من عالم القبر ، إذ تتوالى على الكافر والعاصي المُصر ولم يتب؛ تتوالى عليه الحَسَرات ، ويعتريه النَّدم الشديد لِمَا يُلاقيه من أهوال وويْلات.

---

(١) الكفو والكفؤ بمعنى واحد ، وهو المُماثِل والمُساوِي والمُشابِه.

فيتحسر الكافر عند موته على نفسه ، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا لكي يؤمن ويعمل صالحاً ، وكذلك يتحسر المؤمن المانع للزكاة أو المرتكب للكبائر ولم يتب منها ، وتتوالى عليه الحسرات في برازخ الآخرة؛ إلى أن يصير أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، فهناك يجد الكفار في النار أعظم حسرة ، وذلك حين يُذبح الكبش الذي تَمَثّل الموت بصورته.

وقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية ، وذكر أعظم الحسرات على أهل النار ، فقد روى الشيخان وغيرهما[١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي مناد ـ أي: بأمر الله ـ يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ـ أي: إلى جانب المنادي ـ.

فَيَقُولُ: هلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟

فيَقُولُونَ: نَعَمْ ، هذا الْمَوْتُ. وكُلُّهُمْ قَدْ رآهُ.

ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ ـ أي: يرفعون أعناقهم ـ ويَنْظُرُونَ.

فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ. وكُلُّهُمْ قَدْ رآهُ.

فَيُذْبَحُ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْت ، ويَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلا مَوْت» ثُمَّ قَرأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) تقدم تخريجه ص/ ٨٣/ .

فلمَّا رأى أهل النار أن الموت قد ذُبح ومات ، وأنَّه قُضي عليهم بالبقاء والخلود في العذاب ، اعترتهم الحسرة الشَّديدة ، ولولا أنَّ الله قضى عليهم أن لا يموتوا لماتوا من شدة حسرتهم وندمهم ، لأنَّهم كانوا يظنون أن النَّار التي يحترقون فيها ستُميتهم ، فلمَّا علموا أنَّه لا موت أصابتهم الحسرة والخذلان ، ونسأل الله العافية.

وانظر إلى عجائب قُدرة الله تعالى ، أنَّ الموت الذي كان يُميت الخلائِق في الدُّنيا لا يموت؛ إلا لمَّا يَحيَا الخلائق الحياة الأبدية في الآخرة.

فمات الموت في عالم البقاء ولم يَمُتْ في عالم الفناء.

ونسأل الله تعالى الفوز بالجنَّة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة مريم

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: واذكر يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم للنَّاس في القرآن إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ، وذكِّرهم به.

وهذا الذِّكر على سبيل المَدْح والثَّناء ، وذِكر ما تفضَّل الله به على أنبيائه ورسله عليهم الصَّلاة والسَّلام ، والمُقربين من عباده ، وهذا من باب قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأعظم من ذَكَر الله تعالى من عباده ، وحمده ، وأثنى عليه ، وَعَبَدَهُ ، هم الأنبياء والرُّسل صلوات الله عليهم أجمعين.

ولذلك جاء ذِكر الله لهم في المَلأ الأعلى ، وفي الكُتب الإلَهية كلِّها ، وفي القرآن الكريم ، فقد ذَكَرهم سبحانه وتعالى بالمدح والثَّناء ، وذَكَر فَضْله عليهم ، وما خصَّهم به من مقامات وكرامات.

أمَّا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو سيد العِباد والعُبَّاد ، وهو أعظم وأكثر خلق الله ذِكراً لله تعالى.

وقد وصَفَه الله تعالى بأنَّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أي: كثير المحمودية في الملأ الأعلى والأدنى.

ووصفه بأنه أحمد الحامدين لربِّ العالمين، ولذلك رفع الله ذِكره فوق كلِّ مذكور مِنْ خَلْقه فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وقد جاء بيان ذلك الرَّفع في الحديث القدسي: «لا أُذكر إلا وذكرت معي»[1] صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ في الكتاب أي: في القرآن النازِل عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويُسمَّى كِتاباً من الكَتب وهو الجمع، باعتبار أنَّه جامِع لذكر كلِّ شيء، ويُسمَّى: قُرآناً لأنَّه يُقرأ.

أمَّا كلمة إبراهيم فهي عِبرانيَّة، ومعناها في العربية: أبٌ رحيم، ولقد مَدَح الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام في الملأ الأعلى، وأنزل مدحه في كُتبه جلَّ وعلا، وأمر حبيبه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكُر إبراهيم عليه السلام على طريق المَدح والثَّناء.

وليس ذِكر الذَّاكرين على حدٍّ سواء في حضور القلب لدى الذِّكر، أو مُلاحظة المعاني، أو مشاهدة الأنوار والأسرار، وهذا يختلف باختلاف الذَّاكِر، وقوَّة إيمانه ومقامه عند الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ

(١) انظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٩]. أي: هذا ذكرنا لعِبادنا الذين ذكَرُونا.

وقد ذكر سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وامتدحه وأثنى عليه في الكُتُب السَّابقة، وذَكَره بصِفات الكَمَال والجَمَال، وذكَر أصحابه أيضاً رضوان الله عليهم، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ أي: هذا وصْفُهم الذي ذكَرَهم الله به في التَّوراة النَّازِلة على موسى عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي: ووَصْفهم في الإنجيل النَّازِل على عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى في ذكره لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التَّوراة والإنجيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ﴾ أي: أُنزل عليه وهو معه، لا يُبتغى من غيره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. اللهمَّ اجعلنا منهم.

واعلم أنَّ مقام الصَّحابة وفضلَهم لا يُنال بكثرة عمل وعبادة، لأنَّهم ما نالوا ذلك الفَضْل والشَّرف إلا لمَّا صحِبوا خير خلق الله تعالى صلى الله عليه وآله وسلم، واستناروا بأنواره، وعَلَا شأنُهم

عند الله تعالى بفضل نظراته وبركاته وفيوضاته عليهم صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ جاهدوا معه ، وفتحوا البِلاد وسادوا العِباد ، ونشروا دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا يُنال مقام الصُّحبة إلا بالصحبة ، فلو أنَّك صاحبت أحداً كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الفضل والمقام لنِلت مقام الصُّحبة ولكن أنَّى لك ذلك؟؟!!!.

إذ إنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أكرم الأوَّلين والآخرين على ربِّ العالمين ، وهو خير خَلْق الله وأفضلهم على الإطلاق ، وهو سيد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، ولا نبي بعده ، وختَمَ الله به النُّبوَّات وختَمها به ، ولم يبق بعدَه من النُّبوة إلا المُبشِّرات ، وهي الرُّؤيا الصَّالحة يَرَاها المُؤمن؛ أو تُرى له، كما بيَّن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم(١) .

وقد بَلَغ مِن فَضْل الصَّحابة عند الله تعالى أن جَعَل حبَّهم علامة على صدق الإيمان في قلب المؤمن ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «آيَةُ الإيمانِ حُبُّ الأَنْصارِ ، وآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ»(٢) .

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ .

الصِّدِّيق: هو المُصدِّق تصديقاً كاملاً لِمَا جاء عن الله تعالى ،

---

(١) كما في (صحيح) ، مسلم ، كتاب الصلاة ، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع /٤٧٩/ (٢/ ٦٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب علامة الإيمان حب الأنصار /١٧/ (١/ ٦٢) ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن حب الأنصار. . . /٧٤/ (١/ ٢٢١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

بقلبه وعمله وقوله ، وهو من صِيغَ المُبالغة ، ليدُلَّ على كَثْرة التَّصديق وقوَّته.

وشأن الصِّديق التَّصديق لِمَا جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم بلا توقُّف أو تَلَعْثُم.

والصِّدِّيقيَّة على مراتب ومقامات ، فهناك صِدِّيقية الأنبياء ، وهي على مراتب أيضاً ، وهناك صديقية المُقربين وهكذا. . .

كما أن الشهداء على مراتب ، فليس شهداء بدر وأحد كغيرهم من الشهداء وهكذا.

وليس شهيد الآخرة وهو من مات بِغَرق أو حرق أو سقط[(١)] من دابته ، ليس هذا كغيره من الشهداء الذين قُتلوا في المعارك لإعلاء كلمة الله تعالى، ونشر دين الله تعالى، وتصديق الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي: صديقاً بالصديقية النبوية. وهو نبي أيضاً ، وقد ذكر سبحانه ذلك على وجه التَّرقي في المقام.

وكلمة نبي مأخوذة من النَّبأ وهو الخبر ، نَبِيْءٌ على وزن فعيل ، ويستوي فيها الفاعل والمفعول ، فالنبي مُخبَر من جانب الله تعالى بالوحي الإلَهي إليه ، وهو مُخبِر عن الله تعالى ما أمره بتبليغه.

---

(١) روى البخاري في كتاب الأذان ، باب فضل التهجير إلى الظهر /٦٥٣/ (٢/١٣٩) ومسلم في كتاب الإمارة ، باب بيان الشهداء /١٩١٤/(٤/١٩٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الشهداء خمسة: المطعون ، والمبطون ، والغَرِقُ ، وصاحب الهدم ، والشهيد في سبيل الله».

والنُّبوة باب فتح ربَّاني لمن أراد الله تشريفه بالنُّبوة ، إذ تتوارد عليه العلوم والمعارف الإلَهية ، والإخبارات الغيبية ، وتنكشِف له العوالم والمُغيَّبات على حسب ما أراد الله أن يُطلِعه عليها.

كلُّ ذلك يناله النَّبي في مدَّة يعجز الزَّمان عن تحديدها ، وهذا ما تدل عليه كلمة الوحي ، الذي هو: الإعلام الخَفي على وجه السُّرعة.

وهناك من العُلوم والأمور التي يَختصُّ بعلِمها النَّبي ، ولا يُؤمر بتبليغها للنَّاس ، وهناك أمور يأمره الله بتبليغها.

أمَّا النَّبيُّ الذي أوحى الله إليه شرعاً ليُبلِّغه للنَّاس فهو نبي رسول ـ أي: صاحب رسالة ـ فهو مأمور أن يبلِّغها للنَّاس على وجه الكَمال، ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: من القرآن الكريم والشريعة التي أمره الله تعالى بتبليغها.

وإنَّ طُرق إنباء الله تعالى لأنبيائه ورُسله ، وإخباره لهم عن العلوم والمُغيَّبات كثيرة ، لا يُدركها إلا النبي ، فقد يُريهم الله تعالى طائِراً في السَّماء يُنبِئهم الله تعالى بسببه عن إخبارات ومُغيَّبات يفهمونها من طَيران هذا الطائِر ، وقد تَلُوح لهم سَحابة في السَّماء يُخبِرهم الله بسببها عن أمور وأمور لا يعلمها غيرهم.

فطُرق وحي الله تعالى العلومَ والإخباراتِ إلى أنبيائه لا يُحيط بها إلا الله تعالى.

ومن ذلك أنَّه تعالى يُوحي إليهم بطريق الرُّؤيا المَناميَّة ، كما

أوحى إلى الخليل عليه الصَّلاة والسَّلام أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام.

أمَّا غير الأنبياء فتحتاج رؤيا أحدهم إلى تعبير ليفهم مرمَاها ، وميزان فَهْم الرُّؤيا وتعبيرها هو ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الشَّريعة ، ولا يُمكن لأحدٍ أن يُحيط فَهْمَاً بتعبير رُؤيا إلا نبي.

ومن هذا ما جاء في (صحيح) البخاري[(١)] ، أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كانَ يُحَدِّثُ ، أنَّ رَجُلاً أَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فقالَ: إنِّي رأَيْتُ اللَّيْلَةَ فِي الْمنَامِ ظُلَّةً تَنْطِفُ السَّمْنَ والْعَسَلَ ، فأَرَى النَّاسَ يَتكَفَّفُونَ مِنْهَا ، فالْمُسْتكْثِرُ والمُسْتَقِلُّ ، وإذَا سَبَبٌ وَاصِلٌ مِنَ الأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ ، فأَرَاكَ أَخَذْتَ بِهِ فَعَلَوْتَ ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلا بِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخرُ فَعَلاَ بِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخرُ فانْقَطَعَ ، ثُمَّ وُصِلَ.

فقالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي الله عنه: يا رسولَ اللهِ ، بأَبِي أَنْتَ واللهِ لتَدَعنِّي فأعْبُرَهَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «اعْبُرْهَا».

قالَ: أمَّا الظُّلَّةُ فالإِسْلاَمُ.

وأمَّا الَّذي يَنْطُفُ مِنَ الْعَسَلِ والسَّمْنِ فالْقُرْآنُ ، حَلاوَتُهُ تَنْطُفُ ، فالْمُسْتَكْثِرُ مِنَ الْقُرْآنِ والْمُسْتَقِلُّ.

---

(١) كتاب التعبير ، باب من لم يَر الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب /٧٠٤٦/ (٤٣١/١٢) و(صحيح) مسلم ، كتاب الرؤيا باب تأويل الرؤيا /٢٢٦٩/ (٢٢٩٩/٥).

وأمَّا السَّبَبُ الْوَاصِلُ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ فالحَق الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ ، تأْخُذُ بهِ فيُعْلِيكَ اللهُ ، ثُمَّ يأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَيَعْلُو بِهِ ، ثُمَّ يأْخُذُ بِهِ رَجلٌ آخَرُ فيَعْلُو بِهِ ، ثُمَّ يأْخُذُهُ رَجُلٌ آخرُ فَيَنْقَطِعُ بِهِ ، ثُمَّ يُوَصَّلُ لَهُ فَيَعْلُو بِهِ. فأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللهِ بأَبي أَنْتَ أَصَبْتُ أَمْ أَخْطَأْتُ؟.

قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أَصَبْتَ بَعْضاً وأَخْطَأْتَ بَعْضاً».

قالَ: فوالله يا رَسُولَ اللهِ لَتُحَدِّثَنِّي بالَّذي أَخْطَأْتُ.

قالَ: «لا تُقْسِمْ».

مع أنه أبو بكر شيخ الصديقين رضي الله عنه ، فما بالك بغيره؟!

نعم قد يصيب وقد يخطىء ، ولا يحيط علماً بتعبير رؤى المنام إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وإن أعظم الأنبياء والرسل نبوة ورسالة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي كان أول الأنبياء خَلْقاً ونبوة في عالم الأرواح ، وخاتم الأنبياء والرسل نبوة في عالم الأجساد ، فبه فتح الله النُّبوت ، وله جُمعت ، وبه خُتمت صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي: قال ذلك لأبيه على طريق النصح ولين الكلام.

والمراد من أبيه في الآيات عمُّه واسمه آزر ، وكان خطاب إبراهيم عليه السلام موجهاً إليه ، لأنه كان زعيم عشيرته ، وله مكانته في قومه.

وقد يُطلق الأب ويُراد منه الوالد[١] أو العم.

كما قد تطلق الأم ويراد منها الوالدة أو الخالة، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «الخالة بمنزلة أم»[٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] مع أن إسماعيل عليه السلام عم يعقوب عليه السلام، وأطلق عليه لفظ الأب.

أما والد إبراهيم عليه السلام ووالدته فهما مؤمنان به، وقد دعا لهما بالمغفرة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١].

والحقُّ أن العمود النَّسبي لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى آدم عليه السلام كلُّه عمود طاهر طَيّب، على توحيد الله تعالى، لم يتدنس بالكفر.

وأما عمُّه فقد وعده بالاستغفار له، ثم لمَّا تبيَّن له أنه سيموت على الكفر تبرأ منه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

فخاطب إبراهيم عليه الصلاة والسلام عمَّه آزر: كيف يعبد صنماً صنعه بيده ثم راح يعبده؟! وهو صنم لا يسمع ولا يبصر، ولا يملك الضر والنفع.

فكيف تعبد صنماً صنعته يداك، وهو بحاجة إلى أن تقيمه

(١) والوالد: هو الذي وَلَدَك أولاً، ثم ولدتك أمك وتسمى والدتك.
(٢) هذا طرف من الحديث الذي رواه البخاري في كتاب الصلح، باب كيف يكتب «هذا ما صالح...» /٢٦٩٩/ (٥/٣٠٤)، وأبو داود في كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد /٢٢٨٠/ (٢/٧١٠)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة /١٩٠٥/ (٦/١٦٢) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه.

وتسنده حتى لا يقع ويتحطَّم، هـذا يدل على أنـه لا علم عندك ولا عقل سليم.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ أي: أهدك إلى الله تعالى ربِّ العالمين، وهو إلٓهك الحق الذي يجب أن تعبده.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ وهذا هو العلم الحقيقي الذي لا يقبل الشَّك والرَّيب، وهو النبوة والرسالة.

وإذا كان العلم بالشيء على مراتب في القوة والقطع، أوّلها: علم غلبة الظن، ثم علم اليقين المتوقف على خبر صادق عَدْل، ثم علم عين اليقين الذي يحصل بمعاينة الشيء عياناً، ثم علم حق اليقين ويكون بتذوق الشيء بعد معاينته، فإنَّ علم النبوة والرسالة الذي نالته الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هو العلم الجازِم القاطع الذي فاق درجة حق اليقين في القوة والجزم.

وذلك لأن الله تعالى قد تولى نشأة الأنبياء عليهم السلام من صغرهم، وعناهم بعنايته، وربَّاهم بتربيته الخاصة، ثم أذاقهم العلوم والمعارف بعد أن طيَّب مذاقهم وقوَّى مداركهم، وأمدَّ عقولهم وأجسامهم وأرواحهم.

وإن ذوق الأنبياء عليهم السلام هو مقياس الأذواق كلها، وأعظمهم ذوقاً وخُلقاً ونشأة وأدباً وخِصالاً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جعل الله تعالى من سيرته وأحاديثه ميزاناً للمفاهيم والأذواق والعادات ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ ﴾ [الشورى: ١٧] أي: وأنزل الميزان بالحق، وهو الحكمة النبوية التي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] فأقواله وأفعاله وتقريراته وعاداته صلى الله عليه وآله وسلم هي ميزان أهل الإيمان والكمال.

فالآداب المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم هي ميزان الآداب، وأخلاقه العظيمة صلى الله عليه وآله وسلم هي ميزان الأخلاق، وذوقه صلى الله عليه وآله وسلم هو ميزان الأذواق.

فارجع في أمورك كلِّها أيُّها العاقل إلى الميزان المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم، وزِنها بميزانه صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تعلم خيرها من شرها، ونفعها من ضرها، وصلاحها من فسادها وهكذا...

والميزان هو: ما تُوزن به الأمور، فيعرف خطؤها من صوابها، وقد جُعل الميزان المعروف بكفتيه ليوصل الحق إلى صاحبه على تمامه، والعقل ميزان تزن به الأمور لتزن ضررها من نفعها، لكن العقول متفاوتة في التعقل والتَّدبر، فتختلف فيما بينها لمعرفة الحق والصواب.

فلابُدَّ إذاً من ميزان كامل ترجع النَّاس كلُّهم إليه لتزن عقولها وأفكارها، وآراءها، وأقوالها، وأفعالها وأخلاقها.

وما هذا إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي أنزل الله تعالى عليه الكتاب والميزان، وعصمه عن الخطأ والخطيئة، وجعل شرعه باقياً مستمراً إلى يوم الدين، وصالحاً ومُصْلِحَاً لكلِّ أمَّة إلى يوم الدين، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد رب العالمين.

❊ ❊ ❊

درس حول قصة
سيدنا إبراهيم عليه السلام
مع أبيه وقومه
(تلازم العِلم بالعمل)

قال الله تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

فلقد أمر الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكُر إبراهيم عليه الصلاة والسلام. أي: أنْ يذكره بالمدح والثناء.

وقد تقدم أنَّ الله تعالى يُثني على أنبيائه ورسله، وأوليائه وذاكريه، لأنه سبحانه يَذْكُر من يَذْكُره.

وإنَّ أعظم مَنْ ذكر الله تعالى هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وأعظمهم ذكراً لله ومدحاً وحمداً له ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد رفع الله تعالى ذِكرَه فوق كل مَذْكُور ، حتى قال سبحانه: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ وفي الحديث القدسي: «لا أُذكر إلا ذُكرت معي»[(١)].

ولقد ذَكَرَ الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالمدح والثناء ، وأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكره.

وإنَّ للمُفسرين قولين في المراد مِنْ أبِ إبراهيم عليه السلام: هل هو والده أم هو عمُّه؟.

والتحقيق في المسألة: أنه عمُّه ، وقد يُطلق الأب ويُراد منه العم كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وإنَّ إسماعيلَ هو عمٌّ يعقوب عليهما السلام ، وأما الوالد فلا يُطْلَق إلا على الذي وَلَدَك.

ولقد جاء خطابُ إبراهيم عليه السلام لأبيه على سبيل الوصية والنصيحة ، والرقة في الخطاب ، دل عليه قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ في كل خطاب ، مع بيان الحجة أن هذه الأصنام لا تُعْبد.

وإن حال الذي يَعبد الأصنام كحال الضال الواقع في الظلمة ، ويحتاج إلى من يأخذ بيده ويهديه ، ولذلك قال له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ أي: قد جاءني

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى أبي نعيم في (الدلائل).

علم من الله تعالى فيه معرفة حقائق الأمور ، والهداية إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ومراده العلم النبوي النازل عليه بوحي الله تعالى ، ولابد من النور للهداية إلى معرفة الأمور ، والنور لا يأتي إلا بالعلم الصحيح .

وإنَّ أعظم من نال العلوم النبوية الإلّهية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء لجميع العالمين ، هَادياً ومُرشداً ، وسِراجاً مُنيراً ، ومع ذلك أمره سبحانه الاستزادة من العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أي: علماً بك ، وبأسمائك وكمالاتك ، وما يُقَرِّبُنِي إليك .

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ﴾ أي: لأن العلم فيه نور، ومن مشىٰ وراء النور اهتدى، ومنه قول الشافعي رضي الله عنه:

شَكَوْتُ إلى وَكيع(١) سوءَ حفظي ... فأرشَدَني إلى تركِ المَعَاصي
وأخبَرَني بأنَّ العِلْمَ نورٌ ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

واعلم أنَّ العلم الصحيح يستلزم منك أن تمضي في العمل الصحيح ، لأن العلم نور ، وإن حصولك على النور يتطلب منك أن تمشي وراءه. أي: بالعمل ، وأما أن تحصل على النور ولا تمشي وراءه؛ بل تمشي إلى جانب آخر فأنت جاهل ، ولذلك فإن العلماء الذين مدحهم القرآن ، ومدحهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم أهل العمل والخشية من الله تعالى .

وإذا كنت مؤمناً مصدقاً بأن ما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التذكير والوعظ بأنه نافع؛ فعليك

---

(١) وكيع رضي الله عنه أحد شيوخ الإمام الشافعي رحمه الله ورضي عنه .

بالعمل بمقتضى تذكير الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ووعظه لك ، وإلا فإنَّ إيمانك فيه نَقْص ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] فإذا كنت من المؤمنين المصدقين انتفعت بالتذكير والموعظة ، وإلا فأنت من المُرتابين المُضَّطربين. عِياذاً بالله تعالى من ذلك.

وتبصَّر في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] مع أن الإيقان لا يتأتى إلا بالمُعَاينة ، نَعم فَهُم من شدةِ إيمانهم ويقينهم بالآخرة صاروا كأنَّهم يشاهدونها بالعيان ، وصاروا على يقين بحقيقتها أشد من يقين أحدهم بالنهار إذا كان يعاين شمسَ الضُّحى ويبصِر أنوارها ، ولو اجتمع أهل الأرض كلُّهم ليُقْنِعُوه أنَّ الوقت ليل وليس نهاراً لأعرض عنهم ، واستمر في إيمانه ويقينه. اللهمَّ اجعلنا من أهل اليقين.

وقد قال السَّلف رضي الله عنهم: العلم هو الخشية من الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] اللهمَّ اجعلنا منهم.

قوله: ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مُستقيماً تنالُ به سعادة الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: بل فاعبد الله تعالى على مُوْجب ما أُعلِّمُك مما جاءني من العلم.

وقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ، اعلم أنَّ العبادة هي غاية الخُضوع والامتثال ، على طريق التَّذَلُّل والإذعان الكُلي ، وهذا لا يكونُ إلا لله وحده ، أما مَنْ تبع الشيطان فيما يُزَيِّنه له فقد عبده بطاعته وامتثاله لأمر الشيطان.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ أي: فهو عاصٍ لله تعالى ، فمَن تبِعَه فقد وقع في معصية الله أيضاً ، وقد عصى الشيطانُ ربَّه لمَّا أمره سبحانه بالسجود لآدم عليه السلام ، وامتنع وخالف أمر الله تعالى ، مُعْتَرِضاً على حِكْمته سبحانه ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١٢].

فجاء الأمر إلى الملائكة بالسجود ، وجاء الأمر إلى إبليس خاصَّة بالسجود ، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ فعصى وخالف أمر الله تعالى.

وإنَّ تخلُّف الشيطان عن السجود هو تخلُّفُ من لا يعتقد بالأمر الإلَهي له ، ولذلك كفر ، وهذا شأن كلِّ من ترك أمراً شرعياً مُسْتَحِلاً له ، أي: لا يعتقد فرضيَّته إذا كان هذا الأمر فرضاً ، ويفسق من ترك الأمر تكاسلاً ، وهو يعتقد فرضيته أو وجوبه.

وقد اعترض إبليس على ربِّ العالمين ، ولم يؤمن بالأمر الذي أُمِرَ به وهو السجود لآدم عليه السلام ، فراح يقول كما أخبر سبحانه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ الآية [الإسراء: ٦٢] ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ الآية [الإسراء: ٦١]. ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ الآية [ص: ٧٦].

فهو بذلك أنكر أصل الأمر ، وكأنَّه قال: يا رب هذا الأمر منك غير صحيح ، ومن هنا كان ذلك سبباً لكفره وطرده.

وإن كل من كفر من الجن يقال عنه: شيطان ، وأول من كفر من الجن هو إبليس ، وليس هو أول الجن خَلْقاً لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ الآية [الكهف: ٥٠] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ الآية [الحجر: ٢٧].

والجانّ اسم لأبي الجن؛ وأولهم خلقاً، ويقال أيضاً على كل كافر من الإنس، مُتَمَرِّد على أمر الله تعالى، يقال عنه: شيطان لقوله تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وإنّ من تبع شيئاً ساقه إلى ما اتصف به هذا الشيء من الفضائل أو الرذائل، فمَنْ تبع إبليس ساقه إلى النجاسات والرذائل، ومن اتبع الطيبين ساقوه إلى الخير والرَّشاد والفلاح.

ولا أطيب ولا أطهر، ولا أزكى ولا خَير من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بل هو مصدر الطِّيب والنَّقاء والخير كله، فمن اتَّبعه وعمل بهديه أفلح وفاز بالجنة، قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي: إن اتَّبعت الشيطان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ أي: قريناً له، قريباً منه، لأنَّه مَن قارن الشيطان في الدنيا وقاربه كان قرينه في جهنم؛ وبئس القرين.

وقوله: ﴿وَلِيًّا﴾ أي: قريباً منه، من الوَلْي وهو القُرب، كما تقول: فلان يلي فلاناً أي: يقرب منه.

وأما أولياء الرحمن فهم المقربون منه سبحانه، الذين قرَّبهم وتقرَّبوا إليه، ومِنْ هنا تفهم معنى كلمة وَلِيِّ الله، فهي مشتقة من الوَلي. أي: القرب، فوَلِيّ على وزن فعيل، وله معنى الفاعل والمفعول، فهو متقرب إلى الله بعمله، والله تعالى يُقرِّبه إليه

بفضله وكرامته ورحمته ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١].

والقرب على مراتب: فهناك القرب الخاص بالأنبياء والمرسلين، وهو على مراتب أيضاً كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقوله سبحانه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] وهم الملأ الأعلى، وأعظمهم وأقربهم إلى الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال: «اللهم الرَّفِيْق الأعلى»[١] ومِنْ دعائه قبل النوم صلى الله عليه وآله وسلم: «واجعَلْنِي في النَّديِّ الأعلى» الحديث[٢].

كما أن كلمة وَلي مشتقة من الوَلاء وهو الحب، فولي الله يحب الله والله يحبه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية [المائدة: ٥٤] وفيه معنى النُّصرة، والولي ينصر دين الله والله ينصره وهكذا..

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي: بعدما قدَّم إبراهيمُ عليه السلام لأبيه النُّصح والكلام اللين، الذي فيه الحجة والبرهان، والبيان لمَا هو عليه، راح أبوه يقابله بالغِلظة والفَظاظة ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أتعدِل أنت يا إبراهيمُ عن عبادة آلهتي؟! ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾، وهذا لأنّ الغِلظة والفظاظة، والعِناد والتَّكَبُّر والتَّجَبُّر،

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل السيدة عائشة رضي الله عنها /٢٤٤٤/ (٥/٢٤٢٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول عند النوم /٥٠٥٤/ (٥/٣٠٢) ونصه: «بسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسىء شيطاني، وفكَّ رهاني، واجعلني في النَّدِيِّ الأعلى» النَّدِيِّ الأعلى: الملأ الأعلى من الملائكة (خطابي).

صفات من توابع الكفر ، أما أهل الإيمان فسِمتهم الرقة واللين واللطافة ، وأعظمهم الرسل عليهم السلام ، فهم ألطف خلق الله تعالى ، وأعطف خلق الله تعالى ، وأرأف خلق الله تعالى .

وقوله : ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي : بالحجارة ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ أي : ابعد عني ، واتركني الدّهر كله ، ومنه المَلوان . أي : الزمان بما في ذلك الليل والنهار .

قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

والسَّلام على نوعين : سلام التحية والمقصود منها التكريم ، ويكون عند اللقاء أو الفِراق .

وهناك سلام المتاركة والتوديع ، وهو للهجر والابتعاد عن مَنْ تطاول عليك أو قابلك بالجهل والأذى ، فتقول له : سلام عليك ، أي : أنا لا أقابلك بما تقابلني به من الجهالة ؛ بل أنت مني في سلام ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أي : عما يقول المشركون من سب وشتم وإيذاء لك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ [الزخرف : ٨٩] أي : أنا لا أقابلكم بما تقابلُونني بل أنتم مني في سلام .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وفي هذا نهيٌ عن مقابلة السَّفيه أو الجاهل بسفاهته أو جهالته كما هو يفعل ، بل يجب الإعراض عنه وتركه .

وقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ ففي بيان نوعيَّة هذا السلام للعلماء قولان:

فمنهم من قال: هو للمُتاركة والتوديع أي: أنا أتركك ولا أقابلك إلا بالسلام والأمان.

وقال بعضهم: هو سلام التحية والتكريم؛ بدليل قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ وهذا إكرامٌ من إبراهيم عليه السلام لأبيه بأن يستغفرَ له.

وبناء على أنه سلام التحية جوّز العلماء السلام على الكافر، وقال بعضهم: لا يجوز بدء السلام على الكافر، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أَضْيَقِه»[(١)]، واستدلوا به على النهي بالبدء بالسلام على اليهود والنصارى إلا إذا هم بدؤوا السلام فالإجابة تكون بلفظة: وعليكم.

ومن العلماء مَنْ جوّز البدء بالسلام على اليهود والنصارى، لِمَا رُوِيَ عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه مرَّ على مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين واليهود والمشركين؛ فسلَّم عليهم ولم يُخصص المسلمين بالسلام[(٢)].

---

(١) الحديث في (صحيح) مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم/ ٢١٦٧/ (٥/ ٢٢١٣)، و(سنن) أبي داود، كتاب الأدب، باب السلام على أهل الذمة/ ٥٢٠٥/ (٥/ ٣٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين/ ٦٢٥٤/ (١٠/ ٣٨) ومسلم في الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على أذى المنافقين/ ١٧٩٨/ (٤/ ١٨٩٤) عن سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

ومن العلماء من توسَّط في الأمر منهم عبد الله بن مسعود والنَّخَعِي وسُفيان بن عُيَيْنَة وغيرهم رضي الله عنهم.

فلقد صحب نصراني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في سفر فكان إذا قابله سلَّم عليه ـ أي: بدأ السلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ فقيل له: كيف تبدأ السلام؟ قال: لصحبة السفر، وعليه قالوا: يجوز أن تبدأ السلام على من كان بينك وبينه صحبة سفر، أو شراكة عمل، أو مجاورة منزل، وهكذا... ولا يجوز أن تبدأ السلام على من لا علاقة بينك وبينه.

وقالوا: شيئان:

١ ـ يجوز السلام على من كان لك عنده غرض ـ أي: من الكفار ـ لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨] أي: أن تبروهم بالقول، وتقسطوا إليهم بالفعل.

٢ ـ كما يجوز لك أن تبدأ بالسلام على الكافر الذي يُخشَىٰ ضَرَره إنْ أنت لم تبدأه بالسلام.

واستدل بعض العلماء على جواز بدء السلام على الكافر مطلقاً كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وقد قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

ورضي الله تعالى عن علماء السَّلف أجمعين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول قصة
سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام
مع أبيه آزر

قال الله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

تقدَّم الكلام على أنَّ المراد من أب إبراهيم عليه السلام في الآية عمُّه، وأنه عليه السلام لم يُقابله بالغِلظة والفظاظة، لأنه عليه السلام كان حليماً كما وصفه الله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ قد يُطلق السَّلام على سلام المتاركة والتوديع، وقد يطلق على سلام التحية والتكريم: عند اللقاء أو المُفَارقة..

وينبغي على كل مُسلم أن يسلِّم على كل مسلم؛ عند لقائه، أو مفارقته إذا كان في مجلس، إلا على من كان مشغولاً بعبادة كقراءة

قرآن ، أو صلاة ، أو درس علم شرعي ، والقاعدة عند الفقهاء : أن المَشغول لا يُشغل.

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وآله وسلم : «تقرأُ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» وذلك لمَّا سأله صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ بقوله : أيُّ الإسلام خير؟ أي : أيُّ أعمال الإسلام أكثر بِرّاً ونفعاً؟ .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «تُطْعِمُ الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[١] يعني : من المسلمين ، وذلك لأن السلام من حقوق الإسلام ، ولا يقتصر على ذَوِي المعرفة فقط ، ومن علامات السَّاعة اقتصار السلام على ذوي المعرفة من الإنسان فقط ، كما جاء ذلك في تحذيره صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك.

وإنَّ السلام عند اللقاء أساسه التكريم ، وكذلك عند الفراق تُسلِّم على القوم وتنصرف ، لئلا يكون حالك حال المهاجرين الغاضبين ، بل يجب أن يكون سلامك سلام المُكرمين لغيرهم عند اللقاء بهم أو مفارقتهم ، ويسمى سلام التحية ، والمقصود منه تكريم من تُسلِّم عليه.

وإنَّ البدء بالسلام سنة مؤكدة ، وَمَن تركها مرة فقد أساء ، ومن أصرَّ على تركها فهو آثم ، والإصرار على الإثم يُؤدي إلى الفسق.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب إطعام الطعام من الإسلام / ١٢/ (١/ ٥٥) ومسلم في كتاب الإيمان ، باب تفاضل الإسلام ، وأيّ أموره أفضل / ٣٩/ (١/ ١٨٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

أما رد السلام فهو واجب شرعي ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ ﴾ لقاء وحالاً وبشاشة ﴿ أَوۡ رُدُّوهَآۗ ﴾ [النساء : ٨٦].

ومن حيَّاك بالسلام فقد أكرمك ، فما عليك إلا أن تردَّ عليه بأحسن من سلامه ، لكي يكون إكرامك له أشد وأكبر ، سواء عند اللقاء أو الفراق.

أما سلام المتاركة والتوديع : فهو يعني الإعراض ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] وقوله سبحانه : ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٩] أي : فلا تقابلهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما يقابلونك به من الأذى والإساءة ﴿ وَقُلۡ سَلَٰمٌۚ ﴾ أي : أنَا لا أقابلكم كما تقابلونني ، بل أنتم من جانبي في سلام ومتاركة وَمُوَادعة.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] أي : فمن جهِل عليهم بقَالهِ أو فعلهِ ، أو تطاولَ عليهم أعرضوا عنه وقالوا له : نحن لا نُقابلكم بما تقابلوننا به ، بل أنتم مِنَّا في سلام ، وينصرفون عنهم ، ومن هذا قول القائل :

سلامٌ على الدُّنيا إذا لم يكُن بها
صديقٌ صدوقٌ يَصْدُق الوعدَ مُنصِفاً

ومعنى سلام على الدنيا : أي : ينبغي تركها وهجرها إذا خَلَت من الصديق الصادق المُنصِف ، الوفي بوعده وعهده ، لأن الصدقَ يعني الثبات وعدم الاضطراب.

وقد قالوا في تعريف الصديقِ الصادق:

إنَّ الصـديـقَ الحـقَّ مـن كـانَ معـكَ
وَمَـنْ يَضُـرُّ نفسَـه لِيَنْفَعَـكَ
وَمَـنْ إذا رَيْـبُ الـزَّمـانِ صَـدَّعـكَ
شتَّـتَ فيـه شَمْلَـه لِيَجْمَعَـك

وقد أثنى الله سبحانه على الصديق، وألحَقَه بالآباء والأبناء، والأعمام والأخوال فقال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] وقد ذكره الله سبحانه على وجه الإفراد لنُدْرَتِه.

أما قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ فهو سلام التوديع والترك، باعتبار أن أباه كان مشركاً.

وقال بعضهم: هو سلامُ التَّحيَّة على اعتبار أنَّه قال له: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] فلم يتركْه، بل وَعدَه أن يستغفر له.

وقد تقدَّم الكلامُ على أحكام السَّلام على الكافر مُفصَّلاً، وأكثر العلماء لم يُجوِّزوا ذلك، ومنهم من جوَّز ذلك كسُفيان بن عُيينة والنَّخعي وغيرهما؛ إذا كان لك عنده حاجة، أو كان بينكما

صُحبة ، أو جِوار ، أو اتقاء شره وضَرره؛ إذا عرفت أنك إذا لم تسلِّم عليه قد يُصيبك من ضرره وأذاه.

أما أن تبدأ كل مشرك أو كتابي بالسلام إذا لقيته في طريقك فهذا أمر لا يجوز فعله.

ومعنى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي: أطلب لك منه الهداية والتوفيق للإيمان حتى يغفر لك ، وإلا فلا يجوز طلب المغفرة للمُشرك مع بقائه على شِركه.

ولمّا أُصيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أذى قريش يوم أُحُدٍ ، سأله عمر رضي الله عنه أن يدعو عليهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لم أُبْعَث لعَّاناً ، إنَّما بُعثت رحمة»[1] «اللهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[2] أي: اهدهم للإيمان حتى تغفر لهم ، كما فسَّرَته رواية أخرى: «اللهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون»[3].

وقد سعى في ذلك سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن تبيَّن له أنَّه عدو لله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وقد تبيَّن لإبراهيم عليه السلام أنَّ أباه عدوٌّ لله ـ أي

---

(١) إلى هنا رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها / ٢٥٩٩/(٥/ ٢٥٣٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في (مجمع الزوائد) (٦/ ١١٧) معزواً للطبراني برجال الصحيح ، عن سهل ابن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) كما في حاشية الزرقاني على المواهب معزواً لرواية عن ابن إسحاق (٢/ ٤١).

كافر بالله ـ بأنْ أوحى الله إليه أنه لن يؤمن ، بل سيموت على الكفر ، فلا فائدة من دعائك له.

ومنهم من قال: إنَّ إبراهيم عليه السلام قد تبيَّن ذلك لمَّا مات أبوه على الكفر ، فلم يَعُد يستغفر له.

ولا يجوز الاستغفار لمن مات على الكفر لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] أمّا في حال حياته فيجوز الدعاء له بالهداية إلى الإيمان ، وأن يغفرَ له بعد أن يؤمن.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ يُقال في اللغة: حَفِي به إذا أكرَمه إكراماً خاصّاً ، يعني: أنَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام له من الله إكرامٌ خاص ، وله عند الله مَقامٌ له شأنه ، وقد عرَّفه الله بذلك فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: وقد حفَّني بحفاوته وكرامته وإفضاله ، فأنا أطلب منه كذا وكذا.

واعلم أنَّ أنبياء الله تعالى قد حفَّهم الله تعالى بحفاوته وعنايته من صِغرهم ، فقال الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يُنبَّأ ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وأعظم الرسل حفاوة من الله تعالى، وأعلاهم إكراماً وتفضيلاً ، وعناية من الصِّغر إلى ما هنالكَ ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي ربَّاه الله تعالى بعنايته ورعايته فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: آواكَ إليه ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

وقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَإِنَّكَ

بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: أنت في عَين العِنايـة الإلهيـة، ولا يمكن الوقوف على حدٍّ فهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقد اعتزلَ إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، والأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: وأنْ أعبـدَ ربي الذي خلقني وربَّـاني، فأنا أدعوه عبادةً وسؤالاً، لأن الدعاء قد يُطلق على العبادة، أو على الطَّلب والسؤال، وقد يشمل المعنيين أحياناً كما في الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي: أنتم تدعون وتعبدون الأصنام التي لا تسمع ولا تُجِيْب، ولا تضرُّ ولا تنفع، فأنتم خائبون خاسرونَ في دعائِكم لهـا، أمّا أنـا فأدعـو ربي الذي خلقني ويسمعني ويجيبني؛ عسى أن لا أكـون بدعـاء ربي شقيـاً مَحْرُومـاً بل هو يجيبني ويكرمُني.

ونظيرُ هذا قول سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] أي: ما عوَّدتني يا رب حين أدعوك إلا الإجابة والعَطاء، ولم أكن في دعائك فيما مضى مَحْروماً مَخْذُولاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

فهو عليه السلام لمَّا هَجَرَ قومه، ولجأ إلى عبادة ربه سبحانه، وسأله وطلب منه الولد بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: حتى أكون أنا في غنىً عن فلان وفلان من قومي، وحتى أستأنس بهم ويكونوا عَوناً لي.

فقوله: ﴿هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ذُرِّيَّة طيِّبةً صالِحَةً، وقد

كانت زوجه السيدة سارة عليها السلام مضت عليها مدة وهي لا تَلِد ، ولكنَّ الله تعالى أجاب دعاءه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ .

وهذا لمَّا مضى إبراهيمُ عليه السلام مع زوجه سارة عليها السلام ، مرَّ على أرضٍ فيها رجل جبار يَغْتَصِب النساء الحِسان ، فأرسل المَلِك في طلبها ، وقد حفظها الله تعالى لمَّا قام إبراهيم عليه السلام يصلي ، فأهداها ذلك الجبار جارية من عنده ، وهي السيدة هَاجَر عليها السلام .

فخرجت السيدة سارة عليها السلام ومعها السيدة هاجر عليها السلام ، ووهبتها لإبراهيم عليه السلام ، فحرَّرها وتزوجها ، فولدت له سيدنا إسماعيل عليه السلام .

ولما ولدت السيدة هاجر عليها السلام اشتدَّ الأمر على السيدة سارة عليها السلام ، فدعا سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يرزقها الله الولد ، وهذا بعد أن ترك هاجر عليها السلام مع ولدها إسماعيل عليه السلام : ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ورجع إلى الشام حيث ترك زوجه سارة عليها السلام ، وهنا رزقه الله تعالى إسحاق عليه السلام .

فلمَّا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ وهو إسماعيل عليه السلام ، ولمَّا ترك إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر ومعها إسماعيل عليهما السلام في وادٍ غير ذي زرعٍ سألَتْه : كيف تَتْرُكُنا؟!! .

فقال لها : إنَّ الله أمرني بذلك .

قالت : إذاً لا يُضَيِّعُنا .

وكان ما كان من عِمارة البيت، ونَبْع ماء زمزم من الأرض، ولله حِكَم في أوامره وأفعاله سبحانه وتعالى.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ويعقوب هو ابن إسحاق ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم وإسحاق ويعقوب خَيْرَاً في الدُّنيا والآخرة والنُّبُوَّة ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أي: وجعلنا لهم ثناءً ومدحاً بحقٍّ، يَعْلُونَ به على بقيَّة الناس، لأنَّهم كانوا صادقين مع الله تعالى في عبادته وطاعته، فقد جعل الله تعالى لهم المدح والثناء فيمن بعدهم من المؤمنين.

وهذا كمَا قال سيدنا إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي: اجعل لي ثناءَ حقٍّ وصِدْقٍ، بحيث يُثْني عليَّ مَنْ يأتي بعدي آخر الأمم، وهي أُمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وليس مراد سيدنا إبراهيم عليه السلام الافتخار بأن تمدَحه وتثنيَ عليه هذه الأمة، لأن قوله: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ أي: ثناء صدق عند أهل الصِّدق، الذينَ لا يمدحونَ أحداً إلا بصدقٍ، ولا يثنون على أحد إلا بالصدق، فاجعل هؤلاءِ يا ربِّ يمدحونني بالصدق، وهذا لا يكون إلا إذا تحقَّقت في الممدوح صفات المدح والثناء، فالصادق لا يمدح أحداً إلا بصفات الصدق الموجودة في الممدوح.

وهذا يعني أَنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا قال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ كأنَّه قال: يا ربِّ حقِّقني بصفات الصدق والكمال، والمَحَاسِن التي ترضاها، ويرضاها المَلأ الأعلى عندك، والتي

هي محبوبـة عند أهل الإيمان والكَمال ، حتى إذا سمع بـهـا الصادقون مدحوني بما فِيَّ ، صِدْقاً وحقّاً ، لا رِياءً ولا نِفَاقاً.

والمعنى : ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ بمدح وثناء لِصِدْقٍ وكمالٍ تحقَّقت به ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ وهي أُمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويَشْرُف المُضاف على شَرَفِ المُضاف إليه ونسبته إليه ، ولا أشرفَ ولا أفضلَ من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلا أفضل ولا أشرف من أمته صلى الله عليه وآله وسلم بين الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: كنتم خيرَ أمةٍ خيِّرةٍ مَضَت قبلَكم ، فأنتم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير الأمم المؤمنة الفاضلة التي اتَّبَعَت رسلها(١) . وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّكم تُتِمُّونَ سبعين أمة ـ أي: مضَت قبلَكم ـ أنت خيرُها وأكرمُها على الله»(٢) .

وإنَّ أعظم من أثنى على سيدنا إبراهيم عليه السلام ومدحه بين الأمم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هنا جاء الأمر بمدحه والصلاة عليه في الصلوات المكتوبة وغيرها ، كما علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية. [آل عمران: ١١٠]. أي: إيماناً عملياً وقولياً ، وإلا فالإيمانُ القلبي حاصل ولا بدَّ منه.

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/ ٦١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، والترمذي في كتاب التفسير ، ومن سورة آل عمران / ٣٠٠٤/ (٨/ ١٨٣) عن سيدنا معاوية بن حيدة رضي الله عنه.

لَمَّا سألَه بعضُ الصحابة الكرام: كيفَ الصلاةُ عليه؟

فقال: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كَمَا صلَّيت على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ. وبارِك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كَمَا بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ في العالمينَ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ»[١].

واعلم أنَّ أعظم من نال لِسانَ الصِّدق في الأوَّلينَ والآخرينَ، هو أكرمُ الأولينِ والآخرين على ربِّ العالمينَ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال له تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

وجاء بيان ذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث القدسي: «لا أُذكرُ إلا وذُكرتَ معي»[٢] وما من نبيٍّ ولا رسولٍ إلا ذكر سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ومدحه وأثنى عليه، وأمر أمته بذلك، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: (ما بعث الله نبياً إلا أخذ الله العهد عليه أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويأمر قومه أن يؤمنوا به، وأنَّهم إذا أدركوه أن يكونوا من أنصاره وأتباعه صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) كما في (صحيح) مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد التشهد/٤٠٦/ (٢/٥٨٣) والحديث له روايات متعددة في الصحيحين عن عدة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

(٢) تقدم تخريجه ص/ ١٨٣/.

ولذلك دعا به إبراهيم عليه السلام ، وبشَّر به عيسى عليه السلام ، وهكذا ما من كتاب أنزله الله إلا ذكر فيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأثنى عليه ومدحه ، وأثنى على أصحابه كما أخبرنا ذلك القرآن الكريم : ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: أنَّهم إذا قرؤوا صفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الموجودة في التَّوراة والإنجيل ، كأنَّهم وجدوه أمام أعينهم ، دلَّ على ذلكَ قوله تعالى : ﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ أي: مكتوباً بكتابةٍ مفصَّلة موضحة: لصفاته ومَحَاسِنه صلى الله عليه وآله وسَلم ، بحيث من قرأها كأنَّه عايَنَه.

ومع هذا كلِّه أخبر سبحانه عنهم: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٨٩] أي: فلما جاءهم ما عرفوه، وذَكَره الله في كتبهم؛ من صفات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفروا به.

واعلم أن مدح وثناء أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمته المُتَّبعة له صلى الله عليه وآله وسلم ، له شأنه واعتبارهُ في الملأ الأعلى والملأ الأدنى.

فقد روى البخاري ومسلم ـ واللفظ له ـ والترمذي والنسائي وابن ماجه[١] ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مُرَّ بجنازة فأُثني عليها خيرٌ. فقال نبيُّ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَجَبَتْ

---

(١) البخاري كتاب الجنائز ، باب ثناء الناس على الميت /١٣٦٧/ (٣/٢٢٨) مسلم كتاب الجنائز ، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتىٰ /٩٤٩/ (٢/٩٩٥) الترمذي كتاب الجنائز /١٠٥٨/ (٤/١٤) النسائي (٤/٤٩ ـ ٥٠) ابن ماجه /١٤٩١/.

وجبت وجبت». ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شرٌ ـ أي: لنفاقٍ فيه ـ فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَجَبَتْ وجبت وجبت».

قال عمر رضي الله عنه: فدىً لكَ أبي وأمي، مُرَّ بجنازة فأُثني عليها خير فقلتَ: «وَجَبَت وَجَبَت وَجَبَت»، ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شرٌّ فقلت: «وجبت وجبت وجبت»؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنَّة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النَّار؛ أنتم شهداءُ الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض».

وقال أهل الله رضي الله تعالى عنهم: ألسِنة الخَلْق أقلامُ الحق وهم الخلق الصادقون.

وقد قال في ذلك سبحانه وتعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] ويترتب على الشهادة الرَّفع والخَفْض.

اللهمَّ اجعلنا ممَّن يشهدُ لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتَّزْكِيَة والعَدَالَة. اللهم آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة مريم

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ .

لقد أخبر سبحانه أَنّ جميع الخلائِق هم عباد لله تعالى ، وهو سبحانه رب العالمين وحْدَه. وقد ذكر ذلك بعد أن ردَّ على من نسب لله تعالى الولد ، فقال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ أي: ما كلُّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً. أي: الآن وفي كل أوان.

والمعنى: ما كلُّ من في السموات والأرض إلا عبدٌ لله تعالى ، شاء أم أبى ، اعترف أم أنكر.

والعبودية صفة ملازمة للمخلوق لا تنفك عنه ، فإنْ هو اعترف لنفسه بعبوديتها لله وحده فقد سلك طريق العبادة لله تعالى ، وإنْ هو جحد وأنكر حقيقة ما هو عليه فقد استكبر وكفر.

واعلم أنَّ الله تعالى وحده هو الربُّ ، والخلق كلهم عبيده ، وصفاته وكمالاته سبحانه لا تتناهى ، لكن من الصفات أربع تظهر فيها حاجة العباد إلى الله تعالى ، وهي مقتضى أنه تعالى ربُّهم.

فهو سبحانه الربُّ على الإطلاق ، ومن صفات الرب الغنىٰ ، والقوة ، والعزة ، والقدرة.

أما العبد فإنَّ صفة الفقر والضعف والذل والعجز لا تنفك عنه ما دام عبداً.

ولقد قرَّر سبحانه هذا الأمر بقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ أي: في كل لحظة وأوان من الدنيا والآخرة ، لا أنَّهم سيأتون ربَّهم يوم القيامة عبيداً وهم في الدنيا أرباباً!! بل الكل عبيد له في كلِّ لحظة وحين.

وليس للإنسان أن يُنكر هذا ، إذ كلُّ مَنْ نظر في نفسه وتعقَّل رأىٰ أن صفات العُبودية مُلازمة له ، وهي الفقر والضعف والذُّل والعَجز ، ولرأى في ربه صفات الرُّبوبية وهي: الغِنى والقوَّة والعزَّة والقُدرة على وجه لا يتناهى.

فهو سبحانه الغني بذاته وبصفاته عن كلِّ ما سواه ، وأمَّا العبد فهو فقير إلى ربِّه ، فقراً ذاتياً في وجوده وإمداده ، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] والمعنى: أنَّه سبحانه غني بذاته ، غير محتاج إلى مُوجِد يُوجده ، بل هو واجب الوجود ، وغير محتاج إلى من يُعطيه صفات الكمال؛ بل كمالاته ذاتية له ، فهو واجب الذَّات ، واجب الكمالات.

أمَّا العبد فهو فقير إلى الله تعالى في ذاته وصفاته كلِّها ، ولولا أنه سبحانه يُوجِده بقوله: ﴿ كُن ﴾ لَمَا كان ، ولولا أنه تعالى يُمدُّه بالوجود في كلِّ لحظة لعاد إلى العدم ، وكما سيُوجِد سبحانه مَن بعدك من الأجيال فقد أوجدك أيضاً بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ،

فلا وجود لك من ذاتك؛ بل أنت فقير إلى الله تعالى، فقراً وجودياً ذاتياً كليّاً، ولا يمكنك أن تُنكر افتقارك إلى الله تعالى في وجودك وصفاتك، وإلّا لو كان لك قُدرة أن تُوجِد نفسك لأوجدتها على غير الحال التي أنت فيها مثلاً، ولرزقت نفسك وأسعدتها، ولمَلَكت على نفسك صحّتها وحياتها، ولكن الأمر ليس كذلك، فلا تُنكر فَقْرك إلى ربّك، وقيامه عليك سبحانه بالخلق والإيجاد وبالتَّربية والإمداد.

ومن صفات الربِّ جلَّ وعلا أنَّه قوي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وليست القوة والقدرة على مفهوم واحد، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

فقوة الإنسان هي ما يَقوىٰ به جسمه ومداركه، ولمَّا يمر الإنسان في مرحلة الصِّغر يكون الضَّعف وَصْفُه، فلا قوة له على المشي والحركة وحَمْل الأشياء مثلاً، حتى إذا كبرَ واشتدَّ عزمُه قَوِي جسمه وقويت مداركه، كلُّ ذلك بتقوية الله تعالى وإمداده.

أمَّا الله تعالى فقُواه في تصرفاته في خَلْقه وأفعاله قوة ذاتيَّة له، غير مُكتسبة كغيره، فالقوة صفة قائمة بالذات.

وأمَّا القدرة فهي صفة يَظهر أثرها في مخلوقاته سبحانه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: على فعل كل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] ولا يُعجزه فِعْلُ شيء جلَّ وعلا.

وليس للمخلوق قدرة من ذاته على فعل شيء؛ إلا إذا أمدَّه الله بالقدرة على ذلك، فالضَّعف والعَجز من صِفات العبد، والقوة والقدرة المُطلقة من صفات الربِّ جلَّ وعلا.

ولو كان العبد ربَّ نفسه لقوَّى نفسه، وأعطاها ما تريد،

ولخَلَق في نفسه القُدرة على فعل ما يريد ، لكن حقيقته العَبْدية تُنافي ذلك ، فلا يُنكر هذا وليَعترف به.

ومن صفات الربِّ سبحانه وتعالى العزَّة الذَّاتيَّة المُطلقة والغَلَبَة ، أمَّا العبد فالذل صفته، إلا من اعترف بعبوديته لله تعالى ، وسلك طريق عبادته والتَّقرب إليه سبحانه ، وَمَنْ تقرَّب إلى العزيز أعزَّه وأكرمه.

وممَّا تقدَّم نفهم أنَّ العبودية الكونية الاضطرارية هي صفة جميع المخلوقات ، بِمَنْ فيهم مِنْ مؤمنين وكافرين ، شاؤوا أم أبوا ، أمَّا من اعترف بعبوديته وفقره وعجزه ، واعترف لربه بربوبيته عليه ، وسلك طريق عبادته؛ فقد دخل عندئذٍ في العبودية الاختيارية لربِّ العالمين ، ويكون عندئذٍ من العباد المؤمنين الذين شعارهم: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» أي. لا حول لي عن أمر من الأمور أتحوَّل عنه ، ولا قوَّة لي على فعل من الأفعال أفعله إلا بالله ، فلا حول لمُتحوِّل ، ولا قوَّة لمُتقو إلا بالله العلي العظيم ، وهذا مَشهد المؤمن وملاحظته ما دام أنَّه عَبْد والله ربُّه سبحانه.

أمَّا الكافر فهو عَبْد لله بالعبودية الاضطرارية؛ التي هي صفته ولا تنفك عنه ، ولكنه لم يعترف ويؤمن بربوبية الله عليه وعلى سائر خلقه ، بل جحد وأنكر ، وادَّعى أنَّه رب نفسه ، فمثاله كمثل فقير مفلس لا درهم عنده ولا متاع ، ولكنَّه يأبى الاعتراف بذلك ، ويدَّعي الغِنىٰ وأنه يملك كذا وكذا ، فيقال له: حالك وحقيقتك يُكذِّب مَقَالك ، فَلِمَ تُنكر ولا تعترف؟؟.

نَعم هذا شأن الكافرين أن ينكروا بعد علم ، وأن يتكبَّروا ويُعرضوا عن قبول الحق.

وإذا علمت أيُّها المؤمن أنَّه سبحانه لا ربَّ سواه؛ فلا تنازعه في صفاته مُتقرِّباً بها إليه ، بل إنّ التَّقرب إليه يكون بمُقتضى صفتك أنك عبدٌ له ، وهي الذل والانكسار ، والعَجز والافتقار ، فإنْ أنت تقرَّبت إليه بهذه الصفات وهي صفات العبدية المُلازمة لك ، فإنَّه سبحانه سيُقربك ، ويجعل قوّتك به ، وغِناك به ، وعزَّك به لا من نفسك ، وعلى حَسَب قُربك منه سبحانه تظهر على يدك الكرامات وخوارق العادات.

وإنَّ أقرب من تقرَّب إلى الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أشرف العِباد وَسَيِّدُ العُبَّاد ، وقد ذَكَره سبحانه في أعلى المراتب والمقامات التي لم ينلها نبي غيره؛ ذَكَره بصفة العبدية ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] وغيرها.

ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا بك وإليك»[1]، وعن هذا المقام ظهرت المُعجزات وخوارق العادات ، وَمِن ذلك لمَّا رمى وجوه المُشركين يوم بدر بكفٍّ من تراب وحَصَى ، ولم يترك عين ولا مَنْخَر كافر إلا أصابه بتلك الرَّمية ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فَرميتك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوة الله ، ورميته سبحانه لا تُخطىء.. فافهم.

---

(١) طرف من حديث الاستفتاح الذي رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه / ٧٧١/ (٢/ ٨٥٧) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

واعلم أنه من اعترف بعبديته لله تعالى طالبه الله تعالى بعبادته التي مُخُّها التَّذلل إليه، والخضوع له، والافتقار إليه بالحال والسؤال والدعاء، وامتثال أوامره سبحانه، واجتناب ما نهى عنه، كلُّ ذلك تحقيقٌ لعبوديتك لله تعالى، فالعبودية هي التي تطالبك بالعبادة.

وقد ذكر سبحانه عن المسيح عليه السلام وعن الملائكة المُقربين أنَّهم عباد الله تعالى؛ ولا يستكبرون عن ذلك، بل يعترفون ويُقرون، قال الله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقد قال المسيح عليه السلام عن نفسه: إنه عبد الله، كما أخبر سبحانه: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم: ٣٠].

وقد ذُكر أن الشيخ أبا يزيد البُسطامي رضي الله عنه سأل ربَّه: بِمَ أتقرَّب إليك؟

قال: يا أبا يزيد تقرَّب إليَّ بما ليس فيَّ ـ أي: بصفة ليست فيَّ، وهي التَّذلل والانكسار والافتقار ـ.

ويرحم الله القائل:

تــذلَّــلْ لِمَــن تَهْــوَى لِتَكْسَــبَ عِــزَّةً
فَكَــم مِــن عِــزَّةٍ قــد نَــالَهــا المَــرءُ بــالــذُّلِ
إذا كَــانَ مَــن تَهْــوَى عَــزِيــزاً ولَــمْ تكُــن
لــهُ ذَلِيْــلاً فَــاقْــرا السَّــلامَ عَلــى الــوَصْــلِ

قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] فقد ذكر سبحانه نفسه بصفة الرَّحمن، وذلك لأنَّ اسم الرَّحمن ظاهرة آثاره في جميع العوالم، ولا يمكن للإنسان أن

ينكر ذلك ، فلولا رحمانيته لمَا سخَّر لك الهواء ، ولما أجرى لك الماء ، ولَمَا سخَّر لك الزُّروع والضُّروع ، وهكذا فآثار رحمانيته العامة وسِعَت العوالم كلَّها ، حتى وَسِعت البَرَّ والفاجِر والمؤمن والكافر، أمَّا الرحمة الخاصة وهي معنى اسم الرحيم: فهي للمؤمن خاصةً لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤] أي: لقد أحاط بهم وكلُّهم في قبضته سبحانه.

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: خلقهم بِعَدٍّ وجَمَعَهم بِعَدٍّ، وسيجمعهم ليوم لا ريب فيه بالعَدِّ. فخَلْقه سبحانه للعالم خَلْقٌ عن إحصاء وعَدٍّ وتقديرٍ ومقدار.

فلقد عدَّهم عدَّاً بدءاً ، ونهايةً ، وحالاً ، ومآلاً ، وهذا يشمل أنَّه سبحانه عدَّهم أشخاصاً وعدَّهم ذرات ، لأنَّ الخَلْق ذَرِّيّ ، ولمَّا خلق سبحانه كلَّ ذرة قال لها: ﴿كُن﴾ [البقرة: ١١٧] ، ولا بُدَّ لها من ﴿كُن﴾ ليثبت عليها كونها.

وقد عدَّ سبحانه أنفاس كل واحد منهم ، وعدَّ نبضات قلبه وجميع حركاته وسكناته ، كلُّ ذلك معدود عنده سبحانه قبل أن يخلق الخلق ، وإنما يُوجد سبحانه المخلوقات على حسب المعلوم والمعدود في عِلمه سبحانه؛ الذي لا أوَّل له ولا نهاية له.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: أنَّ كلَّ مخلوق منهم يأتي ربَّه يوم القيامة فرداً ، كما بيَّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: تركتم ما أنعمنا به عليكم في الدنيا ، وجئتمونا فرادى.

وفي الحديث الذي رواه الشيخان والترمذي وغيرهم(١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب على المنبر يقول: «إنّكم مُلاقو الله حفاة عُراة غُرْلاً» وفي رواية: «مشاة».

وفي رواية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموعظة فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً» ـ وفي رواية: «بُهماً» ـ ثُمَّ قَالَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثُمَّ قَالَ: «أَلا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام.

أَلا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾» [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨].

قال: «فَيُقَالُ لي: إِنَّهم لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ. فأقول: سحقاً سحقاً».

---

(١) البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٦٥]/ ٣٣٤٩/ (٦/ ٣٨٦)، مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة/ ٢٨٦٠ ـ ٢٨٦١/ (٥/ ٢٧١٨)، الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة الأنبياء/ ٣١٦٦/ (٨/ ٣١٢)، وينظر الفتح (١١/ ٤٦٤) كتاب الرقاق، باب في الحوض، وشرح مسلم للإمام النووي (٥/ ٢٣١٧) كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.

فكما خَلَقك سبحانه وأخرَجَك من رَحِم أمِّك إلى عالم الدنيا حافياً عارياً تحتاج إلى خِتان ، ولا درهم معك ولا متاع ـ وهذا معنى بُهماً ـ فكذلك يحشرك الله تعالى يوم القيامة.

أما لباس الدنيا ومتاع الدنيا وأموال الدنيا ، فتبقى في الدنيا لمَّا فارقتها بالموت ، وما دام الأمر كذلك فعليك أن تسعى في تحصيل لِبَاسٍ لك في الآخرة وذلك بتقوى الله تعالى ، قال الله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦].

وإذا كنت قد تركت متاعك وبيتك وقَصْرك وأرضك ومزرعتك في الدنيا وجئت يوم القيامة لا شيء عندك من حطام الدنيا ، فاسعَ إلى تحصيل بيت لك وقصر لك في الجنة كي تنعُم بجوار رب العالمين ، وما ذلك إلا بعبادته وطاعته سبحانه ، قال الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وإذا كان ما تشقى وتتعب في تحصيله من حطام الدنيا مَتروك في الدنيا، فلا تُجهِد نفسك في الدنيا في تحصيل ما لا حاجة لك به، وارضَ باليسير ، وازهد في الدنيا ، وارغبْ فيما عند الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة مريم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

لقد بيّن سبحانه في هذه الآية فَضْل المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، بعد أن ذكَر الكافرين وعواقبهم السيِّئة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ افتتح سبحانه الآية بقوله : ﴿ إِنَّ ﴾ ليُؤكِّد ما ذكَره في الآية ، وفيه التنبيه للمؤمنين على أن يكونوا على يقين من هذا الوعد الذي وَعَدَهم الله تعالى به في الآية .

قوله : ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ أي : صَدَّقوا تصديقاً جازماً بما أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا به ، وهو ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد جاء ذِكر الإيمان في الآية مَقرُوناً بالعمل الصالح ؛ مِمَّا يدل على أن المراد بالإيمان التَّصديق الاعتقادي . لأن العطف يقتضي المُغايَرة . وأمَّا إذا أُطلق الإيمان فيشمل عندئذٍ العقيدة والأقوال والأعمال ، ولا يُقال عن المؤمن إنَّه مؤمن إلا إذا كان تصديقه لِمَا جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم تصديقاً

اعتقاداً جازِماً، لا يقبل الشَّك ولا الارتياب ولا الاضطراب، لقوله تعالى في وَصْف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ومِثَال الإيمان الجازِم القاطِع: إذا كنت مُتحقِّقاً أنَّ وقتَك نهارٌ، واجتمع عليك أهل الأرض لإقناعك أنَّ الوقت ليل، فلا تُصَدِّقُهُم، بل ولا ينتابُك أدنى شك أو ارتياب فيما تعتقده أن الوقت نهار، لأنك تُعاين ذلك وتشهده.

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقد قَرَن سبحانه العمل الصالح بالإيمان، ليُبيِّن أنَّ الإيمان الصحيح يقتضي العمل الصحيح، وَمَنِ ادَّعىٰ الإيمان ولا عمل له صالح يُصدِّقه فهو مَغْرور بنفسه، مُعجب برأيه، وإيمانه في نقص بل على خطر، لأنه يخالف ما جاء عن الله تعالى، وبيَّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَمِنْ ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ «بِضْعٌ وَسِتُّونَ» ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيق، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ»[(١)].

وكثيراً ما يَرِدُ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات، والعمل الصالح يُقابِله العَمل

---

(١) الحديث رواه أصحاب الكتب الستة، ينظر الفتح كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان /٩/(١/ ٥١) وشرح مسلم للإمام النووي في كتاب الإيمان، باب عدد بيان شعب الإيمان /٥٨/(١/ ١٧٨)، وأبو داود /٤٦٧٦/ والترمذي /٢٦١٤/ والنسائي (٨/ ١١٠) وابن ماجه /٥٧/.

الفاسد ، وأحياناً يقابله العمل السيىء ، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] فقابل الصَّلاح بالفساد ، وقال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة: ١٠٢] فقابل الصَّلاح بالسوء.

فالصلاح يقابل بشيئين وهما: الفساد والسوء ، وإذا خلا العمل عن الفساد والسوء كان صالحاً.

وليس ميزان صلاح الأعمال وفسادها أمراً موكولاً لأهواء الناس وآرائهم ، لأنَّ أهواء الناس وآراءهم مختلفة ، متناقضة شتى ، فأيُّها يُتَّبَع؟! إذاً فالذي خَلَق الخلق ، وأمدَّهم ورزقهم وربَّاهم ، هو أعلم بمصالحهم ومفاسدهم ، ومنافعهم ومضارِّهم ، ولذلك شَرَع لهم الشرائع ، وبيَّن لهم على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام ، بما أنزل عليهم من الكتب والتَّعاليم ، والإرشادات الإلّهية ، التي فيها سعادة الناس في الدُّنيا والآخرة ، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء بالهَدْي الجامع العام ، لجميع الأنام ، على مرِّ الزَّمان؛ إلى أن تقوم الساعة.

فالعمل الصالح هو ما شرعه الله تعالى ، وبيَّنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بالقول ، أو بالفعل ، أو التقرير ، أو إذا كان هذا العمل يندرج تحت أصل من أصول الشريعة. وكل عمل خالف ذلك فهو عمل فاسد مردود على صاحبه ، وَيُسمَّى بدعة ، لأنَّه خالف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم.

وَيُشْترط أيضاً في صلاح العمل حتى يُوصف بأنه عمل صالح أن يكون العامِلُ له مُخلصاً فيه لله تعالى ، لا غاية له من ورائه سوى

رضوان الله تعالى ، والتقرُّب إليه سبحانه كما أمر. وأمَّا إذا كان غَرَض العامِل مِنْ عمله الرِّياء والسُّمعة ، ولَفْت أنظار الناس ، وكسب ثنائِهم؛ فإنَّ هذا العمل خرج عن كونه صالحاً ، لأنّ عدم الإخلاص فيه لله تعالى أفسده؛ ولو كان ظاهر العمل الصلاح والاتباع.

وممَّا تقدَّم تبيَّن لك أنَّ للعمل الصالح ركنين:

أولهما: مشروعيته وموافقته لِمَا جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وثانيهما: الإخلاص فيه لله تعالى.

وبالعمل الصالح يَصلُح صاحبه أن يتوب به إلى الله تعالى ، والعمل الصالح يجعل في صاحبه الصُّلوحية ـ أي: الأهلية والقابليَّة ـ للترَّقي في مقامات القُرب من الله تعالى ، ودخول دار ضِيَافة الله تعالى ، وهي جَنَّتُهُ سبحانه وتعالى ، والحلول ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال المشروعة ، وهم مُخلِصون فيها لله تعالى ، لهم أنواع من إكرام الله تعالى لهم ، ومن جملة ذلك ما ذَكَره سبحانه بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ وهو نوع من الإكرام والفضل الإلّهي ، يناله المؤمنون الذين يعملون الصالحات ، وقد وَعَدَهم سبحانه في كثير من الآيات بألوان من النَّعيم في الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: سيجعل لهم حُبَّاً عنده ، فهو يحبهم حباً ثابتاً باقياً لا سَخَط بعده ، وَيجعل لهم حبَّاً ثابتاً لدى أحبابه من الملأ الأعلى والأدنى.

ولبيان ذلك وفهمه ، لا بد من الرُّجوع إلى بيان صاحب البيان عن القرآن ، الذي أنزل الله عليه القرآن ، وعلَّمه البيان عن القرآن ثم قال له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] صلى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث الذي رواه البخاري وغيره(١) ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحْبِبْهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ. فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ».

فيخلق الله تعالى مَحبَّة من أحبه من الصالحين من عباده ، يخلقها في جبريل والملائكة كلهم عليهم السلام ، وكذلك في قلوب الصالحين من أهل الأرض ، فتراهم يذكرونه بالخير والمدح ، والثناء الجميل؛ وإن لم يروه أو يجتمعوا به.

والوُدُّ: هو الحُب ، مَرتبة من مراتب الحب ، ويدل على الثَّبات والبقاء كما هو شأن الوَتَدِ الذي يُضرب في الأرض ، ويُثبت فيها ، لتربط به الخيمة وتثبت به.

ومن أراد أن ينال محبة الله تعالى له ، ومحبة جميع الصالحين من عباده على مراتبهم ، فعليه أن يتحقَّق بالإيمان الكامل والعمل الصالح ، حتى ينال شرف مقام: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم ، البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، /٣٢١٩/ (٦/٣٠٣) و(١٠/٤٦١) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب /٢٦٣٧/ (٥/٢٥٥٦).

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد[1] عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الْمِقَةَ مِنْ اللهِ ـ قَالَ شَرِيكٌ أحد الرواة: هِيَ الْمَحَبَّةُ ـ وَأُلْقِيَتْ مِنْ السَّمَاءِ، فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً قَالَ لِجِبْرِيلَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاناً. فَيُنَادِي جِبْرِيلُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمِقُ ـ يَعْنِي: يُحِبُّ ـ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ ـ أرى شريكاً قد قَالَ: فَيُنْزَلُ لَهُ الْمَحَبَّةَ فِي الأَرْضِ ـ.

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْداً قَالَ لِجِبْرِيلَ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلاناً فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُنَادِي جِبْرِيلُ: إِنَّ رَبَّكُمْ يُبْغِضُ فُلاناً فَأَبْغِضُوهُ» ـ قَالَ: أرى شريكاً قد قال: «فَيَجْرِي لَهُ الْبُغْضُ فِي الأَرْضِ» ـ وفي رواية للإمام أحمد أيضاً، والطبراني[2] وابن أبي شيبة عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: «إن المِقَة من الله عز وجل، والصِّيت من السماء، فإذا أحب اللهُ عبداً. . .» وذكر باقي الحديث.

المِقَة: ـ بالتاء المربوطة ـ وَمَقه يمقه مِقة أي: أحبَّه محبة.

والصِّيت: أي: السُّمعة الحسنة، والثناء الجميل، وَمَن تحقَّق بالإيمان الكامل والعمل الصالح أكرمه الله تعالى بمحبته ومحبة الصالحين من عباده بمدحه والثناء عليه، على أن تكون غايته ومقصوده من العمل الصالح رضا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لا مدح الناس وثناءهم. ومن فعل الصالحات بُغية مدح الناس وثنائهم عليه؛ فقد أفسد عمله الصَّالح عن القبول، ولم ينل من النَّاس إلا الذَّم والقَدح.

---

(١) (٥/٢٦٣).

(٢) المسند (٥/٢٥٩) (مجمع الزوائد) (١٠/٢٧١).

وقد ذكر الإمام الحسن البصري رضي الله عنه أَنّ رجلاً عابداً مِن بني إسرائيل قال في نفسه: والله لأعملنَّ عملاً حتى يذكرني الناس ـ أي: من عبادة وطاعة لله تعالى ـ فدَأَب في العمل وتَعِب، فكان كلَّما مرَّ على الناس قالوا: لَعَن الله فلاناً المُرائي، ما أقبحه من منافق!! واحذروا منه أيُّها الناس، وبقي على ذلك ستة عشر شهراً، وهو يزيد في عمله وطاعاته، والناس يزيدون في ذمِّه وشتمه.

فرجع إلى نفسه وقال: والله لأعملنَّ عملاً يُقرِّبني إلى الله تعالى، فحوَّل نيَّته فصلح عمله، فكان كلَّما مرَّ على الناس ذكروه بالخير وقالوا: رَحِم الله فلاناً العابد ورضي عنه.

وما هذا إلا لأن القلوب بيد الله تعالى، يحبِّبها بمن شاء، ويبغِّضها بمن يشاء.

ومَن أكثرَ مِن عمل الصالحات، ومقصوده نيل المقامات، وحصول خوارق العادات، ليفتخِر بها على النَّاس، ويكشف على عوراتهم وزلاتهم، فقد يُعطيه الله تعالى ذلك من باب الامتحان؛ لا من باب الإكرام، وإن استمر في نيَّته وَفِعله سَلَبه الله تعالى ما أعطاه، وصار على خطر إن لم يتُب ويرجع إلى الله تعالى، إذ كيف يَصح لأحد أُوتي الكَشف أن يكشف عَورةَ وزلَّة مَن سَتَرَه الله تعالى؟!.

والله سبحانه عَفُوٌّ غفور، يَستر على عبده ذنوبه لعلَّه يرجع ويتوب، ومَن تتبَّع عورة أخيه المؤمن تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فَضَحه ولو في جَوف رَحْلِه، كما بيَّن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

(١) الحديث رواه الترمذي في (السنن) في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في =

وَمَنِ استعان بكشفه على فَضح زلات وأسرار ما سَتَره الله تعالى في عباده؛ كان كمن استعان بآلة تُقرِّب البعيد للنَّظر وتكبِّره لينظر إلى عوراتِ الناس وهم في بيوتهم ، ونسأل الله تعالى العافية والسلامة ، وأن يُتحفنا بنيل المقامات على سبيل الإكرام والفضل والإحسان لا الامتحان . ولذلك فليس كل مؤمن يتحمَّل نيل تلك المقامات والمراتب ، إذ لا بدَّ لها من استعداد وإخلاص مع الله تعالى ، لأن المقصود هو الله تعالى الذي هو يُقيم المقامات ويرتِّب المراتب .

ومن تقرَّب إلى الله تعالى بُغية الحصول على المقام والمَرتبة كان كمن أحبَّك من أجل جاهك الدنيوي ، أو كثرة أموالك؛ لا لذاتك وجميل صفاتك . بل على المؤمن أن يتوب إلى الله تعالى ، وغايته وجه الله تعالى ونيل رضاه ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام : ٥٢] وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] وليس وراء الله مَرمَى . فافهم .

ومن لم يخلع ثياب نفسه الدَّنِيَّة لا يخلع الله عليه الخِلَع النُّورانيَّة القُدسية ، إذ لا يُتصوَّر من عاقل أن يلبس لباساً نظيفة طيبة فوق لباسه القَذِرة الدَّنِسة، ومن لا يخلع ما عليه لا يخلع الله عليه . فافهم .

= تعظيم المؤمن /٢٠٣٣/ عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : «يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تُعَيِّروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله» وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وانظر (الترغيب والترهيب) (٣/ ١٩٨) .

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ فمن نال هذا المقام نال سعادة الأبد ، فلا يمكن أن يجري عليه بغض أو طرد ، بل هو في مقام المحبَّة والمحبوبية ، وقد ظهر فيه اسمه تعالى ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ أي: المُحب ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٥]. ويُقال في اللُّغة: ودود على وزن فعول ، ويستوي فيه الفاعل والمفعول ، فمن آمن وعمل الصالحات نال من الله تعالى الوُد والمحبة أي: أحبَّه الله تعالى ، فهو سبحانه المُحب لمن تقرَّب إليه ، وهو المحبوب عند مَنْ تقرَّب إليه ، فهو سبحانه مُحب ومَحبوب، وهذا قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وإنَّ أعظم مُحب لله تعالى ، ومَحبوب عند الله تعالى ، وعند جميع خلق الله تعالى ، حتى الأشجار والجمادات هو: سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي تعشَّقت ذرَّات الكائنات بمحبَّته صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: يسَّرنا قراءة القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، وقد يَسَّرَ سبحانه قراءة القرآن على كل إنسان؛ ولو كان أعجمياً.

قولـه تعالى: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: العربي المبين ، وقد أضافه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تشريفاً وتكريماً له صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ذكر سبحانه أمَّهات أعضاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فذكر قلبه الشَّريف صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

وذكر فؤاده صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وذكر صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

وذكر لسانه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧].

وذكر عينيه الشريفتين صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

وذكر سبحانه أطرافه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

كلُّ ذلك تشريفاً وتكريماً له صلى الله عليه وآله وسلم، ولذاته، وأجزائه، وأعضائه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنَّ ذرَّاته صلى الله عليه وآله وسلم الجسمانية مليئة بالأسرار والأنوار، وليس جسمه صلى الله عليه وآله وسلم وذراته كجسم غيره، وليست أجزاؤه وذراته كأجزاء وذرات غيره من الأجسام. ومن أجل ذلك لمَّا حلَق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعره الشريف يوم حجَّة الوداع قَسَمه على الصحابة الكرام، رجالاً ونساءً، لتبقى آثاره الجسمانية فيهم، لِمَا لها من أنوار وأسرار وخيرات وبركات.

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يتزاحمون على التَّبرك بآثار وَضوئه صلى الله عليه وآله وسلم ، وبُنخامته وأظافره وشعره صلى الله عليه وآله وسلم، حتى لا يَدَعُون شعرة تقع على الأرض ، كلُّ ذلك لعلِمهم وإيمانهم أنَّ ذرَّات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيَّاضة بالأنوار والأسرار والخيرات والبركات ، وفي هذا روى البخاري(١) وغيره في حديث الحديبية ـ وقد بعثت كفار قريش عروة بن مسعود الثقفي وسيطاً عنهم ، يكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان وقتئذٍ مشركاً ثم أسلم بعدُ وحسن إسلامه رضي الله عنه ـ قال راوي الحديث: ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ ـ أي: يلحظ ـ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم بِعَيْنَيْهِ ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلهِ وسَلَّمَ نُخَامَةً إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ـ أي: تبركاً بذلك ، وفي رواية لابن إسحاق: ولا يسقط من شعره إلا أخذوه. أي: واحتفظوا به متبركين ـ.

قال: وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدرُوا أَمْرَهُ ـ أي: أسرعوا إلى فعله ـ وَإِذَا تَوَضَّأَ صلى الله عليه وآله وسلم كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ(٢) ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، ومَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ صلى الله عليه وآله وسلم.

فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ لهم: أَيْ قَوْمِ ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ ، ووَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ ـ ملك الروم ـ وَكِسْرَى ـ ملك الفُرس ـ وَالنَّجَاشِيِّ ـ ملك الحبشة ـ وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ ـ أي: ما رأيت ـ

---

(١) في كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط / ٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢/ (٥/ ٣٢٩).

(٢) قال في شرح المواهب: أي: على ما يجتمع من القطر ، وما يسيل من الماء الذي باشر أعضاءه الشريفة عند الوضوء قاله المصنف. ا هـ.

مَلِكاً قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ ـ أي: مثل تعظيم ـ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاللهِ إِنْ يَتَنَخَّمْ نُخَامَةً ـ أي: ما تنخم نخامة ـ إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ النَّظَرَ إليه تَعْظِيماً لَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا» الحديث كما في (التيسير) وغيره.

وإذا كان هذا قد ثبت بالنَّقل الصحيح، فهو أيضاً مقبول ومعقول لدى العقل السَّليم ، إذ إنّ تجليات الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في سَجَداته وركعاته ، وقيامه وعباداته؛ لا يدرك حدَّها إلا الله تعالى ، وكلُّ ذلك يظهر أثره في ذرَّات جسمه الطيِّب الطَّاهر صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا كانت الأماكن تتبارك بسبب تجلي الله تعالى عليها، كما هو شأن الكعبة المشرفة ، وجبل الطور، الذي تجلَّى الله تعالى عنده على موسى عليه السلام بالتَّكليم والمُناجاة، فما بالك بمن تجلَّى الله عليه بالرؤيا العيانيَّة ، وكلَّم ربَّه ونَاجاه، وأفاض عليه العلوم والمعارف ، وكشف له عن المُغيَّبات.

نعم هذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، حبيب ربِّ العالمين ، وأكرم الأولين والآخرين على ربِّ العالمين ، الذي مَلأ الله تعالى قلبه وذاته وَذَرَّاتِهِ بالأسرار والأنوار ، والخيرات والبركات ، وهذا ما عرفه الصحابة وأيقنوا به ، ولذلك راحوا يتبركون ويتوسلون بذاته وذراته صلى الله عليه وآله وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهم ومُقِرٌّ لهم ، لِمَا يعلمه من فضل الله العظيم عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

ويرحم الله القائل:

وإذا لَـمْ تَـرَ الهِـلال فَصَـدِّق   لأُنَـاسٍ قـد رَأوهُ بـالأبصَـارِ

فلا تُنكر ما خصَّ الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وفضَّله وأكرمه به، ولا تُنكر على الصَّحابة الكِرام ما فعلوه من التَّبرك والتَّوسل والاستشفاء بكل شيء من جَسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّهم إنَّما فعلوا ذلك عن شُهود ومُعاينة، وإيمان واعتقاد بأنَّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مَنبع الخيرات والبركات، ومَهبط الأسرار والأنوار الإلّهية صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بما أعدَّ الله لهم من أنواع الإكرام، وألوان النَّعيم، والمُتَّقون هم: الذين اجتنبوا المناهي، وفعلوا الأوامر الشرعية ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: المُخاصِمين الذين يُجادلون بالباطل، ولُـدّ: جمع أَلَـدّ، وهو المُخاصِم المُجادِل بالباطل بعد أن ظهر له الحق لكنه لا يعترف.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من قوم مضوا، جاءتهم رسلهم بالبيِّنات لكنهم عاندوا وعارضوا، فأهلكهم الله تعالى بالعذاب، وأعدَّ لهم في الآخرة العذاب المقيم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: من أولئك الذين كفروا وعاندوا وجادلوا بالباطل، فماذا جرى عليهم؟ وأين صاروا؟ مع أنَّهم كان منهم الأقوياء والجَبابِرة والفراعِنة، وغيرهم من الطُّغاة البُغاة، الذين أهلكهم الله تعالى ودمَّرهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: ترى أحداً منهم ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: تسمع لأحدهم صوتاً، مع أنهم كانوا في الدنيا ذوي صَخَب وشَغَب.

والأنبياء صلوات الله عليهم يرون الأموات في قبورهم ، ويسمعون أصوات الكفار وهم يُعذبون في قبورهم ، وقد أخبر عن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد يَكشف الله تعالى لبعض أوليائه ويرون ذلك .

ولقد مرَّ الشيخ داود الطائي رضي الله عنه على قبر فسمع صاحب القبر يصيح ويستغيث ويقول : أَلَمْ أُصلِّ ؟

والملائكة تعذِّبه وتقول له : بلى يا عدو الله .

ويقول : ألم أُزكِّ؟

والملائكة تقول : بلى يا عدو الله .

ويقول : ألم أحُج؟

والملائكة تقول : بلى يا عدو الله ـ أي : كنت تفعل جميع ما ذكرت من طاعات ـ ولكنَّك كنت إذا خَلَوت وحدك بارزت الله بالمعاصي ولم تراقبْه .

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا مراقبته والخشية منه في جميع الأحوال .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ ﴾ .

لقد افتتح سبحانه هذه السورة بقوله: ﴿طه﴾ وهما حرفان يدل كلٌّ منهما على اسم من أسماء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتقدير الكلام: يا أ يُّها الطيِّب الطاهر الهادي.

فقوله تعالى: ﴿طه﴾ أي: يا طه. كما في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: يا سيد العالمين. وقد جاء في فصيح لغة العرب إطلاق الحرف على الكلمة، وهي لغة خاصة مُتعارف عليها بين الأحباب.

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ أي: أنَّ الذي نزَّل هذا القرآن عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الله تعالى الذي خلق الأرض وخلق السماوات، وهو العليم، وعِلْمه مُطلق لا يتناهىٰ، وهو الحكيم؛ وله الحِكمة التي لا تتناهى.

وقد نَزَل هذا القرآن لإصلاح العالم وإسعادهم، وكما أتقن وأحكَم سبحانه خَلْق السماوات والأرض، وأحكم خَلْق الإنسان الذي أسكَنَه في الأرض، فلم يَدَع سبحانه الإنسان يعيش هَمَلاً،

بل أحكم أمره وشؤونه ، بأن شَرَع له شريعة فيها صلاح أمرهم في الدُّنيا وسعادتهم في الآخرة. كلُّ ذلك بمُقتضى حكمة خَلْقه. فهو الذي خَلَق ويخْلُق وهو الذي له الأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفي الآية دليل على أنَّ نِظام واستقامة أمر السماوات والأرض هو القرآن ، ومتى فُقد هذا القرآن من عالم الأرض وذهبت آثار أنواره ، حينذاك تتهدَّم السماوات والأرض ، وهذا ما يكون يوم القيامة. ولذلك آخِر ما يُرفع من الدِّين من على وجه الأرض هو القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

قدَّم سبحانه ذِكر الأرض على السماوات في حين أنَّه قد يُقدِّم ذِكر السماوات على الأرض في آيات أخرى ، وكلُّ ذلك لمناسبة ومعنىً يُراد من وراء ذلك.

وفي الآية جاء ذِكر الأرض مُتقدِّماً على ذِكر السماوات لأنَّ الأرض خُلقت قبل السماء ، فأول ما خلق الله الأرض ، ثم خلق السماوات ، ثم خلق ما بينهما ، لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

أما قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، فقد يتوهَّم الإنسان من قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾ أنَّ الأرض مخلوقة بعد السماء، لكنَّ الحق أنَّ الأرض مخلوقة قبل خَلْق السماء كما دلَّت عليه الآية السَّابقة، ولكنَّ قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَا﴾ أي: فصَّل خَلْقَ ما فيها، وإن كانت هي مخلوقة من قبل السماء، وهذا معنى ﴿دَحَىٰهَا﴾ فسَّره قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

وتبين لك مما تقدم أنَّ دَحو الأرض كان بعد خلق السماوات، أمَّا خلق الأرض جملة فكان قبل خلق السماوات.

ودَحو الأرض يعني: أنَّ الله تعالى خلق فيها طُرقاً وسُبلاً، وجبالاً وتلالاً، وأنهاراً وبحاراً، وأشجاراً وهكذا.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [٥٤].

وقال سبحانه في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [٣].

قوله تعالى: ﴿الْعُلَى﴾ جمع عالية، فكل سماء هي ذات علو وارتفاع شاهق، وكل الكواكب مهما علت فهي دون السماء؛ لأنها زينة للسماء الدنيا، وترتبط بها مصالح العالم بنوع من الارتباط، يوصف بأنه ارتباط حيوي معاشي ونفساني. ويُعلم هذا من قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢] أي: فلكم فيها منافع، كما أن لكم في الشمس والقمر منافعَ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]. لكن وجه المنفعة بتسخير الكواكب لا يُدْرِك حقيقته الإنسان. ولَمَّا يُخرب الله تعالى الأرض

يُخرب أولاً الكواكب والنجوم ، وبذلك يَخرب نظام عالم الأرض.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ أما العرش: فهو أكبر العوالم الحسية المشهودة ، وهو عالم كبير محيط بعالم الكرسي ، الذي تكرست فيه العوالم ، وعالم الكرسي محيط بعالم السِّدرة ، وعالم السدرة محيط بالسماء السابعة ، والسماء السابعة محيطة بالسماء السادسة ، وهكذا دائرة السماوات محيطة بالأراضي السبعة ، وقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ما السماوات السبع ، والأرضون السبع في الكرسي؛ إلا كحَلقة ملقاة بأرض فَلاة ، وإنّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[(١)].

والعرش هو مَظهر مُلك الله وعظمته سبحانه ، وهو موضع تَنَزُّل الأوامر والتدابير الإلّهية المنوطة بالعوالم العرشية ، وعن العرش تنزل إلى الكرسي وهذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الآية [الرعد: ٢]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

ومن عالم الكرسي تنزل التدابير الإلّهية إلى عالم السدرة ، وعن السدرة تنزل في العوالم. فالسدرة هي مَحَطّة للأحكام السماوية والأرضية.

واعلم أنه ليس في القرآن زيادة كلام أو فضول أو تكرار ، بل

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير وابن مردويه والبيهقي ، عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

كله كلام الله تعالى المُحْكَم ، ولكل كلمة في موقعها اعتبارها وحكمها ومعناها ، ولا تُطَبِّق ما تعلمه من قواعد البلاغة على كلام الله تعالى؛ لأنه كلام من ليس كمثله شيء ، بل يمكنك أن تفعل ذلك مع كلام أمثالك من المخلوقات.

وليس في سورة الرحمن تكرار للآية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بل إن كل آية مقصودة لذاتها ، ولها حُكمها ولا بد منها ، وإنّ بلاغة القرآن فوق كل بلاغة ، ولا يمكن لبلاغة بليغ مهما ارتقى وعلا في بلاغته لا يمكنه أن يُحيط بأسرار بلاغة القرآن ، لأنه كلام الله المعجز.

وما عليك أيها العاقل إلا أن تسأل الله تعالى أن يفهِّمك أسرار كلامه بتفهيم من عنده سبحانه.

وأما ما قَصَده العلماء من قواعد للبلاغة والفصاحة فهم قعَّدوا ذلك لكلام أمثالهم ، وليس لهم أن يتحكموا في كلام الله تعالى على مقتضى قواعدهم ، لأن كلامه سبحانه معجز ، وقواعدهم تُطبق على الكلام العادي لا المُعجز.

وقد خلق الله تعالى العرش قبل خلق السماوات والأرض بما لا يعلم عدَّه إلا الله تعالى ، وهو سبحانه غنيٌّ عن العرش ، وكما كان غنياً عنه قبل خلقه له فهو غني عنه بعد أن خَلَقه ، بل خلقه إظهاراً لسلطانه ومُلكه وعظمته سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ جرى بين السلف والخلف في فهم هذه الآية ومعنى الاستواء في حقه سبحانه أقوال. فكان مذهب علماء الخلف: التأويل ، أما علماء السلف فيُثْبِتُون ما ورد على ما هو عليه مع التنزيه.

وقد ورد عن الإمام مالك رحمه الله تعالى في ذلك عبارة جمعت أقوال السلف كلهم في هذا الشأن ، فلما سأله رجل ـ وكان في قلبه بدعة ـ عن معنى قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ وقال له : كيف استوى؟

أطرق الإمام رحمه الله تعالى ثم نظر في السائل وقال له : الاستواء معلوم ، والكَيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بِدعة ، وما أظنك إلا ضالاً مبتدعاً . وأمر بإخراجه[١] .

وقوله الاستواء معلوم : أي : معلوم معناه في اللغة العربية وهو العلو ، لكنْ كيفية استواء الرحمن على العرش فهذا أمر مجهول . ـ وفي رواية أنه قال : غير معقول ـ أي : لا يمكن للعقل أن يُدرك حقيقة استوائه تعالى على العرش ، لأنه استواء من ليس كمثله شيء . وإنَّ صفات من ليس كمثله شيء لا يمكن للعقل الإحاطة بها ، أو الوقوف على حقيقتها .

واعلم أنه لا يمكن لأحد أن يُحيط علماً بصفة من صفات الله تعالى ، وكل صفة من صفاته سبحانه لا حد ولا انتهاء لها .

فهو سبحانه قادر وقدرته لا تتناهى ، ولا يمكنك أن تتصور شيئاً عن مَدى قدرته سبحانه . ويمكنك ذلك عن قدرة أمثالك ، إذا

---

(١) ويُراد من السلف الصالح : أهل القرون المشهود لها بالخيرية في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «خير الناس قَرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يَلونهم» كما في البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد / ٢٦٥٢/ (٥/٢٥٩) ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة . . ./ ٢٥٣٣/ (٢٤٨٩/٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وفي رواية عزاها الحافظ في (الفتح) (٧/٧) إلى ابن أبي شيبة والطبراني (مجمع الزوائد) (١٠/ ٢٠) «ثم الذين يلونهم» فدخل بذلك أتباع أتباع التابعين .

قيل لك: فلان قادر قوي تَصوّرت ذلك وفهمته من خلال قدرتك أنت وقوتك أنت.

ولو قيل لك: فلان قوي، لفهمت على الحقيقة معنى ذلك وأحطت به؛ بالقياس على قوتك، ولأنك تفهم معنى القوة في أمثالك من نفسك.

ولو قيل لك: فلان بصير. لفهمت ذلك وأحطت به من نفسك، لأنك بصير مثله. وهكذا تفهم صفات أمثالك بالمقارنة مع نفسك.

أما لما تأتيك الأخبار عن صفات رب العالمين، الذي قال لك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أي: لا نظير ولا شبيه ولا كُفؤ له سبحانه، فكيف يُمكنك عندئذٍ الوقوف على حقيقة صفة من صفاته سبحانه؟! إنها صفات من ليس كمثله شيء، فصفاته ليست كصفات غيره حتى تفهم حقيقتها بالمقارنة؛ كما فعلت لفهم صفات أمثالك.

فهو سبحانه بصير بمعنى أنه يُدرك المُبْصَرات، ويرى الأشياء كلها، أما كيفية ذلك فلا يمكنك الوقوف عليه، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، وبصره بَصَر من ليس كمثله شيء.

وهو سبحانه سميع ـ أي يدرك: المسموعات خَفِيَّها وظاهرها ـ لكن سمعه ليس كسمعك، لأنه سمع من ليس كمثله شيء، ولا يمكنك الوقوف على حقيقته. وهكذا فأنت تفهم معاني صفات الله تعالى لكنك لا تدرك حقيقتها، ولا يمكنك ذلك ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقول الإمام: إن السؤال عنه بدعة، يعني: أن السؤال عن

كيفية وحقائق الصفات بدعة ، لأن السائل قد اعتقد أن الله تعالى يُشبه خلقه في صفاتهم ، فراح يسأل عن حقيقة صفاته سبحانه ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقال جل وعلا : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فلا يمكن لأحد أن يحيط علماً بذاته سبحانه أو صفاته ، ولا أن يُدرك حقائق المعاني التي اتصف بها سبحانه.

قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ يدل على أن العرش وما حوى محاط بالرحمة العامة ، التي هي مقتضى اسمه تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ، وهذا يدل على الرحمانية الإلٰهية العامة؛ أنها وسعت كل شيء ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر : ٧].

وإنَّ الإنسان هو مِمَّن ظَلّله العرش بعد أن ظلّلته السماوات والسدرة والكرسي ، وهو ممن وسعته الرحمة العامة.

أما الاستظلال بظل العرش مباشرة فلا يناله إلا من جاءت الأحاديث في بيان فضلهم.

ولقد وسعت الرحمانية العامة كل شيء حتى الكفار ، فلم يحرمهم سبحانه الإمداد بأسباب الحياة والعيش ، وقد يستجيب لهم ، ويحقق رجاءهم لأمور دنيوية ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾ [النساء : ١٠٤] فأثبت لهم سبحانه رجاءً منه ، لكنه في أمور دنيوية.

وأما الرحمة الخاصة : فهي مقتضى اسمه تعالى الرحيم ، وهي للمؤمنين به سبحانه خاصة ، لقوله تعالى : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ [آل عمران : ٧٤].

كما أن الرحمانية الإلٓهية العامة وسعت الكفار وهم في جهنم ، ألا ترى إلى قول إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم : ٤٥] .

ولم يدخل الكفار النار إلا بمقتضى عدل الله تعالى ، ومن حاسبك بالعدل فقد رحمك ، كما أنّ الكفار وهم في النار يتألمون ويحترقون ، ومع ذلك فهم يتكلمون مع بعضهم ، ويسب بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويلوم بعضهم بعضاً ، كما أخبر سبحانه عن ذلك في القرآن الكريم ، في حين أنه في الدنيا لو قَرَّب إنسان إلى إصبَعك ناراً لرحت تستجير وتستغيث ، وما بك طاقة على أن يكلمك أحدٌ ، أو تُكلم أحداً .

وفي الحديث القدسي : «لما قَضَىٰ الله تعالى الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إنّ رحمتي غلبت غضبي» ، وفي رواية : «سبقت غضبي» وفي رواية : «تغلب غضبي»[١] .

وهذا الكتاب محيط بالعرش كله ، وهو أكبر من عالم العرش ، ومن جملة ما كتب الله تعالى فيه : «إن رحمتي غلبت غضبي» الحديث .

وقال سيدنا علي رضي الله تعالى عنه : (سبحان من اتَّسعت رحمته لأعدائه في أشد غضبه) أي : وسعت رحمته العامة التي هي مقتضى اسم الرحمن وسعت الكفار وهم يعذبون في جهنم ، وقد اشتد غضب الله عليهم .

---

(١) رواه البخاري في أول كتاب بدء الخلق / ٣١٩٤/ (٦/ ٢٨٧) وانظر رواياته فيه / ٧٤٢٢/ و/ ٧٤٠٤/ ومسلم في كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه / ٢٧٥١/ (٥/ ٢٦٣٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: كل ذلك له سبحانه مُلكاً ومِلكاً ـ أي: تدبيراً وتصرفاً ـ وهو سبحانه المالك على الحقيقة لجميع الأشياء، وكل ما عداه إن مَلَك شيئاً فهو ملك نسبي إضافي، لِيَعْرِف أنه يملك كذا؛ وغيره لا يملك، إذ إنّ المالك والمملوك لله تعالى، لأن المالك لشيء سيتركه يوماً ويملكه ورثته، وهم كذلك سيتركون أملاكهم لمن بعدهم وهكذا.

فَمَنِ المالك على الحقيقة إذاً؟! إنه هو الله تعالى مالك الملك.

وإنَّ المَلِكَ الحقيقي هو الذي يتصرف في الأشياء كما يريد؛ ولا يكون هذا إلا لله وحده، وأما غيره فهو يتصرف في الأشياء كما يُراد فيه لا كما يريد.

أما هو سبحانه فإذا أراد شيئاً فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وهو الغالب على أمره، يعني: إذا أراد سبحانه أمراً فهو غالب على تنفيذه، وأمّا غيره فقد يأمر ويريد ولا يقدر على تنفيذ ما أراد؛ لضعفه وعجزه.

أما هو سبحانه فله القدرة المطلقة التي لا تتناهى، وهو القادر على كل شيء ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى في سورة طه

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ .

لقد ذكر سبحانه في أول هذه السورة وَحدانيَّةَ ربوبيته؛ وعلمه؛ وملكه للأشياء ، بقوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ .

ثم بَيَّنَ سبحانه أنه مُتَسَمٌّ بالأسماء الحسنى ، ومتصف بالصفات العليا ، على وجه منفرد في ذلك فلا يشاركه فيها غيره ، فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وأسماؤه سبحانه لا نهاية لها ، لأن أسماءه سبحانه تدل على الصفات ، وصفاته جل وعلا صفات كمال ، وكمالاته تعالى لا تتناهى ، فأسماؤه سبحانه لا تتناهى .

وإنَّ من جملة الأسماء الإلَهية التي لها خصوصية أَنَّ من أحصاها دخل الجنة ، وهي تسعة وتسعون اسماً ، جاء ذكرها في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهي صيغة تفضيل ، فله الأسماء التي هي في نهاية وغاية الحُسن والجمال والكمال ، على وجه لا يتناهى ، فمَحَاسن وجمال أسمائه سبحانه لا انتهاء لها ، وكل

أسمائه حسنى ، فهو المُنتقم ، وشديد العِقاب ، والانتقام في موضعه هو من صفات الكمال ، بل هو عين الرحمة والعدل وهكذا . . .

وله سبحانه مِنْ كل وصفين متقابلين أكملهما ، ومن كل صفات كمال أعلاها ، فتقول مثلاً : هناك حي وهناك ميت ، وهناك عزيز وهناك ذليل ، والله تعالى له من كل وصفين متقابلين متناقضين له أكملهما وأحسنهما ، فهو حي وعزيز وهكذا . . .

ولذلك له سبحانه من كل صفة كمال أجملها وأحسنها على وجه الانفراد بذلك ، فمثلاً صفة الحياة وهي على أنواع ومراتب ، فالنبات حي ، والإنسان حي ، والملائكة أحياء . أما صفة الحياة في الله تعالى فهي الأكمل والأعلى على وجه لا تشبهها حياة غيره .

ولذلك نبه الله تعالى في القرآن الكريم إلى أن الأسماء التي اتصف بها هو واحد فيها ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهذا توحيد الأسماء الإلَهية .

ولما تأتي كلمة التهليل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ في القرآن الكريم ، فلكل واحدة منها موقعها ، وحكمها ، ودلالتها على نوع من الوحدانية الإلَهية .

وفي قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ توحيد له سبحانه في أسمائه وصفاته ، فهو لا إلَه إلا هو الحي ، وهو لا إلَه إلا هو القيوم ، ولا إلَه إلا هو الرزاق ، وهكذا في جميع أسمائه الحسنى جل وعلا ، ولا أحد يشاركه في صفة من صفاته سبحانه ، فهو سبحانه واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ـ أي :

واحد في كل صفة اتصف بها سبحانه ، على وجه لا يتناهى ولا يُشاركه فيها أحد ـ.

واعلم أنّ للأسماء الإلّهية مدلولات ، فَمِنَ الأسماء ما يدل على الذات ، ومن الأسماء ما يدل على الصفات ، ومن الأسماء ما يدل على جملة صفات.

وهناك الاسم الأعظم ـ بمعنى: أنه الأجمع ـ وهو اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو: اسم دال على ذات الله تعالى ، المتصف بجميع الكمالات والأسماء الحسنى ، فهو اسم جامع ، انطوت في دائرته جميع الأسماء الإلّهية ، وكل الأسماء تتبع اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] وهكذا.

وإنّ كل مَن دعا وسأل الله تعالى باسم الجلالة (الله) يجيبه اسم من أسماء الله تعالى يقتضيه حال هذا الداعي.

فمن كان فقيراً وقال: يا ألله ، أجابه اسم الرزاق ، ومن كان عاجزاً وقال: يا ألله ، أجابه اسم القادر وهكذا. فإنّ الخلائق كلها متعلقة بأسماء الله تعالى ، فهي متعلقة باسم الرَّب ، لأنه يُمدها ويربيها ، وباسم القيوم حتى يُبقي عليها قِوامها ووجودها ، وهكذا تَعَلُّقُ الخلائق بأسماء الله تعالى؛ سواء سألَته ذلك أم لا ، إذ إن حقائق الأشياء وذواتها تسأل الله تعالى أن يُمدها ويُربيها ويغذيها. . .إلخ ، وهناك سؤال للعبد اختياري يسأل ربه في أمور تعرض له.

ويقول سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فجميع الأشياء تسأل الله تعالى بذواتها وحقائقها أن

يُمدها لِمَا خلقها له ، ويَجري هذا السؤال في كل يوم شأني؛ وهو أقل من لمح البصر ، الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧] لأنَّ كلمة يوم تطلق على مُطلق الوقت ، فهناك أيام الرَّب ، وأيام ذِي المَعارج ، وأيام الشؤونات الإلَهية ، وهناك الأيام المعروفة المُترتبة على حركة الأفلاك . . .

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهذا هو سؤال الذات والحقيقة ، لأنّ هناك من لا يسأل الله بلسانه كالكفار والمنافقين.

أما حقائق الأشياء وذواتها فهي تسأل الله تعالى على الدوام أن يُمدها ، ويُبقي عليها وجودها ويرزقها وهكذا.

ومن لاحظ سؤال ذاته ، وقَرَنه بسؤال لسانه ، فله أجر الدعاء ، ومن سأل الله بلسانه دون أن يستشعر فقره الذَّاتي واضطراره إلى ربِّه لم ينل أجر الدعاء ولحُرم الثواب.

وقد يطلق الاسم الأعظم على الاسم الذي إذا دُعي الله به أجاب ، وإذا سئل به أعطى. وجمهور العلماء على أنه اسم معلوم جاء ذكره في أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم.

والاسم الأعظم: هو اسم مُتعدد يشتمل على عدة أسماء إلَهية ، وقد بيَّنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا بد من الدعاء بالاسم الأعظم من حضور القلب أثناء الدعاء ، وقوة اليقين بإجابة الله تعالى ، إذ لا بد للسلاح القوي من يَدٍ عامِرة قوية؛ ولا ينفع السَّيف البتَّار في يد ضعيفة مريضة. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة ،

واعلموا أن الله لا يَستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[1] .

والإيقان: هو كمال الإيمان ، وهو بمنزلة العَيان في التصديق ، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] أي: أنَّ موقفهم بالنسبة لقضايا الآخرة موقف المُعاين لها.

وقد جاء ذِكر ذلك على لسان الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد قال حَنْظَلة رضي الله عنه: (يُذَكِّرُنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة والنار كأنَّا رَأْيَ عين).

فكُن أيها المؤمن في دعائك مُوقناً بإجابة الله ، ولا تَدَع للشك أو الارتياب سبيلاً إلى قلبك ، وسل الله بقلب العابد الخاشع.

وقد أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: (قل لعبادي: لا يختبروني فإني أنا أختبرهم) فلا تُجرِّب ربك في إجابة الدعاء ، فهو سبحانه القريب المجيب ، الذي وَعَد من دعاه بالإجابة ، وهو لا يخلف الميعاد جل وعلا.

وقد سأل رجل الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: أن يُعَلِّمه اسم الله الأعظم ، فأمره أن يغتسل بغدير ماء كان أمامه.

فأمر الإمام جعفر أصحابه أن يمنعوا الرجل من الخروج من غدير الماء إن هو فرغ من الاغتسال ، ففعلوا ذلك ، وكلمَّا أراد الخروج رَمَوه في الماء ، فلما تعب وأخذ الجهد منه مأخذاً كبيراً جَعل يستغيث بهم. فأمرهم الإمام أن لايفعلوا ، فظن الرجل أنهم أرادوا قتله وإهلاكه ، فيئس منهم وتوجه إلى الله بالدعاء. فلما رأى

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات / ٣٤٧٤/ (٩/١٥٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

الإمام منه ذلك قال لأصحابه: أخرجوه، فأخرجوه فجاء إليه وقال له: علِّمني الاسم الأعظم.

فقال له: علمتك إياه ـ أي: علَّمه صدق التوجه إلى الله تعالى وقطع الرجاء من غيره سبحانه ـ.

ومن الأحاديث التي جاءت في بيان اسم الله الأعظم، أنه في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢].

فاسم الله الأعظم ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

وجاء أيضاً أنه في اسم: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ لِمَا ورد أنَّه في فاتحة آل عمران.

وكذلك هو في الدعاء بـ (ذي الجلال والإكرام) لِمَا رُوي أنه صلى الله عليه وآله وسلم مَرَّ على رجل يدعو الله ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال صلى الله عليه آله وسلم: «قد استجيب لك فسل»[(١)].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»[(٢)] أي: الزموا وأكثروا الدعاء بـ يا ذا الجلال والإكرام.

وَمن جملة ذلك الدعاء بدعاء ذي النون: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات في حديث طويل /٣٥٢٤/ (٩/١٨٦) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، /٣٥٢٣/ (٩/١٨٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقد روي هذا الحديث عن عدة من المحدثين، أما رواية (المسند)[١] فقد جاء فيها عن إبراهيم بن محمد بن سعد قال: حدثني والدي محمد، عن أبيه سعد رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد، فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليَّ السلام.

فأتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وكان هذا أيام خلافة عمر رضي الله عنه ـ فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟! مرتين ـ أي: هل تغير في أحكام الله شيء؟ ـ.

قال: لا. وما ذاك؟

قال: قلت: لا. إلا أنِّي مررت بعثمان آنفاً في المسجد، فسلمت عليه فملأ عينيه مني، ثم لم يرد علي السلام ـ وهذا لأن السلام حق المسلم على المسلم، كما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم ـ[٢].

قال فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه. فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟

قال عثمان: ما فعلت.

قال سعد: قلت: بلى. قال: حتى حلف وحلفتُ.

---

(١) (١/ ١٧٠).

(٢) منها الحديث الذي رواه البخاري / ١٢٤٠/ ومسلم / ٢١٦٢/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس».

قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة.

قال: قال سعد: فأنا أنبئك بها. إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من هذا، أبو إسحاق»؟.

قال: قلت: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: «فمه»؟.

قال: قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك.

قال: «نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»[(١)].

وتبين لك من الحديث السابق أنَ السلام حق من حقوق الإسلام، أوجبه الله تعالى على المسلمين فيما بينهم، والبدء به سنة مؤكدة، وردُّه واجب، وَيُسلم الماشي على القاعد، والفرد على الجماعة، وإن إفشاء السلام يورث المحبة والمودة فيما بين

---

(١) ولما حلف عثمان رضي الله عنه حلف على ما يعتقد أن سعداً رضي الله عنه لم يسلم عليه، ثم لما تذكر تبين له أن سعداً رضي الله عنه مر به وسلم عليه.

المؤمنين. كما بَيّن هذا كله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١].

ومن الحقوق الإسلامية أيضاً حق الطريق، فقد أوجب الإسلام على الجالس في الطريق ـ إن اضطر إلى ذلك ـ أوجب عليه حقوقاً جاء بيانها عنه صلى الله عليه وآله وسلم وهي: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأن تهدوا الضال، وتغيثوا الملهوف»[٢].

ولا بد أن الله تعالى يوصل إلى كل ذي حق حقه، لأنه الله الملك الحق الذي يحكم بالحق والعدل.

فَارْعَ حقوق الله، وحقوق عباده، وآتِ كلَّ ذي حق حقه في الدنيا؛ قبل أن يُقتص منك ذلك في الآخرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

(١) ينظر (الترغيب) للحافظ المنذري (٣/ ٤١٢) وما بعدها.

(٢) ينظر (الفتح) (١١/ ١١).

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ
بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ
حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

لقد جاءت هذه الآيات بعد أَنْ أفاض الله تعالى على موسى عليه السلام النُّبوة والكمال ، وعرَّفه التعريف الخاص بمقامات التوحيد والتَّفريد ، ثم نقله سبحانه إلى مقام التكميل ليُكمِّل به الأقوام الذين أُرسل إليهم ، وهم الأقباط وبنو إسرائيل .

وإن في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ مُقدمةً وإعداداً لموسى عليه السلام لإرساله إلى فرعون وقومه ، وإقامةِ الحُجَّة والبُرهان عليهم ، وإظهار البيِّنات العقلية والكونية لهم .

وليس قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ سؤال استفهام واستعلام ، فالله تعالى يعلم الأشياء وحقائقها وأسرارها وخباياها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك : ١٤] ولكنه تقرير لموسى عليه السلام لِمَا يعرفه من ظاهر ما يحمل أنها عصا ، وهو سبحانه يريد أن يُظهر له أسراراً وعجائب من هذه العصا التي بيده عليه السلام .

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ جاء كلام موسى عليه السلام فيه الإطناب والإسهاب؛ تلذُّذاً وتنعماً بمناجاة ربِّ العالمين ، وهذا لأن مقام مناجاة ومكالمة ربِّ العالمين مقامٌ كبير ، فيه من اللّذة والنَّعيم ما لا يقدِر مخلوق على وصفه.

وأعظم من نال ذلك هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي نال مقام مكالمة رب العالمين كفاحاً بلا حجاب ، أما سيدنا موسى عليه السلام فقد سمع كلام الله تعالى لكن من وراء حجاب.

قوله تعالى: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ أي: هذه عصا أخذتها من شُعيب عليه السلام ، لمَّا استرعاني غنمه ، فقد خرجت هذه العصا من بيت نبوة ـ ويقال: إنها مَوروثة من سيدنا آدم عليه السلام ، توارثتها عنه الأنبياء؛ إلى أن صارت إلى موسى عليه الصلاة والسلام ـ.

وإن الله تعالى في خَلْقِهِ عجائب وخصائص ، فكما يخصُّ بعض البشر بخصائص ، يخص بعض العُصُيّ بعجائب.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: هي عصاي التي حصلت عليها من شعيب عليه السلام ، وأستعين بها في أموري ، وأتوكأ مُستريحاً عليها أحياناً لمَّا أرعى الغنم ، وأتوكأ عليها أيضاً إذا مشيت.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ فكما أن فيها منفعة لي ، وللغنم أيضاً ، إذ كنت أقطِّع بها بعض أوراق الأحراش والنَّباتات الجبليَّة وأُسقطها حتى ترعاها الأغنام(١).

---

(١) الهش في اللغة هو: القطع والتكسير ، وجاء قوله: ﴿وَأَهُشُّ﴾ متعدياً بعلى ، =

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولي فيها منافع أخرى ، منها أنه عليه الصلاة والسلام كان يستظِل بظِلّها؛ مع أنها عصا رفيعة لكن لها خصوصية: إذا استظَل بها موسى عليه السلام ظلَّلته.

ولقد سَلَك سيدنا موسى عليه السلام في جوابه مَسلك الإطناب والإسهاب في الكلام ، لأن المقام مقام محبة وقُرب.

وهذه البلاغة التي أُوتيها موسى عليه السلام هي بتكليم رب العالمين سبْحانه وتعالى.

وإنّ أبلغ البلغاء ، وأفصح الفصحاء ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، مع أنه نشأ أُمياً ، لكن الله تعالى أفاض عليه علم الأولين والآخرين ، وعَلِمَ كل شيء ، وخصَّه بالكلام البليغ الذي يبلغ الصَّميم والقلوب ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] فكان كلامه صلى الله عليه وآله وسلم يبلغ صميم القلوب ، وهذه هي البلاغة على الحقيقة ، وليست البلاغة ما أطرب السَّمع من كلمات.

ولو أراد موسى عليه السلام الاختصار والإيجاز في الجواب لقال لمَّا سأله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لقال: عصا[1].

لكن جوابه جاء مُسهباً مطوَّلاً ، وذلك لتطول مناجاته مع رب العالمين.

وجاء قوله عليه السلام: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ طَمَعاً منه أن

= ليفيد معنى تساقط الأوراق على الغنم حتى ترعاها؛ حين لا تجد عشباً في الأرض.

(١) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي.

يسأله الله تعالى أَنْ يُعدِّد هذِه المآرب ، فتطول المناجاة .

وإنَّ من جملة نعيم أهل الجنة محاضرة الله تعالى لهم في الجنة ، كما جاء في الحديث أنه تعالى يحاضرهم محاضرة[(١)] ـ أي : يكالمهم مكالمة ـ وهم يسمعون ويطربون ، ويَتَنَعمُون ويتلذَّذون . نسأل الله ذلك من فضله .

ولمَّا قرَّر الله تعالى موسى عليه السلام على ما في يمينه أنَّها عصا ، وذكر له غَرَضه منها ، أراد سبحانه أن يكشف له عن الحقيقة التي انطوت عليها هذه العصا ، وما أودع الله فيها من خصائص وعجائب ، فقال له : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ وإنَّ تكرار قوله تعالى : ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ في كلِّ خطاب هو تكريم لسيدنا موسى عليه السلام ، وهو نداء مُحب لمحبوبه ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : ٣٩] .

أمَّا الحبيب الأعظم ، وأحب الأحباب إلى رب العالمين ، فهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أي : صارت حيَّة حين ألقاها فوراً ، وجاء في آية أخرى : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٧] إذ كان طُولها أربعين ذراعاً ، وهي ضخمة كبيرة . والثُّعبان : هو الحيَّة الكبيرة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أي : شديدة الحركة والسرعة ، وإن كانت ضخمة في جسمها ، فهي من حيث الجسم

---

(١) كما في (سنن) الترمذي كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء في سوق الجنة / ٢٥٥٢/ (٧/ ٢٢٧) وابن ماجه أواخر كتاب الزهد / ٤٣٣٦/ .

ثعبان كبير ضخم ، ومن حيث سرعتها ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١] أي: كأنها حية صغيرة سريعة الحركة ، ولما رأى ذلك موسى عليه السلام اعتراه الخوف منها ، كما قال تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١] وهذا الخوف بحكم بشريّته عليه السلام ، إذ إنَّ الإنسان مفطور على النُّفور من المُخِيْفات.

فناداه رب العالمين: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ فلما قال له تعالى: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ ارتفع الخوف من قلبه وأخذها ، وهذا الأمر الإلّهي أمر تكويني نافذ ، وليس أمراً تكليفياً. ولما أخذها موسى عليه السلام إليه عادت عصا كما كانت.

ولا تعجب من ذلك فإن الله تعالى قادر على كل شيء ، وهو سبحانه يُظهر من الخفايا خبايا ، كما أخرج من الصخرة ناقة حبلىٰ؛ لمَّا طلبت ثمود من سيدنا صالح عليه السلام ذلك ، وعيَّنوا له صخرة كبيرة قديمة في الوادي ، وعندها سأل صالح عليه السلام ربّه في ذلك فتَمَخَّضت الصخرة ، وولدت ناقة حبلى كما طلبوا ، ثم ولدت الناقة فصيلها ، ومكثت فيهم مدة طويلة ، ومع ذلك جحدوا واستكبروا واستمروا على كفرهم وعقروا الناقة ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي: تركض بسرعة ، وسُميت الحيَّة بذلك لأنها تتحرك بجسمها كله ، ولو قطع منها شيء لبقيت تتحرك إلى أن تذهب منها الحياة.

وقال بعض العارفين رضي الله عنهم في ذمِّ النفس الأمارة بالسوء: والنفسُ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ، ما دامت حَيَّةً تسعىٰ. أي: فليحذر

المؤمن من أذاها ، وعليه أن يُلجمها بلجام الشريعة ، حتى يرتقي بها إلى مقامات النفس المطمئنة .

وإنَّ في إلقاء موسى عليه السلام للعصا ، وانقلابها إلى حية تسعى ، ثم عودتها إلى عصا إن هو أخذها : تمهيداً وتعليماً لموسى عليه السلام لإقامة البرهان القاطع على صدق نبوته ورسالته على من عصاه، وهذا من باب تعليم استعمال السلاح حين الحاجة إليه .

وهذا ما حصل له لمَّا أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون ويأمره بتوحيد الله تعالى ، ويبيِّن له الحجة العقلية في ذلك ، فلمَّا عاند وعارض وعصى موسى عليه السلام ، أمره الله تعالى أن يُرِيَه ما انطوت عليه عصاه[١] كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي : وهذه معجزة أخرى أعطاها الله تعالى لموسى عليه السلام ، وهي أن يَمُدَّ يده اليُمنى إلى طَرَفه الأيسر ـ أي : الإبط الأيسر ـ مُروراً بالقلب ، ثم يخرجها فإذا هي بيضاء مُنيرة باهرة النُّور . وفي ذلك إشارة إلى نور الشريعة التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام .

أما نور سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكان ظاهراً في وجهه الشريف ، وفي طلعته البهية المُشَرَّفة ، كما وصفته الرُّبَيِّع بنتُ معوِّذ رضي الله عنها لمَّا سئلت عن ذلك فقالت : (يا بنيَّ لو رأيته لرأيت الشمس طالعة)[٢] .

---

(١) وفي إلقاء موسى عليه السلام للعصا إطلاق لها من قدرته المحدودة المقيدة إلى قدرة الله تعالى المطلقة .

(٢) رواه الدرامي في (سننه) المقدمة (١/ ٣١).

وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] كما وصفه الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿جَنَاحِكَ﴾ وتسمى أيادي الإنسان ـ أي: أطرافه ـ تسمى أجنحة، لأنه يستعين في مشيته بها، كما لا يطير الطير إلا بهما.

وإنّ المشية الصحيحة التي تعود على الإنسان بالنفع والفائدة هي أن يمشي محركاً يديه على وجه السنة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ وجاء في آية أخرى: ﴿فِى جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢] والجيب في اللغة هو: المجبوب ـ أي: المقطوع ـ من قولك: جاب يجوب ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] أي: قطعوا الصخور من الوديان، وهذا يدل على أن الله تعالى سخر لهم قوة تُعينهم في ذلك، كما سخر لأهل هذا العصر قوة كهربائية أو ذرية يستعينون بها في أمور معاشهم وحياتهم، إذ لا يستطيع الإنسان أن يقطع الصخر بيده دون استعانة بقوة أخرى.

والجيب هو: أعلى وسط الصدر، حيث يكون ثوبه عنده مقطوعاً. وأما تسمية موضع النقود بالجيب فهو من باب العرف.

قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: لا ضرر يُصيب مَنْ نظر إلى نورها الشديد.

قوله تعالى: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: أعطيناك هذا آية أخرى، حتى تستعملها في موضعها.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وذلك حتى يرى بنو إسرائيل ويشاهدوا نور الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام، وذلك لأنّ بني إسرائيل كانوا يتصفون بالغباء ونقصان العقل، حتى راحوا يسألون موسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

وبلغ من سخافة عقولهم أنهم سألوا موسى عليه السلام ـ لما مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم ـ ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] كل ذلك بعد أن رأوا قدرة الله تعالى، وكيف فلق البحر لموسى عليه السلام، وأنجاهم وأغرق آل فرعون.

وأما أمّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهي أكمل عقلاً، وأوسع فهماً، فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبينات العقلية، والمعجزات الكونية، وَنُور شريعته ظاهر وَضَّاء، يشهده كل من نظر إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنْ كان سيدنا موسى عليه السلام قد استعمل العصا، فقد استعمل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحصى، فرمى بكف من الحصى وجوه أعدائه يوم هجرته فأعماهم الله تعالى، ورمى بكف من الحصى وجوه أعدائه يوم بدر فأصابهم كلهم وولوا مدبرين، ورمى بكف من الحصى وجوه أعدائه يوم حنين فانهزموا وتركوا وراءهم الغنائم للمسلمين، كل ذلك بقدرة الله تعالى الذي قال له: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولما فارق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجذع اليابس الذي كان يستند إليه لما يخطب بالصحابة الكرام؛ لما فارقه

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المنبر؛ صاح الجذع وأنَّ وَحَنَّ حنين الناقة إلى ولدها ، ولم يَسكن حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضمه إليه ، وَهَدَّأه كما تُهَدِّيء الأم ولدها[١].

كما أَنَّ القمر في السماء قد انشق لطلعته البهية ، لما طلب المشركون منه ذلك؛ ثم أشار إليه بيديه فعاد والتأم.

فكانت معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم متنوعة ، تُفحم المعاند الذي لم يَقبل بالبراهين والبينات العقلية ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وكما أَنّ الله تعالى لم يجعل نُبوته ورسالته إلا فيمن اصطفاهم لذلك ، وأعدهم وأَمَّدهم لذلك ، وهو سبحانه يَعلم من هو لائق لذلك بالعلم الأزلي الذي لا أول له ، كذلك يَهَب سبحانه ولايته.

ولا تُنال الولاية بالدعوى والتظاهر ، إذ ليس كل من حمل عصا موسى عليه السلام صار موسى ، كما أن عصا موسى لا تَعمل إلا بيد موسى عليه السلام.

وقد وَرِث بنو إسرائيل عصا موسى عليه السلام (الغَرَارَة) وعمامته في صندوق محكم يسمى: (التابوت) وكانوا يستنصرون الله به على أعدائهم ، وقال الله تعالى في ذلك: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ

---

(١) وقد بلغ حديث الجذع حد التواتر.

مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٨].

ولم يتغلب عليهم بُخْتَنَصَّر إلا بعد أن استولى على التابوت، ثم إنهم استردوه منه، ثم أخفاه الله تعالى لِحِكَمٍ يريدها سبحانه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة قصة موسى عليه الصلاة والسلام، وأنَّه لمَّا كان في طريقه مِنْ مَدْيَن إلى مصر تراءت له نار مِنْ بعيد، فلمَّا أقبَل إليها إذا أنوار باهِرة، وهناك تجلَّى الله تعالى عليه، وكلَّمه ونبَّأه، ولم يكن هذا عن ميعاد سابق لموسى عليه السلام؛ كما هو شأن التَّكليم الآخر، لَمَّا وعده ربُّه بالتكليم وإنزال صُحف التوراة عليه ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وكان موسى عليه السلام خلال هذه الفترة يُعد نفسه، ويُهيِّئها لمقام التكليم، وذلك بالصيام والعبادة، حتى تجلَّى الله عليه بالتكليم يوم عيد الأضحى.

ومن هنا يفهم المؤمن أنَّ للأعياد في الإسلام اعتباراً وأحكاماً، وفضائل كثيرة عند الله تعالى.

وكان من جملة ما كلَّمه الله تعالى لموسى عليه السلام في التكليم الأول، ما أخبر عنه سبحانه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ

عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧ ـ ١٩]. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

وهكذا صار موسى عليه السلام في مقام التجرد عن كل شيء، إذ أُمر أَنْ يَخْلع نَعليه، ويُلقيَ ما في يمينه.

ومن أراد أن يخلع الله عليه خلع القبول والرضا: فليخلع ما عليه، وليُلق ما عنده حتى يُلقيَ الله عليه. فعلى العبد التخلية ومن الله التحلية.

فقوله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ أَمْرٌ لموسى عليه السلام أن يتجرد عن حوله وقوته إلى حول الله وقوته، ولم تظهر أسرار تلك العصا وخصائصها إلا بعد أن ألقاها ـ أي: أطلقها من قيده إلى قدرة الله تعالى المطلقة ـ فكان منها ما كان.

ولما أمره الله تعالى أن يأخذها: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١] صارت قوته بالله، وصار يَفعل بالعصا ما يريد.

وكان من جملة ما أعطى الله موسى عليه السلام آيتان ـ أي: علامتان كبيرتان ـ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣] وهي العصا، واليد البيضاء، وكل آية تدل على أَنَّ موسى عليه السلام رسول الله حقاً.

والعصا يُلقيها على مَن عصاه، ونور يده يَدُل على نور الشريعة التي جاء بها، حتى يَرى ذلك بنو إسرائيل عياناً.

وقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نوراً في وجهه وذاته وطلعته صلى الله عليه وآله وسلم، حتى كان

الناظر إليه يقول: (الشَّمس طالعة)[1] صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا قيل: وهل رأى ذلك أبو جهل وغيره من الكفَّار ولم يؤمنوا؟.

فيُقال: لقد نظروا إليه بقلوب مُنكِرة مُستكبِرة، على أنَّه يتيم أبي طالب، ولم يَتعقَّلوا ويتدبَّروا في نظرهم أنَّ الله تعالى أكرَمَه وأرسله.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وكم من بصير بعينه ولكن قلبه أعمى؛ فلا يرى إلا ظواهر الأمور، ولا يتعقَّل في حقائقها. ونسأل الله تعالى العافية.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: بعد أن نبَّأه الله تعالى، وأفاض عليه الكَمَال أرسله ـ جعله رسولاً ـ فأمره أن يذهب إلى فرعون وملئه.

﴿طَغَىٰ﴾ أي: جاوز حدَّه المحدود له، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: لمَّا جاوز الماء حده، وارتفع على وجه الأرض ارتفاعاً كبيراً؛ حتى غَمَر الجبال.

---

(١) كما في (سنن) الدارمي (١/ ٣١).

وهل يعني هذا أنَّ الماء عصى ربه؟

فاعلم أنَّ الماء ما جاوز حدَّه إلا بأمر الله تعالى ، فهو من جهة امتثال أمر الله تعالى مُطيع ، وأمَّا من جهة العالم فقد جاوز حدَّه وطغى. فهو مطيع من جهة طاغٍ من جهة.

وهذا الخطاب هو لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين ، وهو سبحانه يَمْتن عليهم ويذكِّرهم بنعمة الله عليهم إذ كانوا في صُلب أولاد نوح عليه السلام الذين نجَّاهم الله تعالى ، ولو أنَّه سبحانه ما أراد حفظهم لجعلهم في أصلاب الكفرة من قوم نوح عليه السلام؛ الذين أغرقهم الله تعالى : ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ فهل هناك مَنْ يتذكَّر نِعْمة ومنَّة الله عليه؟ ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]. فاحمَد الله واشكره على نعمته عليك؛ أن خَلَقَك وحملك في أصلاب من نجَّاهم من أولاد نوح عليه السلام ، ثمَّ شرَّفك وكرَّمك بأن أرسل فيك خَير خَلْقه ، وأكرم رسله ، سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، فاذكر الله على نعمته عليك ، وَكُنْ مِمَّن وَعَت أذنه عن ربِّ العالمين هذا التذكير الإلّهي ، لا مِمَّن صمَّ أذنيه عن سماع الحق.

ولقد جاوز فرعون حده البشري ، وأنه عبد مخلوق ، وراح يتطاول ويدعي الربوبية ، ولا طغيان أعظم من طغيان فرعون في دعواه. ولو كان هو رب نفسه لأغناها عن الأكل والشرب ، والتَّغوط والتبول ، فكيف ادَّعى أنه رَبُّ غيره أيضاً؟!

وقد طرق إبليس الباب على فرعون مرَّة فقال له: مَن؟

فقال له: تَـبَّاً لرب لا يعرف مَنْ وراء الباب. ساخراً منه مع أنَه الذي ضَلَّله وأغواه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٦] وقد سأل ذلك سيدنا موسى عليه السلام، لأنَّ الذهاب إلى فرعون وهو جبار طاغية ظالم، ومن ناحية أخرى فهو يُكِنُّ في صدره حِقداً وعداوة قديمة على موسى عليه السلام، بسبب قتله للقِبطي لمَّا كان في مِصر قبل أن يذهب إلى مَدْيَن.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وقد سأل ذلك موسى عليه السلام لأنَّ صدره يَضيق من لقاء فرعون، فلا تناسب ولا تقارب بينهما. فموسى عليه السلام نبي الله وكليمه، وذو نفس ربَّانية سامية، طاهرة طيِّبة، وأما نفس فرعون فنفس مظلمة سُفلية طاغية.

وقد شرح الله تعالى صدر موسى عليه السلام ـ أي: وسَّعه لأن يتحمَّل ذلك العِبء ـ.

قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ولم يأت دعاؤه بجملة أخرى كقوله رب اشرح صدري. نعم إن قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ فيه إلحاح في الدعاء، وكأنَّه دعا ربَّه مرَّتين، فقوله: ﴿ٱشْرَحْ لِي﴾ أي: صدري. فكأنه قال: رب اشرح لي، رب اشرح صدري.

وقوله: ﴿لِي﴾ أي: شرحاً خاصاً بي، إذ إنّ كل مؤمن لم يؤمن إلا بعد أن شرح الله صدره ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهذا الشَّرح عام للهداية للإسلام.

وأما سؤال موسى عليه السلام فكان سؤال الشَّرح الخاص.

وقد نُودي الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: شرحاً خاصاً لائقاً بمقامك. وهو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم مَنْ نال ذلك من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذلك كان الخطاب بقوله تعالى: ﴿لَكَ﴾ أي: على وجه خاص بك.

والشرح في اللغة يعني: التَّوسعة، وشرَّح الأمر أي: وسَّعه، والمكان المُنشرح أي: المُتسع المنفتح.

ولمَّا يريد الله تعالى هداية عبده للإيمان يشرح صدره، أي: يوسِّعه لتلقي نور معرفته تعالى، فينزل النور على هذا الصدر المنشرح، وبه يهتدي صاحبه إلى الله ويؤمن بالله تعالى.

ولا يمكن لأحد أن يهتدي إلى الله تعالى إلا بنور من الله تعالى، كما لا تَرى نور الشمس إلا بنورها، وهذا لتقريب الأمر إلى العقل؛ لا للتَّشبيه أو التَّمثيل جل وعلا.

وإذا أردت توسعة ـ شَرْحَ ـ مكانٍ ما، فهذا يعني أَنك تريد إملاءه باستقبال ضيوف مثلاً، أو غير ذلك، ولمَّا يشرح الله صدر عبد أراد هدايته فهذا ليملأه سبحانه، ويُفيض عليه من أنواره وأسراره.

والصَّدر: هو ساحة القلب كالسَّاحة حول الدَّار، ولا بُدَّ من دخول النور بالمرور على الساحة، وإذا امتلأ الصدر بالأنوار فهذا يعني أنها ستدخل إلى القلب وتملأه أيضاً، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وبهذا النُّور يَعرف العبد ربَّه، ويؤمن به، ويشهد أن لا إلَه إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الشرح

الإلَهي عام لكل مؤمن ، وَيختلف على حسب مراتبهم في الإيمان .

وهناك من شَرَحَ صدره للنبوة والرسالة ، ومنه قوله تعالى مُخبراً عن موسى عليه السلام : ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ وهو شرح خاص لائق بموسى عليه السلام ، حتى يكون مُستعداً لحَمل أعباء الرسالة ، ومقابلة فرعون وقومه ، وإقامة الحجَّة عليهم .

وإن أعظم من شرح الله صدره من الرسل عليهم الصلاة والسلام هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي شرح الله له صدره شرحاً كبيراً ، حتى وَسِع جميع العالمين ، وأنزل عليه نوراً باهراً قاهراً تعجز عن حمله السماوات والأرض وما هنالك ، وقد امتن الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فقال له : ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ وهذا استفهام تقريري ، والمعنى : قد شرحنا لك صدرك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، بإقرارك واعترافك ، وقوله تعالى : ﴿لَكَ﴾ أي : شرحاً خاصاً بك ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ والوزر هو : الحمل ، وليس المراد منه في الآية الذنوب .

ويطلق الوزر أحياناً ويراد منه الذنب ، لأن المذنب الذي مات ولم يتب من ذنبه يأتي يوم القيامة وهو يحمل ذنوبه على ظهره كالأحمال ، قال الله تعالى : ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر : ١٨] .

أما معنى الوزر المراد في قوله تعالى : ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ فهو القيام بأداء الرسالة ، وتبليغ الدعوة إلى الله تعالى ، وهداية الناس كلهم .

ولقد كان كل رسول يُرسَلُ إلى قومه خاصة ، أو إلى أقوام

مُعَيَّنِيْنَ ، كموسى عليه السلام الذي أرسله الله تعالى إلى الأقباط وإلى بني إسرائيل.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أرسله الله تعالى إلى الناس كافة ، على اختلاف أممهم وأديانهم ، في وقت انتشر فيه الجهل والضلال والكفر على وجه الأرض ، واستحكمت الظلمة؛ إلا ما كان من أفراد قلائل بقوا على التوحيد.

فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. فما أعظم مهمته صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلك فقد نال شرحاً لصدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم خاصاً به ، لائقاً بالقيام بأعباء رسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

وما أعظم النور الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم حتى نقل العالم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور التوحيد والإيمان ، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وهذا لبيان حال العالم قبل بعثته صلى الله عليه وآله وسلم وبعد بعثته. فقد كانوا في ضلال مبين ، وظلام مستحكم ، ثم أخرجهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك الظلام والضلال إلى النور الباهر الساطع ، كما يَجيء النهار بِرَونقه وضيائه ويزيل ظلمة الليل المستحكمة.

ولقد وصف الله تعالى الشمس الفلكية التي تنير وجه الأرض المقابل لها ، وكذا الكواكب المتوجهة إليها؛ وصفها سبحانه بالسراج الوهاج فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣] وفي نور الشمس وهج وحرارة تُضر الناس إذا زادت في شدتها ، كما أنهم يستغنون عنها أحياناً كما هو في الليل.

أما نور سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو نور استضاءت به العوالم العرشية كلها ، وهو نور كلّما استزاد الإنسان منه ازداد إيماناً وخيراً وكمالاً ، ولا يُمكن لأحدٍ أن يستغني عنه ولا للحظة؛ لأنه به ثبات ودوام الإيمان والهدى والتقى ، وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦].

فهو نور يُنير العقول والأرواح ، والأجساد والقلوب ، كما أن نـور رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه وسلـم يضـيء كـرة الأرض بأجمعها ، وأما الشمس الفلكية فهي تُضيء ما قابلها من كرة الأرض ، وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة : ١٥].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ .

ولقد كان هذا التكليم الإلٓهي لموسى عليه السلام من غير مِيعاد سابق ، وهو التكليم الأول لمَّا كان موسى عليه السلام في طريقه مِن مَدْيَن إلى مِصر .

وقوله تعالى : ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه : ٤١] يدل على كرامة موسى عليه السلام على الله تعالى ، إذ يُخبره أنَّه سبحانه وتعالى اصطنعه اصطناعاً خاصاً ، إذ نشأ على عناية الله الخاصة ، وهذا مقام الاصطناع الذي نالته جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كلٌّ على حسب مقامه ودرجته عند الله تعالى .

وأعظم من نال ذلك هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي حفَّته العِناية الربانية في جميع العوالم ، وقال الله تعالى له : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨] .

وإنَّ جميع المخلوقات هي صنع الله تعالى : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] .

لكنه سبحانه اصطنع[١] رسله عليهم الصلاة والسلام على مراتبهم اصطناعاً خاصاً بعناية خاصة ، وخصَّهم عن غيرهم من البشر بخصائص وفضائل ومكارم لم ينلها غيرهم.

قوله تعالى: ﴿لِنَفْسِي﴾ يدل على مقام الاستخلاص. أي: أن كل وِجهتك يا موسى هي لي ، وليس لك وِجهة لغيري.

وأعظم من اصطنعه الله وأخلصه واستخلصه هو: سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي كان يقول في توجهه: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذي فطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنا مِنْ الْمُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» الحديث كما رواه الإمام مسلم[٢] عن سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ وهي آيات التكوين وآيات التدوين ، وهي الأوامر الشرعية التسعة التي سيأتي بيانها إن

---

(١) وزيادة المبنىٰ تدل على زيادة المعنى ، كما هو معروف في بلاغة العرب.

(٢) في كتاب صلاة المسافرين ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه / ٧٧١/ (٢/ ٨٥٧).

شاء الله تعالى. وأما آيات التكوين فهي العصا واليد البيضاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا[1] فِي ذِكْرِي﴾ أي: ولا تضعفا في ذكري، ولا تفترا في ذكري، بل أكثرا من ذكري، فإنّ ذكركما لي دَعم وقوة لكما.

واعلم أن ذكر الله تعالى قوة وحصانة وحرز للذاكر، وينبغي الإكثار منه في المهمات والشدائد، كما أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام بذلك، لَمَّا أمرهما بالذهاب إلى فرعون وهو ظالم طاغية، لكن الإكثار من ذكر الله تعالى جعل موسى وهارون عليهما السلام في أمان الله وحرزه.

ومن ذلك أَمْرُ الله تعالى للمؤمنين المجاهدين، أن يكثروا من ذكره سبحانه وتعالى إنْ هم باشروا قتال الأعداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: (إنّ عبدي كُلَّ عَبْدي من يذكرني وهو ملاق قِرْنه)[2] ـ بكسر القاف وسكون الراء ـ أي: خصمه وعدوه.

وقد جاء في الأحاديث أَنّ الله تعالى جليس من ذكره، وهو مَع الذاكر بالمعية الخاصة[3] ـ على حسب قوة ذكره وخشوعه

---

(١) ونى: ضعف، يني: يضعف، والأمر (نِ).

(٢) الحديث كما في (سنن) الترمذي، كتاب الدعوات، باب من أدعية الإجابة /٣٥٧٥/ (٩/ ٢١٨) عن عمارة بن زعكرة.

(٣) منها الحديث الذي رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ /٧٤٠٥/ (٣/ ٣٨٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء =

ومشاهدته لله تعالى ـ ومن كان الله معه فهو في حرز الله وأمانه، ومدده سبحانه.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يذكروه ذكراً كثيراً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]. وقال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فما هو حد الكثرة في ذكر الله تعالى، وَمِنْ أين يُفهم؟

نعم يُعرف هذا من سيرة من كان خُلُقُه القرآن صلى الله عليه وآله وسلم، والذي نال أعلى مقام في كثرة ذكر الله تعالى، لأنه أعظم مَنْ ذكر الله وأكثر من ذكر الله تعالى.

ويجب أَنْ تفهم أيها المؤمن أن حاله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقواله وأفعاله، وأخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم هي بيانات للقرآن الكريم، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله تعالى على كل أحيانه)[1] أي: في جميع أحواله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك أذكار خاصة وردت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في أوقات خاصة، ومناسبات معينة، وقد صنف لها المحدثون كتباً

= والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى / ٢٦٧٥/ (٥/ ٢٥٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني» الحديث وسيورده الشيخ الإمام تاماً ص/ ٢٧٨/.

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الطهارة، باب ذكر الله تعالى في حالة الجنابة وغيرها / ٣٧٣/ (١/ ٥٤١).

كثيرة [ومنها كتاب (الدعاء) لفضيلة الشيخ الإمام الوالد رضي الله تعالى عنه].

وهناك الاستغفار والتهليل الذي جاء في فضله أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه البخاري وغيره[(١)]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قال: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير - في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، وَمُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسيَ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به؛ إلا أحَدٌ عَمِلَ أكثر من ذلك».

فمن تواردت عليه الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية فليكثر من هذه الصيغة.

وكذلك ما جاء في فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمن ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه الطبراني[(٢)] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ومن صلى عليَّ عشراً صلى الله عليه مائة، ومن صلى عليَّ مائة كتب الله تعالى له بين عينيه براءةً من النفاق، وبراءة من النار، وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء» [وارجع إلى كتاب

---

(١) البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنود، /٣٢٩٣/ (٦/٢٣٨)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء /٢٦٩١/ (٥/٢٥٩٧).

(٢) (مجمع الزوائد) (١٠/١٦٣).

(الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) لفضيلة الشيخ الإمام الوالد رحمه الله تعالى تجد فيه ما ينفعك ويفيدك إن شاء الله تعالى].

فَمَنْ أعطى كل وقت حقه من الذكر، وذكر الله تعالى بالأذكار الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في المناسبات؛ فقد ذكر الله تعالى كثيراً.

وعلى الذاكر أن يأخذ بجميع أنواع الذكر الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يقتصر على نوع معين، وليكن له وقت خاص يقرأ فيه شيئاً من القرآن الكريم، بحيث لا تتجاوز مدة ختمه للقرآن الكريم شهراً واحداً، وإنَّ القرآن الكريم يأمر المؤمن أن يذكر الله تعالى بأنواع الذكر كله، وبالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبدعاء الله تعالى، والتضرع إليه سبحانه.

وليكن للمؤمن وقت يذكر الله فيه بالتهليل والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا يُعرف كل هذا من أفعاله وأذكاره صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن فوائد ذكر الله تعالى: تقوية الإيمان في القلب، والحفظ من مكايد الشيطان ووساوسه، وإنَّ ذاكر الله تعالى تتوارد على قلبه ملائكة الله تعالى، وَيَعْمر قلبه بالسكينة والطمأنينة، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وكذلك العبد لا يُحْرِزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى» الحديث كما في (سنن) الترمذي[1].

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة /٢٨٦٧/ (٨/ ٧٦) عن سيدنا الحارث الأشعري رضي الله عنه.

وروى ابن أبي شيبة وابن جرير[1] ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ قال : (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا سها وغفل وسوس)[2] .

وقال تعالى : ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ يضعف[3] ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ﴾ نسلط ﴿لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف : ٣٦] أي : ملازم .

وإذا كان هذا هو شأن مَنْ ضعف عن ذكر الله تعالى ، فما بالك بمَنْ عَمِي عن ذكر الله تعالى؟!!

نعم إن الشيطان يَسكن قلبه وقتئذ . نسأل الله العافية .

والشيطان عدو للإنسان ، أَعلن عداوته له منذ طرده الله من رحمته ، وعداوته ظاهرة بَيِّنة ، ويجب الاحتراز والتحصن من هذا العدو الذي يسعىٰ في الإغواء والإضلال ، وقال تعالى : ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ﴾ أي : تتبعوا ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس : ٦٠] أي : لأنه لكم عدو مُبينٌ بَيِّنُ العداوة ، بخلاف العدو الذي يُخفي عداوته .

قوله تعالى : ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي : لا غلظة فيه ولا خشونة ،

---

(١) كما في (الدر المنثور) للحافظ السيوطي عند تفسير سورة الناس .

(٢) وقد أخرجه الحاكم في كتاب التفسير (٢/٥٤١) موقوفاً ، والطبراني مرفوعاً (مجمع الزوائد) (٧/١٤٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه . كما ذكر ذلك الحافظ في (الفتح) (٨/٧٤١) .

(٣) الأعشى : هو الذي يضعف بصره عند دخول عتمة الليل ـ أي : بعد العشاء الأولى ـ وأما الأعمى : فهو فاقد البصر ، وإنْ كان العمى الحقيقي هو عمى القلب . ونسأل الله العافية .

لأنَّ المقام مقام دعوة إلى الله تعالى ، وليكن ذلك عن طريق العرض بالكلام اللين.

وقد أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخاطب فرعون بأحَدِ كُناه المعروفة بين قومه وقتئذ. ومنها أبو مصعب ، وأبو مرة ، وأبو الوليد ، وغيرها من الكنى ، ولا يُغلظ عليه بأن يناديه: يا جبار يا ظالم مثلا؛ لئلا ينفر ويبطش.

وأما في موقف المجاهدة فينبغي إظهار الغلظة وقتئذ ، لقوله تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الآية [التوبة: ٧٣]. وهذا لا يكون إلا بعد الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبيان الحق ، ولا يصار إلى المحاربة والمجاهدة إلا بعد أن ينفر الخصم وَيُعرض ، ويتكبر عن قبول الحق.

وإنَّ القول اللين الذي قاله موسى عليه السلام لفرعون هو ما ذكره سبحانه في سورة النازعات: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ فجاءت دعوة موسى عليه السلام لفرعون بأسلوب العرض ﴿هَل لَّكَ﴾.

وقد دعاه أوّلاً إلى طهارة النفس من دَنَسِ الكفر والآفات النفسية ، وهذا قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تتطهر من رعونات النفس وحماقاتها ، وإذا كانت النجاسات البدنية الظاهرة تطهر بالماء؛ فإنّ دنس النفس لا يَطْهر إلا بماء الإيمان ونور الحق النازل على القلب من عند الله تعالى.

وإنَّ جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام قد أُرسلوا إلى أقوامهم ليدعوهم إلى الله تعالى وليزكوهم. وإنّ أعظم من جاء يُزكي العالمين هو: سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، كما

قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

والتزكية: هي التطهير، وإذا طَهر الشيء نما، فالتزكية تدل على التطهير من جهة؛ وعلى التنمية من جهة، ومنه زكاة المال أي: تطهير له، وفي الحديث الذي رواه الترمذي[١]، عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ثلاثة أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه».

قال: «ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلِمَ عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر» أو كلمة نحوها.

«وأحدثكم حديثاً فاحفظوه» قال: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، وَيَعْلَمُ لله فيه حقاً. فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النِّيّة، يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان. فهو بنيته، فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير

---

(١) في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر /٢٣٢٦/ (٧/٨١) وهو في مسند الإمام أحمد (٤/٢٣١).

علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً . فهذا بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان . فهو بنيته فوزرهما سواء» .

وتطهير النفس يعني : تخليتها من الرعونات والأمراض ، والآفات النفسية ، ثم تحليتها بالفضائل والكمالات . فالتزكية تشتمل على : التخلية والتحلية .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ بعد أن قال له : ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ يدل على أنه لا يمكن الوصول إلى الله تعالى إلا بعد طهارة النفس ، وهذا قوله : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي : أُوصلك إلى الله تعالى ، وهو ربك الذي خلقك ، وَأُعَرِّفك به حق المعرفة ، وهذا لا يكون إلا بالتخلي والتطهر من الخبث والدنس والنجس .

ويشمل ذلك التطهر من العقيدة الفاسدة ، والشبهات الضالة ، ثم من دنس الأعمال ، ومن دنس الأقوال والأخلاق ، ثم التحلي والتجمل بما جاء عن الله تعالى من عقيدة صحيحة ، وأعمال صالحة ، وأقوال طيبة ، وأخلاق فاضلة وهكذا .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الطُّهور[1] شطر الإيمان»[2] أي : أَنَّ التطهر عن الدنس والرجس الحسي والمعنوي

---

(١) بضم الطاء يعني : التطهر ، والطَّهور بفتح الطاء هو : الماء الذي يُتطهر به ، كما تقول : وَضوء بفتح الواو عن الماء الذي تتوضأ به ، والوُضوء بضم الواو هو التوضّؤ . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «والحمد لله تملأ الميزان» وهذا من جملة التحلي بالكمالات ، ويشمل الحمد القولي والعملي كالصلاة .

(٢) هذا طرف من الحديث الذي رواه الإمام مسلم في (صحيحه) في أول كتاب =

نصف الإيمان ، ونصفه الآخر هو التحلي بالكمالات والفضائل.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي: أدلك عليه حتى تسعى للوصول إليه ، وتكون من أهل الخشية من الله تعالى ، ومَنْ تحقق بمقام الخشية من الله تعالى فقد نال مقام الكمال ، لأنَّ الله تعالى قد وصف أهل الجنة بالخشية من الله تعالى ، فقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣١ - ٣٤].

وقال تعالى في أهل الجنة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨] أي: أن ذلك النعيم والرضوان الإلّهي هو لمن خشي ربه سبحانه.

وإن الخشية من الله تعالى على مراتب ، وتزيد كلما زاد علم المؤمن بالله ومعرفته به سبحانه ، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وإن أعظم خلق الله علماً بالله ، وأشدهم له معرفة وخشية ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال: «أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له»(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فوالله إني لأعلمهم بالله

= الطهارة ، باب فضل الوضوء / ٢٢٣/ (١/ ٤٠٣) والترمذي في (السنن) في كتاب الدعوات باب / ٩١/ (٩/ ١٧٩) عن سيدنا أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه.

(١) الحديث كما في (صحيح) مسلم ، كتاب الصيام ، باب بيان أن القبلة للصائم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته / ١١٠٨/ (٣/ ١١٣٥).

وأشدهم له خشية»[1] صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ ﴾ أي: يتعجل ويتسرع في البطش والانتقام؛ لأنه ظالم باغ طاغ ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ أي: يتكبر ويُعرض عن سماع دعوتنا له ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: أسمع ماذا تقول له يا موسى، وماذا يكون جوابه، وأنا أراه إذا حاول البطش بكما والانتقام منكما، فلا أُمَكِّنه من ذلك؛ بل ألجمه وأمنعه. وهذا لأنك يا موسى رسولي، وأنا لا أُسَلِّم رسولي لأعدائي، بل آذهب إليه يا موسى ولا تخف، وأيقن أني معك أسمع وأرى، وسوف أجعل فرعون لك سميعاً منقاداً، غير معرض عن سماعك.

أما أنَّه أعرض بعد دعوة موسى عليه السلام له واستكبر فهذا لظلمه وطغيانه.

ولما قال سبحانه لموسى عليه السلام وأخبر: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ لَم يَعُد موسى عليه السلام يبالي بفرعون، بل استغرق في مشاهدة أن الله تعالى يسمع ويرى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾ أي: بالمعية الخاصة برسله وأنبيائه سبحانه.

ومن أراد أن يكون الله معه بالمعية الخاصة بالمؤمنين فلها أسباب:

---

(١) الحديث كما في (صحيح) البخاري ـ واللفظ له ـ، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب /٦١٠١/ (١٠/٥١٣) ومسلم في كتاب الفضائل، باب علمه صلى الله عليه وآله وسلم بالله تعالى وشدة خشيته /٢٣٥٦/ (٥/٢٣٥٣).

منها: تقوى الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل: ١٢٨] فعلى قدر تقواك لله تعالى تنالك معية الله تعالى.

ومن ذلك: ذكر الله تعالى، لقوله تعالى في الحديث القدسي، الذي جاء في الصحيحين[(١)]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني - وفي رواية: «وأنا معه إذا ذكرني» أي: فمن أراد أن يكون الله معه فليذكر الله تعالى، وَمَعِيَّة الله تعالى للعبد تقتضي تسديده، وتأييده ونصره، ودلالته على الخير في الدنيا والآخرة - إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب مني شبراً - أي: بالعمل - تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

وقد افتتح سبحانه الحديث بقوله: «أنا عند ظن عبدي بي» وذلك حتى يَدخل العبد الذي يريد التقرب إلى الله تعالى حتى يدخل في عبادته، وهو حَسَنُ الظن بالله تعالى، وأنه سبحانه سَيَقْبَلُ منه على ما فيه، ويتلافىٰ تقصيره بمغفرته ورحمته سبحانه.

وليحذر المؤمن العابد من إساءة الظن بربه سبحانه وتعالى، فإنَّ ذلك حجاب يمنعه دخول حضرة الله تعالى، أو التقرب إليه سبحانه، وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن

---

(١) البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ /٧٤١٥/ (٣/ ٣٨٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى/ ٢٦٧٥/ (٥/ ٢٥٨٧).

بي ما شاء» الحديث كما في (سنن) الدارمي و(مسند) الإمام أحمد[1].

وإنَّ مَنْ أساء ظنَّه بالله تعالى عامله الله بظنه عقوبة له[2] ، وَمَنْ حسَّن ظنَّه بربه كان الله تعالى عند حسن ظنه.

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الظن به ، وصدق التوكل عليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) (سنن) الدارمي ، باب حسن الظن بالله تعالى (٢/٣٠٥) (مسند) الإمام أحمد (٤/١٠٦) عن سيدنا واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

(٢) لأنَّ من أساء الظن بربه فقد نسب إلى الله تعالى النَّقص في كمالاته ، ولم يعرفه سبحانه بكمالاته وبمحاسنه التي لا تتناهىٰ.

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

وهذا لمَّا أرسل الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون ، ومعه هارون عليه الصلاة والسلام ، ليدعوه إلى الإيمان بالله تعالى ، وإلى عبادة الله تعالى ، سأل فرعون موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ جاء السؤال لموسى عليه السلام ـ مع أنَّ هارون عليه السلام معه ـ وذلك لأنَّ موسى عليه السلام هو صاحب الأمر ، والمعنى: مَنْ هو الذي تدعوني إلى الإيمان به وعبادته؟!! .

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

واعلم أنَّ أجوبة الرُّسل للمُعاندين والكافرين هي بوحي من الله تعالى ، وتعليم منه سبحانه ، وفيها إقامة الحجة الدَّامِغة ، والبرهان القاطع على الكافرين المُعاندين ، كما قال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ولقد كان جواب مُوسى عليه السلام جواباً مُسدَّداً ، مُفحِماً مُلزِماً ، ظاهراً أثره في العوالم كلِّها ، والمعنى: ربُّنا الذي ندعوك إلى الاعتقاد بوحدانيته ، وإلى عبادته ، هو الذي خلق كلَّ شيء على صورته اللائقة به ، ثمَّ هداه. أي: بَيَّن له وعلَّمه ما فيه نظام حياته ، واستمرار وجوده ونَسْله ، ويظهر ذلك في كل شيء تنظر فيه ، وتتفكَّر فيه.

فترى الطير وانتظام حياتها ، وطريقتها في الحصول على رزقها ، واستمرار نسلها ، وكذلك النَّمل التي تمتاز عن غيرها بالتَّقنين والتَّموين لسنين طويلة ، وتتَّخِذ لها بُيوتاً في شُقوق الأرض بطريقة تمنع عنها تأثير الأمطار والرُّطوبة ، وإذا شعرت برطوبة الحبَّة أخرجتها في يوم مشمس؛ ثم تُعيدها إلى مخبئِها ، وهكذا النحل ونظامها الذي لا يخفىٰ على عاقل.

فالهدىٰ المراد في الآية هو الهدي العام ، وهو ما فيه صلاح حياة المخلوق ، واستمرار وجود نوعه ونسله.

ألا ترى إلى المولود كيف هَداه الله تعالى إلى التِقَام ثَدي أمه إذا عُرِض عليه ، ويمصُّه ، وذلك ليأخذ غذاءه ، ويصلح أمر حياته.

وفي هذا المعنى ـ أي: الهدي العام ـ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨] أي: مُقيماً أمر العالم بالقِسط والعدل ، على مُوجب حكمته وعلمه سبحانه ، فلا ظُلم ولا خَلل ، ولا نقص في مخلوقاته ، ولذلك أعلَن سبحانه هذه الشَّهادة فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ والشَّهادة لا تكون إلا عَن عِلم ، وَيَشْهد الشَّاهد على مُوجِب عِلمه ، وَيُعلِن شهادته إذا طُلب منه ذلك على مَشهد من الناس؛

بمن فيهم الحاكم والخُصوم ، ويقول سبحانه : ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف : ٨١] فالشَّهادة تقوم على أساس العلم ، ثم النُّطق به ، ثم إعلانه .

فلمَّا قال سبحانه : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ فشهادته سبحانه مَبْنيَّة على علمه الأزلي الأبدي ، وأعلن ذلك سبحانه في الملأ الأعلى والأدنى ، وأثبت ذلك في جميع الكتب الإلَهية ، فلا أعظم ولا أكبر من شهادته سبحانه ، لأنَّ قوة الشهادة وصحتها تكون على حسب قوة العلم بما تَشهد به ، وأنَّىٰ لعلمك المحدود أَنْ يُقارِنَ بعلم الله المُطلق الأزلي الأبدي؟! .

كما أنَّ شهادتك محدودة تقتصر على ملأٍ من الناس ، أما شهادة الله تعالى فقد أعلنها على جميع مخلوقاته الأولين والآخرين .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي : وشهدَت الملائكة ، شهادة مَبْنيَّة على عِلمها الذي علَّمها الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ أي : شهدوا أيضاً أنَّه لا إلَه إلا هو ، على حسب ما علَّمهم الله تعالى ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي : مُقيماً للعدل الذي هو مُقتضى الحِكمة الإلَهية ، وهذا ظاهر في جميع الأشياء التي خَلَقها الله تعالى ، ومَظهر هذا العدل والقِسط الإلَهي هو قوله تعالى : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] .

فلا يَجْرُم سبحانه المُستعد استعداده ، ولا يمنع المُستحق استحقاقه ، بل أعطى كلَّ شيء كماله اللائق به .

ولا تدَّعي في نفسك أَنّ عندك استعداداً أن يُعطيك الله الولاية الكُبرى ، فلو كان عندك الاستعداد لها؛ والقابلية لها لوهبك الله إياها . ولو حرَمك لظلَمك ، ولكنَّه سبحانه قائم بالقسط ـ أي :

مُقيم لأمر العالَمِ بالقِسط والعدل ـ على مُقتضى عِلْمِه وحكمته سبحانه ، فدعواك هذه باطلة مردودة عليك ، لأنَّه سبحانه أصدق منك ، وأصدق القائلين ، وقد أخبر أنَّه لا يَظلِم أحداً ، ولا يحرِم مُستعداً استعداده ، وأنّىٰ لك أن تَشُمَّ رائحة الولاية وقلبك يعتقد أنَّ الله قد ظلمَك وحرَمك ما تستحق!! إذ إنَّ مِنْ صفة الأولياء السَّريرة الطيبة ، والنُّفوس المُطمئنة الرَّاضية عن الله فيما شَرَع وقضى.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ المُنزَّه عن كلِّ خلل ونَقص ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تصرفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

وكلَّما صَحَّ عِلْمُ إنسان بشيء صحَّت حكمته ـ أي: وضعه للأشياء في مواطنها اللائقة بها ـ فحكمة الطبيب مثلاً ـ أي: وصفه للدواء المُناسب للدَّاء المُعيَّن ـ لا تكون صحيحةً إلا إذا كان علمه بالطب وكشف الأمراض صحيحاً ، ومن كان هذا شأنه فلا يصح للمريض الاعتراض عليه ، فإذا علمت هذا ، وعلمت أَنّ حكمة الطبيب جزئية محدودة ، فما بالك برب العالمين ، العليم الحكيم ، الذي له الحكمة الكلية المطلقة ، فجاءت أفعاله وتصرفاته سبحانه على مقتضى حكمته وعلمه ، فأنّىٰ للإنسان إذاً أن يعترض على حكمته سبحانه في أفعاله وشرعه.

وَرُوِيَ أَنّ حَبْرين من أحبار النصارى مرَّا على المدينة من بعيد ، فقال أحدهما للآخر: ما أشبه هذه المدينة بمدينة نَبِيٍّ يُبعث في آخر الزمن! فجاءا إليها ، فدخلا وسألا ، وقيل لهما: هاهنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فجاءا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنظرا إليه ـ وهما على

عِلم بصفاته صلى الله عليه وآله وسلم من الكتب السابقة ـ فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالا: أنت أحمد؟ قال: نعم. فقالا: إنَّا نسألك عن أكبر شهادة ما هي؟.

فقرأ صلى الله عليه وآله وسلم عليهم قول الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فقالا له: صَدَقْتَ، نشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء في فضل تلاوة هذه الآية بعد الصلوات المكتوبات آثارٌ كثيرة(١)، ومعها قراءة الفاتحة وآية الكرسي، وآية ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧].

وقد وَرَد أنَّ الله سبحانه لمَّا أراد أن يُنزل هذه الآيات تعلَّقت بالعرش وقُلن: «تُنزلنا على قوم يعصونك يا رب؟! ـ هذا لأنَّ لكلِّ آية روحاً ونوراً، ووجوداً مِثالياً نورانياً ـ فقال: وعزَّتي وجلالي لا يَتْلوكُن عبدٌ وراءَ كلِّ صلاة إلا غفرت له، وقضيت له سبعين حاجةً ونظرت إليه» ـ أي: نظرةَ رضا. ومن نظر الله إليه نظرة لا يعذبه أبداً ـ فواظب على تلاوتها.

فائدة: قد يحمِل الإنسانَ جهلُه في العلم على أن يزعم أنَّه لا فائدة من الدُّعاء إذا كانت الأمور مَقْضِيَّة.

والجواب على ذلك: هو أنْ يعلم الإنسان أنَّ قضاء الله تعالى

---

(١) انظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ﴾.

وتقديرَه للأمور لا يُبرِّر للإنسان أن يترُك تعاطي الأسباب المُوصلة لذلك الأمر المقضيِّ ، لأنَّ الله تعالى الذي قضى وقدَّر الأمور على الإنسان قضى وقدَّر أسباباً لها ، فالأمور مقضية والأسباب مقضية.

فَمِنْ ذلك أنَّ الإنسان يأكل ويشرب ، ويتنفَّس الهواء؛ ليحفظ عليه حياته ، مع أنَّ عُمُره ـ أي: زمن حياته الدنيوية ـ أمر مقضي قبل أن يُخلق ، فالذي قضى عليك أن تعيش مثلاً سبعين سنة؛ قضى عليك أن تأكل وتشرب ، وتتعاطى أسباب الحياة ، وإلاّ إذا كانت الأسباب لا جَدْوىٰ منها لوجب عليك أن تبقىٰ بلا أكل وشرب وتنفس ، وتقول: إنَّ الله قد قضى عليَّ أن أعيش كذا ، فسأعيش كذا؛ سواء أكلت وشربت أم لا ، وإذا فعلت ذلك فأنت والمجنون سواء.

وقِس على ذلك الرزق المحتوم الذي قدَّره الله تعالى لكلِّ إنسان ، وكذلك الأجل المحتوم ، فالذي قدَّر الرزق قدَّر له أسباباً ، والكلُّ بقضاء الله وقَدَره ، وكذلك الدُّعاء فهو من جُملة الأسباب التي يتعاطاها الإنسان في حياته ، وهو أمر مَقضي مقدَّر ، فقد يدعو بكثرة الرزق ، أو دفع الضُّرِّ عنه ، أو طول العُمُر ، وليس كون تلك الأمور مقضية عليه؛ مُبرراً له أن يعطل الدعاء وفائدته ، فالذي قضىٰ تلك الأمور ـ بل الأمور كلَّها ـ قضى لها أسباباً ، وإلا فما فائدة الدعاء ، وقد شَرَعه الله ، وأمر به عباده ، وقد أخبر سبحانه عن رسله وأنبيائه أن الدعاء صفتُهم: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهل فَعَل الأنبياء والرُّسل عليهم الصلاة والسلام أمراً لا طائل منه ولا جدوى؟! أم أنَّ زعمك أن الدعاء لا ينفع مَردودٌ عليك لحماقتك وجهلك؟! نعم إنَّ البُعد عن العِلم

بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبأحكام الشرع الإلّهي قد يَحمل الإنسان على الوقوع في الشُّبهات والضَّلالات ، والمزاعم الباطلة ، والشَّك والحَيرة ، ولا يدفع عنه ذلك إلا العلمُ القائم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنَّ العِلم نور ، يُخرج الحائر من ظُلمة الشَّك والارتياب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾.

لقد لقَّن الله تعالى موسى عليه السلام الجواب على سؤال فرعون، وفيه الحجَّة الدَّامِغة، والدليل الذي لا يقبل المُشاغبة والجدال، فقال له كما أخبر سبحانه: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾؟ ولقد كان مع موسى أخاه هارون عليه السلام، وجاء الخطاب لموسى عليه السلام لأنه صاحب الأمر في ذلك ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1] أي: أنَّ ربنا الذي تسألنا عنه هو الذي خلَق كلَّ مخلوق، وأعطاه صورته الخَلْقية اللائقة به والمُناسبة له، ثمَّ هداه ـ أي: دلَّه ـ إلى ما فيه صلاح وجوده وبقاء جنسه.

وقد أفحم هذا الجواب فرعون وأسكتَهَ، لأنه تفكَّر فيه وتدبَّر، فرآه أمراً واقعاً، ظاهراً بيِّناً في كُلِّ شيء خلَقه الله تعالى. فقال كما

---

(١) الشيء في الآية الكريمة يعني الأشياء المخلوقة. ولكلمة الشيء إطلاقات تجد بيانها في كتاب تفسير سورة الحجرات لمولانا الشيخ الإمام رحمه الله تعالى.

أخبر سبحانه: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: فما بالُ الأجيال الماضية كَفَرت؟!.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: لقد كفروا مع أنَّ الله تعالى قد أرسل فيهم الرُّسل، وأقام عليهم الحُجج والأدلة والبراهين، كما أرسلني إليك لأُقيم عليك الحجَّة والدَّليل.

ولقد كفَر من كفر من الأمم السابقة جُحوداً منهم، وعِناداً وظُلماً وتكبُّراً، وقد ظهر لهم الدَّليل، وبان لهم الحق، لأنَّ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام قد بيَّنوا لهم، وأتَوْهُم بالبيِّنات العقلية، والمعجزات الكونية الدَّالة على وجود الله تعالى، وربوبيته ووحدانيته. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] أي: أنكروا ما جاء به موسى عليه السلام من الأدلة والبراهين، والحال: قد استيقنت أنفسهم صِدْقَ ما جاء به، لكنَّ عِنادهم وكِبرهم خال بينهم وبين الإيمان بما جاءهم به موسى عليه السلام، وهذا شأن الكافرين.

قوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: أنَّه سبحانه يَعلم ما فعَلَتْه الأمم الماضية، وسوف يجمعهم ليوم لا رَيب فيه ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يَتِيه ولا يُخطىء، ولا ينسى ما عملوه، ولا بدَّ أن يجمعهم ليوم الجزاء والحساب.

أو أنَّ المُراد من الآية: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لقد كفروا ولكن متى يكون حسابهم وجزاؤهم؟.

﴿قَالَ عِلْمُهَا﴾ أي: عِلْمُ قيامتهم، كما قال بعض السلف في الضمير من قوله تعالى ﴿عِلْمُهَا﴾: إنه كِناية، وهو عائِد إلى شيء معروف وهو القيامة. أي: إن قِيامتهم وحشرهم للحساب والجزاء؛

علم ذلك معروف عند ربي ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يُخطىء ربي، ولا ينسى شيئاً من عِلْمه جلَّ وعلا.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ﴾ إمَّا المُراد أنه كتاب القضاء السَّابق على خَلْق الخلائق، وهو أُمُّ الكتاب الذي جاء ذِكره في صحيح مسلم[1]، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

وهو الكتاب الذي قال فيه سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي: من قبل أن نبرأ البريئة، ونخلُق الخليقة، كلُّ شيء مكتوب في ذلك الكتاب، ولا يُستبعد ذلك على الله تعالى فقد قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢] وأمَّا على غيره، فلا قُدرة له على ذلك.

وإنَّ تقديم ذِكره سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لَيُفيد معنى الاختصاص. أي: إن هذا الأمر على الله يسير، أمَّا على غيره فغير يسير، ولا يقدر عليه.

أو أنَّ المُراد من قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ الكتاب الثاني، وهو كتاب الإحصاء، الذي أحصى فيه سبحانه ـ أي: جمع ـ أعمال العباد، وهو إمام الكتب الإحصائية لكل إنسان. وهو المُشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢]،

---

(١) في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليذذهما السلام /٢٦٥٣/ (٥/٢٥٦٩).

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩].

ولقد أحصى هذا الكتاب جميع أعمال الأمم الماضية، وسوف يُظهره الله لهم يوم القيامة للحِساب والجزاء، ولم يكن هذا الإحصاء منه سبحانه لأعمال العباد لأنه يَنسى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ بل لإقامة الحجة عليهم، وسوف يُبرز لهم سبحانه هذا الكتاب ويرون فيه أعمالهم حاضرة ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقد أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ﴾ أي: يترك ﴿صَغِيرَةً﴾ حتى التَّبسم ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ القهقهة ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الصغيرة هي النَّظرة، والكبيرة هي الفاحشة. ونسأل الله العافية.

وقُل لمن يغضُّ بصره عن المَحارم أمام الناس، ويطلقه في الخَلَوات، قل له: ألا تستحيي من الله تعالى؟! ألا تتدبر قوله تعالى في المنافقين: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨].

فراقب ربَّك في الخلوة والجَلوة، لأن الله معك ويراك، وهو الرَّقيب عليك سبحانه في جميع أحوالك، وإلا فإيمانك في خطر، ولا تغترَّ بنفسك وتقول: أنا أعتبر من هذا النَّظر، وأتفكَّر في جمال صُنع الله تعالى.

نعم إنَّ هـذا من جهلك وحماقتك، وأنت كمن يتقرَّب إلى

الله تعالى بغير ما شرع سبحانه وتعالى، وما هذا إلا بتزيين الشيطان وإغوائه.

ومن زعم أن النظر إلى الصورة المُحرَّمة مباح؛ لأنه ينظر إلى الصورة لا إلى ذات المرأة! فيقال: هذا أيضاً من تزيين الشيطان وإغوائه. أليست هذه الصورة التي تنظر إليها تُثير في نفسك الشَّهوة؟! ولو أنَّها لم تبعث في نفسك شيئاً لَمَا نظرت إليها، وبهذا وقعت في الحرام وأنت تظن في نفسك أنك على شيء.

وأما قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ وهم الكفار ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾[1] [التوبة: ٦٧] أي: تركهم من رحمته.

أما النسيان من العلم فلا يُتصور في حق الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وفي الحديث الذي رواه الترمذي[2]، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْعَبْدِ ـ أي: الكافر ـ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وَبَصَراً، وَمَالاً وَوَلَداً، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ، فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: لا.

فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي» أي: أتركك في العذاب، وأتركك من رحمتي؛ كما تركت شريعتي في الدنيا.

---

(١) وهذا من باب اللازم، لأنّ مَنْ نسي شيئاً مِنْ علمه يلزم منه أنه يتركه، فقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ أي: تركهم من رحمته، ولم ينسهم من علمه سبحانه.
وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١] أي: لا يعزب ولا يغيب عن علمه سبحانه. والذَّرة هي أصغر ما يمكن تجزئته.

(٢) في كتاب صفة القيامة / ٢٤٣٠/ (٧/ ١٤٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، وقد ذكر هذا موسى عليه السلام وهو الدليل الآفاقي؛ بعد أن ذكر له الدليل النفسي على وجود الله وربوبيته ووحدانيته.

وهذا لأن آياته سبحانه ظاهرة في الآفاق، وفي النفوس، وفي كل شيء، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقد جعل سبحانه لتُربة الأرض خصائص كثيرة، فمنها تنمو الزروع والأشجار، وأودع فيها سبحانه المعادن المختلفة، منها الصلبة، ومنها السائلة، ومنها الغازية.

واعلم أن الإنسان هو من جملة النباتات الأرضية، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨] هذا يدل على أن خير الترب وأبركَها وأخصبَها هي تربة هذه الأرض، التي خَلَق الله منها الإنسان؛ وٱستعمره فيها، وسخَّر له ما فيها، ولا تقوم الساعة حتى تُخرج الأرض جميع ما أودع الله فيها من كنوز وخيرات؛ تعود بالنفع للإنسان إنْ هو أحسن استعمالها.

ومع ذلك كلِّه فقد حذَّر الله تعالى الإنسان أن يخلُد إلى الأرض، بل أن يكون إنساناً ربَّانياً عُلوياً سامِياً، ومن أخلد إلى الأرض أفسدته كما تُفسد دابّة الأرض الخشب ـ وهي حشرة أرضية صغيرة تأكل الخشب ـ.

وقد سأل نبي الله سليمان عليه السلام ربَّه: أن يُعمِّيَ وقت وفاته

عن شياطين الجن وعفاريتهم ، لأنَّه كان قد أوثقهم بالأغلال ، وبينما كان يُصلي في مِحرابه مُتنفِّلاً جاءه الموت ـ ولا أحد كان يدخل إلى مِحرابه ـ فاستند إلى مِنْسَأته ـ عصاه ـ وقُبض وهو على حاله تلك ، وبقي مُستنداً إلى منسأته مدة طويلة ، فكان الجن لمَّا ينظرون إليه يرونه واقفاً ، فيحذرون منه ويخافونه ، حتى سلَّط الله تعالى على مِنسأته دابة الأرض[1] حتى أفسدتها ، وخرَّ سليمان عليه السلام على الأرض ، وهذا قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ : ١٤] أي : لو أنهم كانوا يعرفون أن سليمان عليه السلام قد مضى على موته مدة طويلة ؛ لَمَا استمروا في الأعمال الشَّاقة التي كان قد أمرهم بها .

أما قوله تعالى : ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل : ٨٢] فهذه دابَّة كبيرة يُخرجها الله تعالى قبل قِيام الساعة ، وهي من علامات الساعة الكبرى ، وقد جاء ذكرها في أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم .

فمن أقام على الأرض بجسمه أكلته وأفسدته ـ وهذا أمر مشهود معايَنٌ لدى كل عاقل ـ وكذلك من أخلد إلى الأرض بنفسه وقلبه أفسدته أيضاً .

وقد ذكر سبحانه ذلك في القرآن الكريم ، عن قصة الرجل الذي أخلد إلى الأرض فقال سبحانه : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾ أي : بآياتنا ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الآية [الأعراف : ١٧٦] .

فلقد جاءت شريعة الله تعالى تنهض بالإنسان ، وتسمو وتعلو به

---

(١) ودابة الأرض هي التي تأرض الخشب أي : تأكله ، وتسمى : أَرَضَة .

إلى مستوى الإنسانية الكاملة العلوية ، فَمَن تركها ولم يعمل بمقتضاها؛ واتَّبع هواه وشهواته؛ فإنَّ الأرض ستُفسده ، وتجعله إنساناً أرضياً سفلياً.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مهداً: أي: تمتهدونها بالاضطجاع والنوم ، والجلوس عليها.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طُرقاً تسلكونها في أسفاركم وتَـنَـقُّلِكم.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ فالماء واحد ، والأرض واحدة ، والهواء واحد ، لكن النبات مختلف في أشكاله وألوانه ومذاقه. كلٌّ ذلك بقدرة الله تعالى ، وهو المُربي لهم ، المتصرف فيهم بمقتضى علمه وحكمته سبحانه.

وهكذا جاء موسى عليه السلام بالدليل النفسي ، والدليل الأرضي والآفاقي على وجود الله تعالى ، وعلمه وقدرته سبحانه ، ومع هذا كله ما كان من فرعون إلا أن كذَّب وأبى ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ الآية [طه: ٥٦].

وقد ذكر لنا سبحانه ذلك حتى يُقيم الدليل لكل إنسان على وجوده ووحدانيته وقدرته سبحانه ، وأنه سبحانه ظاهر بقدرته وعلمه وأسمائه في كل شيء ، فهو الظاهر في المظاهر كلها ، وهو الباطن فلا يمكن إدراك كُنهه والعلم بذاته وحقيقته سبحانه وتعالى ، والعوالم كلها علامات دالة على الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة طه

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) ﴾ .

لقد ذكر الله تعالى ما جرى بين موسى عليه السلام وبَيْن فرعون ، لمَّا أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إليه يدعوه إلى الله تعالى ، وأتاه بالحُجة العقلية والكونية على ربوبية الله تعالى ووحدانيته .

وقد ذكر موسى عليه السلام لفرعون آيات الله النَّفسية والآفاقية الدَّالة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وهذه حجَّة الله على خَلْقه كلِّهم ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ الآية [فصلت : ٥٣] .

ومن الأدلة التي ذكرها موسى عليه السلام لفرعون : أنَّ الله تعالى يُنزل من السماء ماء ، فيُخرج به أزواجاً ـ أي : أصنافاً ـ من نبات شتَّى ـ أي : مُختلف ألوانه وطَعْمه وهيئته وصورته ـ وذلك في أزمنة مُتعدِّدة ، وفصول مُختلفة ، ولكلٍّ فَصْل ثمراته وخيراته وزروعه ، مع أن الماء الذي يُسقىٰ به هو نفسه ، والأرض التي

يُزرع فيها هي نفسها ، وهذا الاختلاف والتباين يدل على أن هناك خالقاً يُدبر الأمور ، ويتصرف فيها كما يشاء ، وليس الأمر طبيعة كما يقول الملحدون .

ومن آياته سبحانه الدالة على وحدانيته وربوبيته : أنه يُخرج من هذه الأرض ثماراً وحبوباً وزروعاً مختلفة الشكل والطعم ، ولكن منها ما يَصلح أن يأكله الإنسان ، ومنها ما يصلح للدواب والأنعام ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ ﴾ .

وهذا لأن الإنسان يحتاج في غذائه إلى لحوم الحيوانات التي أحل الله له أكلها ، وما دام الأمر كذلك فقد وفر الله تعالى لهذه الحيوانات مآكلها ، لتبقىٰ مُسَخَّرة للإنسان في منافعه وغذائه وركوبه .

ولم يشرك سبحانه الحيوان مع الإنسان في طعامه : تشريفاً وتكريماً له .

فالإنسان يأكل الحبوب ، بينما يأكل الحيوان العشب والتبن ، والإنسان يأكل الثمار ، بينما يأكل الحيوان القشور وهكذا . . .

قوله تعالى : ﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ النُّهىٰ : جمع نهية ، وهي العقل . وقد تطلق كلمة النُّهىٰ على العقل ، فقد يراد منها الجمع ـ أي : العقول ـ وقد يراد منها الإفراد ـ أي : العقل ـ .

ويقال للعقل : نُهية ، لأنه ينهى صاحبه عن الرذائل ، ويحمله على الكمالات والفضائل .

وقد سُمِّيَ العقل بذلك لأنَّه كالعِقَال ؛ يعْقل صاحبه عن الفحشاء والشُّرور ، وسَفاسِف الأمور ، فهو له عِقال ـ أي : حَصَانة ومَناعة ـ .

ويُقال للعقل: حِجر، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥] أي: هل في ذلك قسم لذي عقل؟.

وسُمي العقل حِجراً: لأنَّه يحجر ـ أي: يمنع ـ صاحبه عمَّا يُشِينه، ويحمله على ما فيه خيره وكماله.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ استفهام تقريري، والمعنى: حقاً إنَّ في ذلك قَسَماً لذي عقل؛ إنْ هو تعقَّل في هذه الأقسام الإلَهية، ويعلم أنها حق، وأنَّ المُقسم عليه حق.

أمَّا الليالي العشر فهي العشر الأوائل من ذي الحجَّة، وأمَّا الفجر فهو فجر يوم النحر، وهناك من قال: إنها العشر الأخير من رمضان، ومنهم من قال: إنها العشر الأوائل من مُحرَّم.

ولهذه الأعشار فضائلها واعتبارها عند الله تعالى، كما دلَّت على ذلك الأحاديث النبوية، وجاء أَنَّ أفضل صيام النَّفل هو في شهر الله المُحرَّم. ولله خَوَاص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

ولا بد للعقل حتى يَعقل صاحبه عما لا ينبغي، ويحمله إلى الكمالات؛ لا بد له أن يكون متحرراً من أسر الشهوات والأهواء والآراء، مستنيراً بنور الشريعة المحمدية، حتى ينهض بصاحبه، ويسير به على الصراط المستقيم، الذي جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والأصل في العقل أنه مَفطور على دين الله تعالى، وأنه لا إلَه إلا الله سيدنا محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. لكنّ

الأهواء والآراء قد تُؤثر على هذا العقل وتتحكم فيه ، ولكي يتخلص الإنسان من ذلك ، وَيَسلم من شرور الأهواء والآراء : عليه أن يَجعل عقله تابعاً لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبهذا يستنير العقل ويكمل ، ويحمل صاحبه على الترقي في الفضائل والكمالات .

ولكي يتضح لك تأثير الهدىٰ على عقل الإنسان ، إليك مثالاً : وهو كمريض مُنع عن أكل أطعمة معينة لأنها تَضُرُّه ، فهو بعقله يدرك هذا ، وَيعلم الضرر الذي سيصيبه إن هو أكل منها .

لكن شهوتـه وهوى نفسه قد يدفعه إلى الأكل منها ، وقد يُخالف أمر عقلـه ويتبع هواه ويأكل منها ، ويُلْحِقُ بنفسـه الضرر والأذى .

وهكذا موقف الشريعة مع العقل ، فقد جاءت أحكام الشريعة مقبولة معقولة لدى العقل السليم ، لكن اتباع الأهواء والآراء والشهوات تُؤثر على العقل ، وتحمله على ارتكاب المخالفات التي تعود عليه بالوبال في الدنيا والآخرة .

ولهذا نجد أَنَّ آيات الله تعالى تُخاطب دوماً العقلاء وأولي النهىٰ ، وأولي الألباب . وهكذا .

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ، ثم لا يزيغ عنه»(١) .

---

(١) الحديث أحد أحاديث الأربعين للإمام النووي وهو الحديث الحادي والأربعون ، وقال الإمام النووي بعد ذكره : حديث صحيح رويناه في كتاب (الحجة) بإسناد صحيح ، بدون لفظة : «ثم لا يزيغ عنه» وهي عند الطبراني كما في (جامع العلوم والحكم) للحافظ ابن رجب الحنبلي .

ولا يسلم الإنسان إلا إذا هَوِيَ ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما إذا اتبع هواه : هَوىٰ به في الهاوية . نسأل الله العافية .

وكما لا يمكن للحيوان أن يرتفع إلى مستوى الإنسان العاقل ؛ في مأكله ومشربه ، وملبسه ومنامه ، ومشيته ومجلسه ، فكذلك لا يَجوز ولا يصح من الإنسان أن يَنزل بمستواه إلى مستوى الحيوان ، ويتصف بصفاته البهيمية . بل عليه أن يبقى إنساناً علوياً ربانياً كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

قوله تعالى : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي : فليتفكر الإنسان العاقل مِمَّ خلق؟ .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ أي : من الأرض ، على اعتبار أنه سبحانه خلق آدم من الأرض ، وكل بني آدم كانوا في صلبه .

وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من أديم الأرض ـ أي : من وجه الأرض وجلدتها ، لأن الأديم هو ظاهر الشيء وجلده ـ وقد خلقه سبحانه من جميع ذرات الأرض ، المختلفة في الألوان والأجناس ، والأنواع والأشكال[1] . وهذا كما جاء أَنَّ الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يَقبض قبضة من جميع تراب الأرض ، عُجنت بالماء فصارت طيناً ، ثُمَّ جُفف فصار صلصالاً كالفخار . كل ذلك بيد الله وقدرته ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : ٢٩] .

---

(١) ينظر (سنن) أبي داود ، كتاب السنة ، باب في القدر /٤٦٩٣/(٥/٦٧) ، والترمذي كتاب التفسير ، باب ومن سورة البقرة /٢٩٥٨/(٨/ ١٥٤) .

وقال سبحانه لإبليس لما امتنع عن السجود لآدم عليه السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

فقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: من الأرض، وقد خلق الله تعالى أباكم آدم عليه السلام من الأرض كلها، وكلكم كنتم في صلبه، وأنتم أجزاء آدم عليه السلام؛ قد تجزأتم عنه، وهو والدكم الجسماني الأول، وقد وَلَدَكُم.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ولم يقل وإليها نعيدكم، وذلك ليُضَمِّن معنى فعل آخر، وهو البقاء في الأرض مدة طويلة إلى يوم القيامة، وتقدير الكلام: وإليها نعيدكم بعد الموت، وفيها نبقيكم إلى يوم القيامة. فهم يعودون إليها، ويمكثون فيها، إلى أن تقوم الساعة.

وقد حرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء[1]، كما قد يكرم الله تعالى الشهداء والأولياء فلا تأكل الأرض أجسادهم، وذلك على حسب مقاماتهم عند الله تعالى، وعلى حسب طلبهم من الله تعالى ذلك.

وقد حصل مرة في عصر التابعين أَنْ جرفت السيول الغزيرة قبور شهداء أُحد رضوان الله عليهم، فاضّطروا إلى نقل أجساد بعضهم

---

(١) كما في الحديث الذي رواه أبو يعلى ـ بالثقات ـ والبزار انظر: (مجمع الزوائد) (٨/ ٢١١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» أي: تحريماً كونياً لا يقع، بخلاف التحريم الشرعي. وقد روى هذا الحديث أبو داود /١٠٤٧/، وابن ماجه /١٠٨٥/ والإمام أحمد (٨/٤) وغيرهم عن سيدنا أوس بن أوس رضي الله عنه.

إلى قبور أخرى ، ولما فتحوا القبور كانت الأجساد التي فيها غضة طرية ، لم تنل الأرض منها شيئاً ، حتى إنَّ بعضهم أصاب بفأسه رجل أحدهم فسال الدم منها كما يسيل من الأحياء ، كل ذلك تكرمة من الله تعالى للشهداء والأولياء ، فحفظ أجسادهم من البلى.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ وقد ذكر هذه الآية سبحانه بعد أن ذكر قوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ ، فإن الذي أخرج الأشجار من الأرض ، وأنبت الزروع من الأرض بعد أن كانت حبوباً ونوىً مدفونة في باطن الأرض؛ هو الله تعالى الذي سيخرج الأموات من الأرض ، بعد أن يُنزل عليهم ماء الحياة[١] وتربو أجسامهم ، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام فينفخ في الصُّوْرِ؛ فتتطاير الأرواح إلى أجسادهم.

فمشاهد الحشر والنشر مشهودة مرئية ، يُعاينها الإنسان على الدوام ، وذلك في إخراج الثمار وإنبات الأشجار ، فلا تنكر قدرة الله تعالى على حشر ونشر الأموات؛ وإن بليت أجسامهم واختلطت بتراب الأرض ، لكنها محفوظة في كتاب جامع ، قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق: ٤] فلا يلتبس عليه سبحانه تراب الأرض بتراب مَنْ فيها من الأجسام البالية؛ وإن اختلطت وتفرقت وتناثرت في بقاع الأرض.

---

(١) إذ يبقى في الإنسان جُزْءٌ لا يبلى ، وهو آخر سلسلة الظهر العظميّة ، وتسمى: عجب الذنب ، وعليه تَنزل ماء الحياة ، ثم يربو الجسم وينمو.
ويقال عن نواة التفاح والمشمش مثلاً: عَجمة ، أما العجوة فهي نَوع جيد من أنواع التمر.

وإن الذي أنزل الماء من السماء على تلك النواة أو الحبة الجامدة الميتة المدفونة في بطن الأرض ، وأخرج منها شجرة أو زرعاً حياً أخضرَ ذا ثمر وَوَرَق ، لهو قادرٌ سبحانه أن ينزل على عجب الذنب ـ وهو الجزء الذي لا يبلىٰ من الإنسان ـ ماءً من السماء ، وهو ماء الحياة ، حتى تنمو[١] وتربو ، إلى أن يصير جسداً كاملاً ، ثم تُنفخ فيه الروح فيصير جسداً كاملاً حياً ، ينهض من قبره ، ويُحشر إلى أرض المحشر ، متوجهاً إلى الداعي ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ .

اللهم اجعلنا من الآمنين .

واعلم أنه لما ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ، وتتطاير الأرواح إلى أجسادهم ، فهي لا تخطىء ، وَتَتَلَبّس كل روح إنسان جسده الذي كانت فيه ، وذلك لأنّ بين الروح وبين الجسد الذي كانت فيه عَشاقة وعلاقة؛ لا يمكن أن تخطئه إلى غيره ، وهناك المناسبة القوية بين كل جسد وروحه .

وهنا يجب أن يفهم الإنسان أن أجسام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليست كأجسام غيرهم من البشر ، إذ إنّ الله تعالى اصطنعهم اصطناعاً خاصاً ، وخَصهم بالخصائص العالية ، وأعدهم وأمدهم لتقبل الوحي والنبوة ، وأعظمهم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو وإن كان بشراً يأكل ويشرب

---

(١) وماء الحياة هو ماء حوى جميع العناصر التكوينية ، بخلاف هذا الماء ؛ ولو كان جسم الإنسان ينمو ويربو بهذا الماء النازل من السماء (ماء المطر) لأحيا مَنْ في القبور لأنه يُصيبهم أحياناً.
وماء الحياة تربو وتنمو به أجساد عصاة المؤمنين لَمّا يُخرجهم من جهنم؛ وقد احترقوا وامتحشوا ـ أي: ذابت أجسامهم ـ. نسأل الله العافية.

لكن الله تعالى خصه في جسده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم بالخصائص العالية؛ التي لم ينلها أحد من البشر ، وأمده بالقوة المحمدية اللائقة به صلى الله عليه وآله وسلم ، في سمعه وبصره وسائر حواسه ومداركه صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى كان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع ما لا يسمع غيره ، وَيرى ما لا يرى غيره ، وكان صوته صلى الله عليه وآله وسلم يُسمع الداني والقاصي(١) ، ولما واصل صلى الله عليه وآله وسلم الصيام وأراد الصحابة اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم نهاهم وقال: «إني لست مثلكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» كما في (صحيح البخاري ومسلم(٢).

ومن الجهل أن يقيس الإنسان جسمه ومداركه على جسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل قد يؤدي ذلك به إلى الكفر ، لأنه لو حَدَّ في عقله حدوداً لخصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته؛ لما كان إيمانه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إيماناً صحيحاً مقبولاً .

ويقال : إنك آمنت بالرسول الذي وَلَدَهُ عقلك وَحَدَّ له الحدود . أما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسله الله تعالى ، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيجب الإيمان به على أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي خصه الله تعالى

---

(١) وقد سمع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه صوته صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول للناس: «أيها الناس اجلسوا» وكان في دور بني غَنْم ـ بطن من الخزرج ـ خارج المدينة المنورة ، فجلس أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) البخاري كتاب الصوم ، باب الوصال / ١٩٦١/ (٤/ ٢٠٢) ومسلم كتاب الصيام ، باب النهي عن الوصال في الصوم / ١١٠٢/ (٣/ ١١٢٩) بنحوه.

بالخصائص العالية؛ التي لا يشاركه فيها أحد من خلق الله تعالى.

ولكي يتضح لك ذلك أكثر: فاعلم أنه لو نزلت عليك آية من القرآن الكريم، بروحها ونورها وأسرارها؛ لتشقق جسمك وتصدع وتلاشى، كما قال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] وذلك لقصور تحملك عن تقبل قوة الوحي القرآني، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعدّه الله تعالى وأمدّه وخَصّه، وأفاض عليه الكمالات الكبرى في جسمه الشريف وروحه صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ وهذه الآيات هي العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والقُمّل، والضفادع، والدم، والجراد، ونقص من الثمرات، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾ أي: أنواعاً من الآيات، منها الإرهابية التخويفية، ومنها البيِّنات العقلية الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته؛ وَمَع ذلك أبىٰ واستكبر.

وقد سلط الله تعالى عليهم الضفادع، وجعلها تنتشر في بيوتهم وعلى فرشهم، وأماكن جلوسهم وعملهم، وعلى مآكلهم ومشاربهم؛ لِتُضَيِّق عليهم معيشتهم فيعتبروا. وكذلك القُمَّل الذي انتشر وباؤه فيهم، وَسَلَّط عليهم سبحانه الدم أيضاً، وهو أن ينقلب الماء الذي يُريدون شربه أو استعماله ينقلب دماً، حتى كان القبطي ـ وهم أتباع فرعون ـ يطلب من السِّبطي ـ أتباع موسى عليه

السلام من بني إسرائيل ـ يطلب منه أن يُفرغ له من دلوه ، فَلَمَّا يفعل ذلك السبطي ينقلب الماء دماً في دلو القبطي ، حتى جعل القبطيّ يسأل السِّبطيّ أن يأخذ الماء بفمه ويمجه في فمه ـ أي : في فم القبطي ـ فلما يفعل ذلك السبطي ينقلب الماء دماً في فم القبطي ومع ذلك كله كذبوا وأبوا واتهموا موسى عليه السلام بالسحر : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٥٧] .

وهذه عادة الكفار كلهم كما أخبر سبحانه عنهم ، فإذا جاءتهم رسلهم بخوارق العادات قالوا : هذا سحر ، وإذا أخبروهم عن أمور الآخرة ، أو أمور غيبية قالوا : هذا مجنون ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢ ـ ٥٣] أي : هل أَن الكفار الأوَّلِيْنَ أوصوا الكفرة مِنْ بعدهم أن يقولوا ذلك ، ويكذبوا الرسل ، ويتهموهم بالسحر أو الجنون ؟ لكن الكفار الأوائل لم يتصلوا بمن كفر من الأواخر ، فكيف قالوا كُلُّهُمْ ذلك؟!! قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي : إنهم كلهم طغاة ، وكلامهم واحد في الطغيان .

وهذا ما فعله كفار هذه الأمة ، إذ اتهموا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر؛ لما أراهم المعجزات الكونية كانشقاق القمر ، قال الله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ـ ٢] .

ولما قرأ عليهم القرآن الكريم ، وأخبرهم عن المغيبات وقضايا الآخرة ، قالوا هذا مجنون : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] والحال أَنَّ هذا أمر عجيب منهم ، إذ كيف

يَتَّهمون من هو أعلم خلق الله وأصدقهم ، والذي أُنزل عليه القرآن الكريم ، وفيه ما يُعجز الخلائق كلها؛ كيف يتهمونه بالجنون؟ حقاً مَن قال هذا فهو مجنونٌ.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ [الحجر: ٦] خطاب من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، أي: أنت يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي نَزَّل الله عليك القرآن ، وفيه التذكير بالله وبالآخرة ، وفيه ذكر كل شيء ، كيفُ يتصور بمن جاء بكل هذا أن يقال عنه مجنون؟!!

وتقدير الكلام: وقالوا: إنك لمجنون ـ أي: يا أيها الذي نزل عليه الذكر ـ وهذا لأنهم لم يعترفوا أو يؤمنوا أنه صلى الله عليه وآله وسلم نزل عليه الذكر.

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ هذا خطاب من الله تعالى ، أما مقول القول: إنك لمجنون. أي: فقالوا عنك مجنون. والحال أنت الذي جئت بالذكر ، فكيف يتَّفق كلامهم مع ما جئت به؟!.

واعلم أَنَّ الله تعالى قد أعطى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عقلاً كاملاً مكمَّلاً؛ فوق مستوى العقول كلها ، ولو وضعت عقول الخلائق في كِفَّة لرجح بهم عقل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا كانت الأخلاق الحميدة بُرجاً عالياً فقد ارتقى ذروته صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلاه على وجه فرداني ، فقد امتدحه الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [ن: ٤] فهو عظيم صلى الله عليه وآله وسلم في أخلاقه ولطافته ، وذوقه ، وحيائه ، وجميع خصاله وشمائله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجزاه الله عنا خير الجزاء

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُكرم كريم كلِّ قوم ، ويرأف بالمسكين ، ولا يُغلظ على أحد ، ولا يقابله بخشونة ، بل بكل لُطف وحسن خُلُق.

ولمّا قَدِم عَدي بن حاتم رضي الله عنه ـ بعد أن أسلم ـ مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم في مجلس وقد امتلأ المكان ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكرمه ، فخلع عنه رداءه الشريف ـ كان يضعه على ظهره وقت الحر ـ ورمى به إلى عدي ، فأخذه عدي وقبّله ومسح به وجهه وقال : ما كان لعدي أن يجلس على رداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وجلس على الأرض ، ووضع رداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه(١) . وهذا إكرام من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعدي رضي الله عنه. يعني : إن لم يتيسر لك الجلوس قريباً مني فهذا ردائي إليك فاجلس عليه.

كل ذلك يدل على رفعة ذوقه صلى الله عليه وآله وسلم ، ودقة لطافته ، وعظيم خلقه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويدل على شدة تأدب الصحابة الكرام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واحترامهم وتبركهم بثيابه وآثاره صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

---

(١) وكان عدي رضي الله عنه معروفاً في قومه ، وله مكانته عندهم ، وكان قد اطّلع على الكتب السماوية السابقة وتنصّر ، ثم إنه أسلم لما عَرض عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام.

درس حول تفسير قوله سبحانه وتعالى من سورة طه

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ .

لقد أقام موسى عليه الصلاة والسلام الحُجَّة على فرعون ، وبَيَّن له الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ، ووحدانيته ، وربوبيته سبحانه ، إلا أنَّ فرعون استكبر وعاند ، ثم إنّ موسى عليه السلام أظهر له الآيات الكونية ، وهي المعجزات التي أيَّده الله بها ، وأشهد ذلك فرعون ، ورأى انقلاب العصا إلى ثعبان عظيم ، وانقلاب يد موسى عليه السلام اليُمنى إلى يد بيضاء منيرة؛ بمجرد أن يضمَّها إلى جناحه ، وكان هناك الآيات الباقية من الطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم ، إلا أن فرعون وقومه استكبروا عن قبول الحق ، وعاندوا وعارضوا ، واتَّهموا موسى عليه السلام بالسحر ، كما أخبر سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وراح فرعون يُهدِّد موسى عليه السلام بأنَّه سيجمع له أعلم الناس بالسحر؛ لكي يُبطلوا ما جاء به موسى عليه السلام على زعمه، كما قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٣٦ ـ ٣٧].

وقيل: إن عدَّة السحرة الذين جاء بهم فرعون سبعون ساحراً، وقيل: أربعون.

وقد عارض هؤلاء السحرة فرعون في فعله؛ لِمَا رأوا من موسى عليه السلام، لكنه هدَّدهم وتوعَّدهم، فما كان منهم إلا أن أطاعوا أمره، وطلبوا منه أَنْ يُريهم موسى عليه السلام وهو نائم، فاحتالوا على ذلك، ونظروا إليه وهو نائم، فرأوا أن عصاه تحرسه، فخافوا وترددوا فيما سيفعلون، إلا أن فرعون أجبرهم، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ﴾ [طه: ٧٣].

فسألوه: هل من أجر إن نحن أقدمنا على السحر؟.

فوعدهم بالأجر، بل بالقُرب منه أيضاً: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ ـ ٤٢].

فلمَّا اجتمعوا بموسى عليه السلام، وألقوا حِبالهم وعصيَّهم، أخبر سبحانه أنهم سحروا أعين الناس الحاضرين، حتى خُيِّل إليهم أنَّ هذه الحبال والعصي ثعابين تسعىٰ، فكان سحرهم سحر تخييل، كما أخبر سبحانه: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦] وقال سبحانه وتعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] أي: لكنَّه على علم جازم أنها لا تسعى، بل خُيِّلَ إليه ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧] أي: خاف موسى عليه السلام على قومه الذي آمنوا به؛ أن

يَضطربوا ويفتتنوا بهذا السحر ، إلاّ أنَّه لمَّا أمره الله أن يُلقيَ عصاه أبطلت السحر ، ورأى الناس والسحرة أَنَّ العصا عصا والحبال حبال ـ أي: أظهرت كل شيء على حقيقته ـ وابتلعت السحر الذي جاء به السحرة ، وهذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] أي: من السحر ، وقوله تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨] فما كان من السحرة إلا أن سجدوا لله تعالى ، وقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨].

وقد كشف الله تعالى لهم في سجودهم عن منازلهم في الجنة ، وأنهم من المقربين إلى الله تعالى ، فلم يبالوا بتهديد فرعون لهم بالصَّلب والقتل ، وقالوا له كما أخبر سبحانه: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣] فلقد أيقنوا أَنَّ قضية موسى عليه السلام ليست بالسحر ، بل هو حقاً رسول الله ، أيَّده بالبينات والمعجزات ، فما كان منهم إلا أن اعترفوا وآمنوا.

وهذا لأنَّ مِنْ شأن النور إذا ظهر أن يطرد الظلمة مباشرة دونما تراخ وتمهُّل ، إذ إنَّ هؤلاء السحرة كانوا أول النهار من الزَّنادقة والسحرة ، ولم يمض من النهار زمن حتى صاروا من المؤمنين المقربين المُوقنين ، لأنهم لمَّا سجدوا لله تعالى مؤمنين به؛ كشف الله لهم عن درجاتهم العالية في الجنة ، فازدادوا إيماناً ، وصاروا على درجة كبيرة من اليقين ، لأن معاينة الشيء تعطي يقيناً به.

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣] أي: التي ارتكبناها قبل أن نؤمن بموسى عليه السلام ، وليغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر ، إذ إنه أمرهم بإتقان تعلُّمه ، كما أنه

أجبرهم على الحضور إلى مدينته والبقاء فيها؛ استعداداً لليوم الذي وعد فيه موسى عليه السلام.

كما أنهم علموا أن قضية موسى عليه السلام ليست بالسحر، إذ إنّ الساحر إذا نام ذهبت قوّة سحره، وقد رأوا أن العصا تحرس موسى عليه السلام وهو نائم(١)! لكن فرعون أجبرهم وهدَّدهم على السحر، ولا تنافي في هذا مع قولهم كما أخبر سبحانه: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ ـ ٤٢] إذ إنَّهم قالوا ذلك قبل أن يروا موسى عليه السلام حال نومه، وأنَّ العصا بجانبه تحرسه.

فهم وإن كانوا مُكرهين على بذل السحر أمام موسى عليه السلام، إلا أنهم علموا أن ذلك ذنب وخطأ كبير منهم، وكان عليهم أن يتخلَّفوا عن أمر فرعون لهم بالسحر، فطلبوا من الله أن يغفر لهم خطاياهم عامَّة، وأن يغفر لهم ما أقدموا عليه من السحر خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ فَمِنْ أسمائه سبحانه: الخير، وقد تأتي هذه اللَّفظة على وجه التَّفضيل، ويعرف هذا من السِّيَاق.

وهو سبحانه خير، ولا يصدر عنه إلا الخير، كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والخير في يديك وليس الشر إليك» الحديث كما في (صحيح الإمام مسلم(٢)).

---

(١) لأن السحر يحتاج إلى توجه روحاني، وإذا نام الساحر فقد التفت إلى عالم آخر.

(٢) كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله تعالى لآدم: أَخرج بَعْثَ...» /٢٢٢/ (٤٠٢/١).

فلا تنسب الشُّرور إلى الله تعالى بصفة الشريَّة ، لأنها أمور نِسبية تضاف إلى المخلوقات ، وقال تعالى : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ يحسُن بها حالك ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي : صدوراً وخلقاً وإيجاداً ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ ساء بها حالك ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء : ٧٩] كسباً ووصفاً .

وقال تعالى : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي : على وجه التَّطيُّر والتَّشاؤم ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٧٨] خلقاً وإيجاداً .

فالحسنة والسيئة أمر نسبي يظهر على المخلوق ، أما من حيث صدوره من الله تعالى فهو خير ، لأنّه إنما صدر عن عِلم وحِكْمَة ، وما كان عن ذلك فهو خير ، لكن هذا الأمر الذي قضاه الله تعالى على العبد قد يَظهر أثره عليه خيراً أو شراً بالنسبة إلى العبد .

ولكي يتَّضح لك فَهْمُ ذلك ، إليك مثالاً فيه تقريب للعقل فَهْمُ ذلك ، وليس من باب التَّشبيه والتَّمثيل ، لأنه سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] .

مريضان يذهبان إلى الطبيب ، ويُسمى الطبيب حكيماً ، لأنه يَصف الدَّواء المناسب للمرضى ، وحكمته هذه جزئية مقيَّدة بهذا المعنى ، وكلَّما صحَّ عِلمه بالطب صحت حكمته . فالحكمة تتبع العلم .

وكان المريض الأول يقتضي علاجه أن يصف له الطبيب بعض الحبوب المُقوية ، والأطعمة المغذية ، والفواكه المتنوعة .

أمَّا حالة المريض الآخر فكان علاج مرضه أن يصف له الطبيب دواءً ، وفيه شراب مُر المَذاق ، وتعاطي بعض الإبر المؤلمة ،

والامتناع عن أكل اللُّحوم والفواكه ، والاقتصار على السوائل وهكذا.

فلو اعترض المريض الثاني على الطبيب بقوله: لقد ظلمتني وحرمتني من المآكل الشَّهية ، وحتَّمت عليَّ تعاطي هذه الأدوية القاسية ، ولم تفعل مع المريض السابق ذلك؟.

فهل اعتراضه مقبول معقول؟ لا. إنَّ الطبيب سيقول له: أنا ما أردت بك إلا الخير ، وما وصفت لك إلا ما فيه شفاؤك ، وإن كان فِعْلُ ذلك عليك مكروهاً ، لكنه سيعود عليك بالخير والفائدة والشفاء ، ولم أصف لك إلا ما يتطلَّبه حالُك.

وهكذا فإنَّ صدور الوصفة عن الطبيب لم تكن إلا خيراً لكِلا المريضين ، أمَّا كون المريض الثاني قد تألَّم وقاسى فهذا شر وسوء بالنسبة له؛ لأنه لم يُوافق مِزاجه ، ولكن من حيث صدوره من الطَّبيب ما كان إلا خيراً.

إذا علمت هذا فاعلم أن العليم بالعِلم الذي لا أوَّل ولا انتهاء له ، وهو الحكيم المُطلق سبحانه وتعالى ، هو الذي يدبِّر أمر العوالم كلِّها بمُقتضى عِلمه وحِكمته ، فاستسلم أيُّها الإنسان لشرعه وقضائه سبحانه ، لأنه لم يَشرع لك إلا ما فيه الخير والنَّفع لعباده.

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخير في يديك وليس الشر إليك»(١).

وعلى هذا المعنى يُحمل فَهْم جميع ما ورد بهذا الشَّأن ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: من شر

---

(١) تقدم تخريجه ص/ ٣١١/.

المخلوقات التي تُضاف إليها الشُّرور والمساوىء ، وليس من الخالق شر؛ جل وعلا سبحانه وتعالى .

واعلم أنَّ جميع أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم بيانات للقرآن الكريم ، وقد يُدرِك الإنسان مناسبة الحديث ، وقد لا يدركها ، وهذا يَعود إلى قوة رُسوخه في العِلم ، وسَعَة اطِّلاعه على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أبقى ثواباً للمؤمنين المحسنين ، وأبقى عقاباً للكافرين المعاندين. ولم يُبال هؤلاء السحرة الذين آمنوا بربِّ العالمين؛ لم يبالوا بتهديد ووعيد فرعون لهم ، وليَقض ما هو قاضٍ ، فإن قضاءه وفعله سيفنى بفنائه وفناء الدنيا ، أمَّا النَّعيم الباقي ، والعذاب الباقي ، فهو في الآخرة ، وهو بيد الله تعالى وَحْدَه .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ، والمُراد من الإجرام في الآية الكفر ، ويقال: أجرم فلان إذا خالف أمراً أو ارتكب نهياً، وأعظم الأجرام والإجرام هو الكفر .

﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي: موتاً يُخلِّصه من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة طيِّبة يَنعم فيها كما ينعم الإنسان في الحياة ، وفيه يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢ ـ ١٣].

وهذا لأنَّ الموت الذي يتمنَّاه الكفار وهم في جهنم لِيَذْهب إحساسهم بالعذاب؛ هذا الموت قد مات فأنَّى لهم ذلك؟.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي[1] ، عنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] قَالَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ ، حَتَّى يُوقَفَ عَلَى السُّورِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَشْرَئِبُّونَ.

وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ. فَيَشْرَئِبُّونَ ـ أي: ينظرون إلى السور وعليه الكبش ـ.

فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ ـ وهذا لأن كل إنسان قد ذاق الموت فعرفه ـ.

فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ ـ على مرأى من أهل الجَنَّة وأهل النار ـ فَلَوْلا أَنَّ اللهَ قَضَى لأَهْلِ الْجَنَّةِ الْحَيَاةَ فِيهَا وَالْبَقَاءَ لَمَاتُوا فَرَحاً ، وَلَوْلا أَنَّ اللهَ قَضَى لأَهْلِ النَّارِ الْحَيَاةَ فِيهَا وَالْبَقَاءَ لَمَاتُوا تَرَحاً» أي: من شدة الحزن.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿مُؤْمِنًا﴾ أي: مُصدِّقاً تصديقاً جازماً لا يقبل الشَّك والارتياب ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وأمَّا مَنْ كانت قضايا الإيمان عنده بمنزلة الظَّن فلا يُعتبر هذا إيماناً ، ولا يُقبل منه.

---

(١) في كتاب التفسير ، ومن سورة مريم / ٣١٥٥/ (٨/ ٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿مُؤْمِنًا﴾ أي: بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والإيمان: تصديق قلبي جازم، مع الإذعان والانقياد لِمَا آمَنْتَ به، وليس الإيمان مُجرَّد معرفة، إذ قد يعرف الإنسان الحقَّ ولا يعترف به، كما قال تعالى مُخبراً عن كفار أهل الكتاب، الذين لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: يعرفون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصِدْق ما جاء به ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وهذا لأنَّ أوصافه صلى الله عليه وآله وسلم مذكورةٌ في كتبهم، ولكنَّهم لم يعترفوا، ولم يؤمنوا به صلى الله عليه وآله وسلم تكبُّراً وعِناداً.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

أي: ليُؤمِن به قومه، ويُذعِنوا وينقادوا لأمره، لا أنَّهم يُقرون برسالته ولا يذعنوا له. فالإذعان شرط في صحة الإيمان، وليس كل من عَرف الحق فهو على حق؛ إلا أن يعترف ويُذعن لِمَا يعرف.

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ وكان يهودياً وآمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ـ: والله معرفتي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أقوىٰ من معرفتي بابني.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمن وعمل الصالحات التي يتطلَّبها إيمانه، فعمله للصالحات مبني على أساس الإيمان.

قوله: ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: قد عمل الأعمال الصالحات، وهي ما يَصلح بها أمر الإنسان، ولا يصلح أمر الإنسان إلا بامتثال

أوامر شريعة الله تعالى ، فَمَنْ تحقَّق بشرع الله تعالى أمراً ونهياً : فهو صالح في قلبه ونفسه ، وعقله وفِكره ، وحواسه ومداركه ، غير فاسد ، وَيصلح عندئذٍ للدخول في حضرات القُرب من رب العالمين ، ثم للحُلول في مَقعد صدقٍ عند مَليك مُقتدر .

فالصالحات تُصلح حال الإنسان ، وتُخرجه من فساده ، وتُعطيه صُلوحية ـ أي : قابلية ـ للدخول إلى حضرة رب العالمين .

واعلم أنَّ العالم كلَّه علامة دالة على الله تعالى ، فلا تقف عنده وتترك ما دلَّ عليه ، إذ المقصود من وراء هذا العالم هو الله تعالى ربُّ العالمين .

ولفظة عالَمُ أي : ما يُعلم به الشيء ، كما تقول خاتم وهو ما يُختم به الشيء ، فيُعلم من هذا العالَم ربه رب العالمين ، فهو وسيلة لمعرفة الله تعالى ، وليس مقصوداً لذاته ، بل المقصود هو الله تعالى، كما يُقصد من القلم الكتابة به ، ومن الكوب الشرب به وهكذا . . .

وقال بعضهم :

قال لي حُسنُ كلِّ شيء تَحلّ بي تَمَلَّ قُلت : قصدي ما وراكا

أي : أن الأشياء الحسنة المُتَنة قالت للعارف بالله تعالى : بي تَمَلَّ . أي : ارغب فيَّ ، وتفرَّغ لي ، واشغل نفسك بي .

قال العارف رضي الله عنه : قلت : قصدي وراك . أي : ما أنت أيها العالَم مقصودي ، بل مقصودي ما وراءك أي : ما توارى وراءك ، وهو عظمة الله وقدرة الله تعالى .

والعالم كله مظاهر قدرة الله تعالى ، وكمال الله وجماله وأسمائه

سبحانه ، فلا تقف أيها الإنسان مع المظهر ، بل توجَّه إلى الظاهر في المَظَاهر[(١)] ، وهو المقصود سبحانه وتعالى ، فكما الغرض من المِرآة إظهار الأشياء فيها ، وليست مقصودة لذاتها ، فكذلك المَظاهر من حولك ، وهي العوالم كلها ، تَظهر فيها آثار أسماء الله تعالى ، وقدرته وعلمه وعظمته.

والعالم كلُّه كلمات الله تعالى ، فاقرأ كلمات الله تعالى وآياته في هذا العالم ، كما قال الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣].

وليست قراءتك لآيات الله تعالى في العالم حولك كقراءتك لآيات الله تعالى القرآنية التدوينية ، بل هي قراءة بالفِكر والقلب ، كما لو دخل عليك إنسان وعلى وجهه الخُمول والاصفرار والاضطراب، فإنَّك تقرأ في وجهه الحُزن والكآبة ، وتقرأ السُّرور والفرح على من دخل عليك نشيطاً مُبتسماً.

فآيات الكون المرئية تَقرأ كلماتها بالنَّظر ، والتَّدبُّر بالعقل والقلب فافهم.

قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي : إنْ هو آمن وتحقَّق بعمل الصالحات صار مِن المُقربين إلى الله تعالى ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنَّ أهل الدَّرجات العُلى ـ أي : في الجنة ـ ليراهم مَنْ تحتهم ـ أي : من أهل الجنة وهم الأبرار وأصحاب اليمين ـ كما ترون النجم الطالع في الأفق»[(٢)].

---

(١) والمزهر : هو الدُّف الذي يضرب به ، أما المَظهر فهو موضع الظهور ، كالمِرآة مثلاً التي تَظهر أنت فيها.

(٢) الحديث كما في (سنن) الترمذي كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر الصديق =

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] فكما ترى التَّفاوت والتَّفاضل بين الناس في الدنيا، فاعلم أنَّ الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، كما سبق بيانه في الحديث.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة أبدية، ويقال عَدَنَ[1] بالمكان إذا أقام به، ومنه المَعْدن لأنه مُستقر مُقيم في بطن الأرض.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: وهذا جزاء من تَطهَّر وتقدَّس بالإيمان والعمل الصالح.

والتَّزكية: هي التَّطهر، كما أن زكاة المال طُهرٌ له، فمن تزكَّى أي: تطهَّر أولاً من الكفر فآمن وقال: لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2]، ثم طهَّر نفسه بالأعمال الصَّالحة والأخلاق الحسنة، كان أهلاً لدخول الجنة.

وإنَّ أعظم ما يُعين الإنسان على تطهير نفسه، ويحملها على التَّمسك بشرع الله تعالى إنما هو مُراقبة الله تعالى، كما بيَّن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى مراقبتك لله: هي أن تُراقب أن الله تعالى رقيب عليك لا يغفل عنك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]،

= رضي الله عنه / ٣٦٥٩/ (٩/ ٢٦٦). (ومسند) الإمام أحمد (٣/ ٢٧ ـ ٧٢ ـ ٩٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١) وتدل هذه المادة على البقاء والثُّبوت.

(٢) كما قال هذا ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثٌ من فَعلهنَّ فقد طَعِم طَعْم الإيمان: مَن عَبد الله وحدَهُ؛ وعَلمَ أنه لا إلَه إلا الله، وأعطى زكاةَ ماله: طيِّبَةً بها نفسُه، رافِدَةً عليه كلَّ عام، ولم يُعطِ الهَرِمَةَ، ولا الدَّرِنَة، ولا المريضة، ولا الشَّرَطَ اللئيمةً؛ ولكن من وسط أموالكم، فإنَّ الله لم يسألكم خيره ـ أي: لم يطلب منكم خير أموالكم ـ ولم يأمركم بشرِّه ـ أي: بشر أموالكم ـ وزكَّى نفسه».

فقال رجل: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما تزكية المرء نفسه؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تعلم أن الله معك حيثما كنت»(١).

فمن راقب أن الله تعالى معه متى كان؛ وحيثما كان؛ حَمله ذلك على تقوى الله تعالى على الدوام.

ومن غفل عن ذلك وقع في الزلل. ونسأل الله تعالى العافية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو نعيم، وأصله في (سنن) أبي داود كتاب الزكاة، باب زكاة السائمة /١٥٨٢/ (٢/ ٢٤٠) عن سيدنا عبد الله بن معاوية الغاضري ضي الله عنه.

الدرس الأول حول تفسير قوله تعالى من سورة طه

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: وكما أوحينا أخبار الأمم السابقة، وقصصنا عليك قصة موسى عليه السلام مع فرعون ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: ومثل ذلك ﴿ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: وفيه من الإخبارات، والقصص، والعلوم، والأحكام ما فيه.

وللقرآن عِدَّة أسماء، وذلك لكثرة فضائله وعُلو مكانته، فهو قرآن باعتبار أنه يقرأ، فهو مَقروء. وهو قرآن بمعنى الجمع أيضاً[1].

---

(١) ومادة قَرَأ تدل على الجمع أيضاً، ومنه القَرية فهي في اللغة البلدة الجامعة للسكان، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] أي: من أهل مكة أو الطائف، وهما أكبر بلدين وقتئذ في جزيرة العرب.

أما إطلاق كلمة القرية على البلدة الصغيرة فهو من باب العرف

وهو **كتاب** باعتبار أنه جامع للعلوم والأحكام وغير ذلك ـ من الكَتب وهو الجمع.

وهو **فرقان** لأنه فَرّق بين الحق والباطل وهكذا.

وقد أنزل الله تعالى هذا القرآن بلغة العرب ، لأنها أفصح اللغات ، وأبينها للمعاني التي تضيق باقي اللغات عن بيانها ، وهي أفضل اللغات؛ لأنها لغة أهل الجنة.

فقد نزل هذا القرآن بأفضل لغة على أفضل خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، بواسطة أفضل مَلك وهو جبريل عليه السلام ، في أفضل ليلة وهي ليلة القدر ، على أفضل أمة وهي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن صفات القرآن التي لا تنفك عنه أنه عربي ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] لأنّ لغة العرب فيها من الكلمات ما يعبر لك عن جميع المعاني المعقولة والمحسوسة والمعنوية ، وعن كل شيء يتصوره العقل ، في حين تضيق باقي اللغات وتعجز عن بيان ذلك ، فلغة العرب هي لغة البيان ، ويقال: أعرب الصبي إذا أبان.

وقد بلغت اللغة العربية أعلى حَدٍّ لها في الفصاحة والبلاغة في عصر الجاهلية قبل البعثة.

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء بقرآن عربي ، هَدَّ عروش البلغاء والفصحاء ، وبلغ حد الإعجاز ، حتى أعجزهم وأعجز الخلائق كلَّها إلى يوم الدين عن أن يأتوا بمثله: نصاً ، وخبراً ، وحكماً ، وتشريعاً ، وهكذا. . .

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: إن فيه البيان

الواضح بلسان عربي مُبين، ومتى جرَّدت القرآن عن العربية فقد خرج عن كونه قرآناً ـ أي: خرج عن كونه كلام الله تعالى ـ بل صار من كلام البشر.

وهذا يكون بتفسير القرآن، أو بيان معانيه بلغة أخرى غير العربية، فلا يقال عن القرآن إذا فسَّرته بلغة أخرى بأنه قرآن مُترجم، بل هو بيان وتفسير للقرآن بلغة كذا مثلاً.

وهذا كما إذا فسَّرت آية بكلامك، فلا يُقال عن هذا التفسير بأنه قرآن، بل بيان وإيضاح لمعنى الآية وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ صرَّفنا: من التصريف، وهو التنويع.

والمعنى: أتينا بصرُوف وأنواع من ذكر الوعيد في هذا القرآن، ومنه: تصريف الرياح ـ أي: اختلاف اتجاهها وتنويعها ـ.

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم أنواعاً من التهديدات والعقوبات في الدنيا وفي الآخرة لِمَن خالف أمر الله تعالى.

فذكر سبحانه حال الكفار في الدنيا، وما حل على الأمم السابقة من عقوبات، وكذلك ذكر سبحانه مآل الكفار في الآخرة، وأنواع العذاب الذي سيلاقونه. وهكذا.

ولِمَ ذكر سبحانه أنواعاً وصروفاً من الوعيد والعقوبات في هذا القرآن؟ قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: لَعَلَّ العباد يتقون الله تعالى، بامتثال أمره، واجتناب ما نهى عنه؛ حين يسمعون بوعيد الله وعذابه وعقابه.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ وتطلق لعل في لغة العرب للترجي،

ولكن الترجي لا يتصور في جانب الحق سبحانه وتعالى ، فإنّه سبحانه يُرجى ولا يرجو.

أما معنى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أي: إنَّ من أراد أن يكون على رجاء حقيقي لأن يكون من المتقين؛ فعليه أن يتذكر بتذكير القرآن ، ويتعظ بمواعظه ، ومن تذكر واتعظ بمواعظ القرآن فهو على رجاء أن يكون من المتقين ، وَأَن يحشره الله في زمرة المتقين. فلا تقوى إلا عند من خاف وعيد القرآن.

وأما مَنْ لم يتعظ بمواعظ القرآن ووعيده؛ فلا يرجى منه أن يكون من المتقين. ومِنْ هذا يُفهم أن الرجاء صفة للعبد؛ أنه يرجو الله تعالى ، لا أن الله يرجو منه.

ومنهم من قال: إن لعل في الآية السابقة تعليلية ، بمعنى: مِنْ أجل.

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم أنواعاً من العقوبات الإلٰهية التي حلت على الأمم السابقة ، لَمّا كفروا وارتكبوا المحرمات. وكل ذلك فيه العبرة والموعظة لهذا المؤمن المحمدي ، بأن لا يَلبس ألبسة تلك الأمم الكافرة ، وأن يتجنب الوقوع في المحرمات التي ارتكبها أولئك؛ وكانت سبباً في إهلاكهم ونزول العذاب عليهم.

وقد أخبر سبحانه أنه أهلك عاداً لما كفروا واستكبروا في الأرض: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥] فقد اغتروا بقوة أجسادهم ، وضخامتهم ، وطول أعمارهم ، حتى كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ليسكنوا فيها ، فلما

كفروا واستكبروا سلّط الله عليهم من جنوده شيئاً لا يستطيعون رؤيته ، أو إمساكه ومقاومته ، وهو الريح ، حتى أهلكتهم جميعاً ، وَمَنْ كان منهم يحتمي بدخول مسكنه في الجبال كانت الريح تسحبه من داخل الجبل حتى تهلكه . وقال فيهم سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : ٢٠]

وأخبر سبحانه أنه أهلك قوم لوط لما كفروا ، وارتكبوا الفاحشة ، بأن غَيَّروا مزاجهم النفساني ، وجعلوا يأتون الذكور دون نسائهم ، فكانت عقوبتهم تماثل وتناسب فعلتهم ، إذ قلب الله بهم الأرض : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ الآية [الحجر : ٧٤].

واعلم أن العقوبات الإلّهية مَثُلات ـ أي : تأتي مماثلة للجريمة التي ارتكبها المجرمون الكافرون ـ وهذا كما قال سبحانه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ الآية [الرعد : ٦].

فهؤلاء قوم شعيب لما كفروا ، وطففوا المكيال والميزان ، وراحوا في المكر والغش ؛ أخذتهم الرجفة من حيث لا يشعرون ، وكذلك قوم نوح لمَّا كفروا به واستغرقوا في كفرهم ـ رغم طول المدة التي دعاهم فيها إلى الله تعالى ـ سَلَّط الله تعالى عليهم الطوفان وأغرقهم : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ الآية [نوح : ٢٥].

واعلم أَنّ كل ذلك مما ذكره الله تعالى في القرآن من جرائم الأمم السابقة ، وما حل بها من الهلاك والعذاب ، كل ذلك من الوعيد الذي صَرّفه الله تعالى في القرآن وَنَوّع ذكره ، فما عليك أيها المؤمن المحمدي إلا اجتناب أفعالهم ، وأن لا تلبس أَلبسة تلك

الأمم. بل اِلْبَسْ لباس الهدي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمَنْ فعل فعل قوم لوط فقد اتصف بصفتهم، ولبس لباسهم.

وكذلك مَنْ طَفَّف في المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم؛ فقد لبس لباس قوم شعيب الذين كفروا بشعيب. ويقال له: أنت لست من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعة لشرعه.

وهكذا من اتصف بالتكبر والتجبر والعُتوِّ، فقد اتصف بصفة قوم هود؛ الذين كفروا به ولبس لباسهم.

وذلك لأن الصفات التي يتصف بها الإنسان إنما هي ألبسة يلبسها، وذلك لأنّها لابست الإنسان، ولازمته أشد من ملازمة الألبسة الحسية له؛ التي قد يُبدلها لَمَّا يريد النوم مثلاً.

فإذا كان ما ترتَدِيه يُسمى لباساً لملابسته لك، وملازمته لك، فإن الصفة التي لزمتها واتصفت بها أحق أن تُسمى لباساً من تلك الألبسة الحسية. ومن هنا قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فافهم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: فشأن المؤمن لَمَّا يسمع مواعظ القرآن ووعيده أَنْ ينتفع بها، ويرجو أَنْ يكون من المتقين.

ومن رجا أَن يكون من المتقين فعليه أَنْ يتعظ بمواعظ القرآن ووعيده وتذكيره.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: أَنَّ شأن المؤمن لَمَّا تَرِدُ عليه تلك المواعظ الإلّهية أَنْ يخلع ما عليه من ألبسة رذيلة، ويلبس لباس التقوى، ويصير من المتقين.

أَو أَنَّ وعيد القرآن ومواعظه: تورث في نفس السامع ذكرى، يعتبر بها، وتحمله على خشية الله، ويندم على نفسه، ويسعى أَنْ يكون في زمرة المتقين.

أَيْ إِنَّ أثر الوعيد القرآني، والمواعظ القرآنية: إما أَنْ يكون فورياً يؤثر في السامع، فيخلع لباس الرذيلة، ويلبس لباس التقوى. أَو أَن ذكر الوعيد حَمله على التذكّر والتدبّر، حتى راح يلوم نفسه، ويندم على أفعاله، ثم تاب ولبس لباس التقوى.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: تذكيراً في قلوبهم، فيعتبروا ويندموا على ما فعلوا.

أَو أَنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: بترك الرذائل وهي التخلية ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: بامتثال الأوامر وهي التحلية بالفضائل.

أَي: إِن شأن المواعظ القرآنية أَن تحمل الإنسان على التخلي عن القبائح والرذائل، والتحلي بالمكارم والفضائل.

ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالصلاة تشتملُ على تخلية وتحلية، فهي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر من ناحية، ثم تُحَلِّي صاحبها بالكمالات والفضائل، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ لأنّ فيها ذكر المصلي لله، وذكر الله له.

واعلم أن نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر يكون على حسب

خشوع المصلي فيها ، ومراقبته لله تعالى فيها . فمِنَ المُصلين من يُصلي صلاة الغافلين ، وقد لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر إلا وقت الصلاة فقط ، ومنهم مَن يصلي صلاة المحسنين فتراه مُمتثلاً أمر الله تعالى ، وإنْ صَدر منه ذنب بادر إلى الاستغفار والتوبة. ومِنَ المصلين بين هذا وذاك.

وكذلك فإنَّ الصلاة نورٌ لصاحبها ، ويَقوى النور كلما زاد خشوع المصلي في صلاته ، وهناك النُّور الخافِت الذي لا ينير إلا نفسه ، وهناك الأقوى والأقوى ، وهكذا كلمَّا قوي نور الصلاة نهت صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وأقل ما يكون من نورها أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر حال صلاته فقط.

وأما صلاة من وصفهم الله تعالى بأنهم مقيموا الصلاة ، فإنَّ صلاة أحدهم تُنير له إلى حين صلاة الوقت الآخر ، وهكذا شأن النور أنه مستمر معهم ، وتنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر. فهم في حصانةِ الله وحفظه سبحانه.

واعلم أَنَّ في قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ دليلاً وبياناً إلهياً على أَنَّ القرآن له تأثير في مواعظه وتذكيره ووعيده. وإنَّ مَنْ لم يتعظ بمواعظ القرآن ، ويتذكر بتذكيره؛ فلا تنفعه موعظة أحد ، وَمَنْ لم يتأثر بكلام الله تعالى فأيّ كلام يؤثر فيه إذاً؟ !.

والأصل في الموعظة والتذكير هو: كلام الله تعالى ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا حرج بَعْدَ أن تأتي بذلك أَنْ تذكر كلام الصالحين ، والعلماء ، والعارفين؛ تبعاً لكلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتفسيراً له ،

على حسب ما فتح الله عليهم من فهم لكلام الله تعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد يُكرم الله تعالى بعض عباده الصالحين فيفتح عليهم مفاهيم عالية لبعض نصوص الكتاب والسنة ، وهذا ما يُعرف بمقام الإفهام والتفهيم الإلّهي ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ الآية [الأنبياء: ٧٩].

وتختلف درجات الصالحين في الفهم؛ على اختلاف درجاتهم في التقوى والصلاح.

وقد تعرض على قلب الإنسان مفاهيم لبعض الآيات أو الأحاديث ، ولكن هذه المفاهيم قد تكون سفلية شيطانية ، فيجب رد تلك المفاهيم إلى الميزان الشرعي المحمدي ، لمعرفة صحتها ومصدرها ، ولا يقال عندئذ عَن هذا فهم بل هو بُهم.

وإنّ الفرق بين الفهم والبهم في الشكل هو النقطة. فالفهم ذو نقطة من الأعلى ، والبهم ذو نقطة من الأسفل ، وكم للنقطة من حكم وأسرار؛ لا يدركها إلا العارفون.

وقد حصل تنقيط وشكل القرآن في آخر عهد الصحابة ، وبداية عهد التابعين ، لكثرة دخول الناس ـ ومنهم الأعاجم ـ في دين الله تعالى ، وليسهل عليهم قراءة القرآن وتعليمه.

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يقرؤون بدون تنقيط ، لأنهم يدركون مواضع النقط بحكم فطرتهم ، وصفاء نفوسهم.

وكم مِنْ كلمات إذا بدلت فيها موضع النقط لتبدل المعنى تبدلاً كلياً ، ولو أنك بحثت في أسرار النقطة ، وخاصة في نقطة: ﴿تَ

﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ لو بحثت في ذلك دهر الداهرين ، وعصر المعاصرين ، لما انتهيت إلى الإحاطة بما فيها من أسرار وحكم.

وقال بعضهم:

تـذلـل لمـن تهـوى لتكسـب عـزة ... فكـم عِـزَّةٍ قـد نـالهـا المـرء بـالـذل

إذا كـان مَـنْ تهـوى عـزيـزاً ولـم ... تكن ذليـلاً فاقـرأْ السـلام علـى الوصـل

وإنَّ شأن التذلل أَن يمنح صاحبه التدلل ، وقالوا في ذلك:

بَيْـن التـذلـل والتـدلـل نقطـة ... فيهـا يتيـه العـالـم النحـريـر

هي نقطة الأكوان إنْ جاوزتها ... صرت الحكيم وعلمك الإكسير

فالنقطة الخطية توضع لضبط المعنى وتقييده وإيضاحه ، أما النقطة الكونية الوجودية فهي العالَمُ بما فيه ، فهو نقطة في بحر الوجود اللامتناهي.

فلو أنك جاوزت هذه النقطة ، وتركت هذه الأكوان وتوجهت إلى مُكوِّنها جل وعلا لوصلت إليه سبحانه ، وهو الذي له الوجود المطلق الذي لا يتناهى ، ومن جاوز نقطة الأكوان صار عبداً لله تعالى خالصاً ، وَمَنْ كان مشغولاً برؤية الأكوان فهو عبد لها ، قد استعبده الدينار ، أو الدرهم ، أو المرأة ، أو اللباس وهكذا.

فلا تَسْتَرِقَّنَّكَ الأغيار ، وتحجبك عن الله تعالى ، بل كن عبداً خالصاً لمن هو ربك على الحقيقة وهو الله تعالى؛ فاخضع له وتذلل ، واعبده واسجد له ، وتقرب إليه سبحانه.

وأما مَنْ كان واقفاً مع تلك النقطة ، فإنها تتحكم فيه ، ومن تركها وتجاوزها فهو الحكيم ، وعلمه الإكسير.

﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ﴾ أي: تعاظم وعلا بذاته وكمالاته، وأفعاله، وأسمائه، وكلامه، عن شَبَهِ المخلوقات. فكما تعالى في ذاته عن المماثلة، تعالى في كلامه أن يشبه كلام خلقه. وتظهر المناسبة في ذلك لأنه سبحانه ذكر في الآية قبلها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ المدبر للأمور، والمتصرف فيها، والذي يفعل ما يريد فيها بالحق، لأنه مَلِكٌ حق لا يصدر عنه إلا الحق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

جملة دروس
حول تفسير قوله تعالى في سورة طه

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم باللُّغة العربية ، لأنها أوسع اللغات ، وأفصحها وأوضحها ، وأبيَنُها عن أدقِّ المعاني التي تضيق باقي اللغات عن بيانها. ولكلِّ معنىً في اللغة العربية كلمات عدّة مُترادفة ، كلها تدل على ذلك المعنى.

وقد نَزَل القرآن عربياً مُعجِزاً ، فإنْ قُرِىء بغير العربية فلا يُقال عنه قُرآنٌ ، وإنَّما هو تفسير للقرآن.

ولا يصح أن تقول: هذا قرآن مُترجم ، بل هو تفسير للقرآن ، لأن القرآن هو بذاته وكلماته وحروفه ، ومتى أخرجته عن نصِّه وتركيبه ، أو عن لغته العربية خرَج عن كونه قرآناً ، بل صار تفسيراً للقرآن.

ومثاله: لو أردت أن تفسر قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقلت: معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إنَّ الله تعالى أمر

النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول: الله أحد. فقولُك: أمَرَ الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقولَ: الله أحد ليس قُرآناً، بل تفسيرٌ للقرآن، لأنَّ فيه خروجاً عن النص الذي نزَل به القرآن، واختلف عنه بأن صار كلامَك وتعبيرَك. فافهم.

ولا يُقال عن ترجمة القرآن إلى لغة أخرى، لا يقال عنه: قرآنٌ، بل هو تفسير للقرآن باللغة الفلانية، لأنَّه متى خرجْتَ بالقرآن عن تركيبه النَّصي باللغة العربية؛ إلى تركيب آخر بلغة أخرى ـ ولو كانت عربية ـ فإنّك بهذا أخرجْتَ القرآن عن قُرآنيته، ولا يُقال عنه كلام الله تعالى.

وأمّا كلمة قرآن فهي لأنَّه يُقرأ، ولأنَّه جامع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: قراءة القرآن في صلاة الفجر، تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فجيء بكلمة القرآن وأُريد منها القراءة، فقد يُطلق القرآن على القراءة بمعنى المصدر.

وقد يُطلق القرآن على المَقروء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أي: كلام الله تعالى الذي يُقرأ، ولأنَّه جامع للمعاني والعلوم، ومنه القرية وهي: البلد الجامع العامِر بالسُّكان.

ويُقال عن القرآن: بأنَّه فرقان لأنَّه يُفرق بين الحق والباطل.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تعاظَم وتعالى عن الشَّبَه، ومن أسمائه سبحانه المُتعالي، وليس عُلوه سبحانه كعُلو المحسوسات، بل هو سبحانه مُتصف بالتَّعالي قبل أن يخلق الخلق والأرض والسماوات والعرش، بل المُراد: العُلو الذَّاتي الرباني.

فهو مُتعالٍ في ذاته عن الذوات ، فلا تُشبِه ذاته الذوات ، وهو المُتعالي في صفاته ، فلا شبيه ولا نظير له في: قدرته وعِلْمه وحِكْمته ، وجميع صفاته جلَّ وعلا ، فلا أحد يُساويه ولا أحد يُدانيه.

وهو سبحانه المُتعالي في أفعاله ، لأنَّه سبحانه له الصفات الذاتية القائمة بالذات العَليَّة: كالحياة والسمع والبصر ، وهناك الصفات الفعلية التي يظهر أثرها في مخلوقاته: كالخَلْق والإحياء والإماتة ، فهو خالق بارئ مصور ، محيٍ مميت ، ولا أحد يدانيه في ذلك سبحانه.

فهو المُتعالي في جميع شؤوناته وتجلياته ، وفي جميع ما يتعلق به سبحانه ، وفي كلامه؛ فكلامه لا يشبه كلام خلقه ، ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ بعد ذِكره لكلامه وتنزيله للقرآن على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو سبحانه مُتصف بالكلام ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] لكنَّ كلامه لا يُشبه كلام خلقه ، ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾.

وإنَّ كلام المخلوق مُتوقف على حُلقوم وحَنجَرة ، وشفتين ولسان وهواء ، وهو أي: الهواء لمَّا يَشمُّه الإنسان ، ويدخل إلى نَفْسِه يسمى نَفَساً ، أمَّا قبل ذلك فهو هواء. وبمرور النَّفَس على تلك المقاطع والتَّضاريس الجوفية ، يتكوَّن الصوت والكلام ، الذي يحمل معان تعجز عنه الجبال ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ [الروم: ٢٢].

أمَّا كلامه سبحانه فهو كلام حقيقي ، لائِق به ، لا يُشبه كلام المخلوقات ، وهو سبحانه يُكلِّم أهل الجنة ، ويُسلِّم عليهم ، ويقرأ عليهم القرآن ، وهم يسمعون ذلك سماعاً حقيقياً.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ المَلك أي: المُدبر للأمور ، والمُتصرف في خَلْقه كما يشاء؛ على مُقتضى عِلمه وحكمته.

وهو سبحانه المالِك لذوات الأشياء ، وهو المِلك أي: المُتصرف فيها بالحق ، لأنَّه الملِك الحق ، ولأنَّه مِلك حق بَيَّن سبحانه لعباده الحق ، وذلك بإنزال القرآن عليهم ، وفيه صلاح أمرهم في الدنيا ، وسعادة حالهم في الآخرة ، وقد جاء هذا القرآن عربياً فيه بيانُ كل شيء: ﴿تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وإنَّ ما جاء تحريمه في الشرع؛ إنَّما جاء ذلك لفساده وضَرَره ، فلم يُحرِّم سبحانه لَحْم الخنزير بُخلاً وشحاً به على عباده ، أو استئثاراً به ، فهو سبحانه الخالق لكلِّ شيء؛ حتى الخنازير ، بل حرَّمه لمفسدته وضرره ونجاسته وخُبثه ، وإنَّ لآكله أثراً ذميماً في نفسه ، وكذلك حرَّم سبحانه لحم الحُمُر لأنَّ فيها حَجْباً لِعَقْلِ الإنسان عن التَّعقل والتَّدبر ، وما هي قيمة الإنسان بلا عقل ؟! وهل اعتبار الإنسان وعلو رتبته إلا بعقله الإيماني؟! وهل يتميَّز الإنسان عن سائر الحيوانات إلا بعقله؟! وكيف يَسوغ للإنسان أن يُضَيِّع عقله الذي أكرمه الله تعالى به؟!!.

وهكذا سائر المُحرَّمات التي حرَّمها الله تعالى على عباده ، فهي خبائث ، فيها المَفاسد والمَضار ، كما قال سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهي خبائث ،

قد يدرك الإنسان خُبثها وقد لا يدرك ، فما عليه إلا أن ينتهي عنها ، لأنَّ الله الذي حرَّمها هو أعلم وأحكم ، فاستسلم لشرعه وأمره ونهيه سبحانه.

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] قد جاء بيانُ هذه الآية في آية أخرى ـ لأنَّ القرآن يُفسِّر بعضه بعضاً ـ وهي قوله تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة : ١٦ ـ ١٩].

ولقد كان جبريل عليه السلام ، لمَّا ينزل بالوحي القرآني على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقرأ عليه ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ أيضاً ما نَزل به جبريل عليه السلام ، قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من قراءة ما نَزَل به ، وفي ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعالِج من التَّنزيل شِدَّة ، فكان يُحرِّك شَفتيه بالقرآن قبل أن تَنقضيَ قراءة جبريل عليه السلام ، حِرصاً منه صلى الله عليه وآله وسلم على القرآن ، وخشية أن يتفلَّت منه شيء ، فنزلت الآية : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ الآيات.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي : علينا أن نجمعَ هذا القرآن كلَّه في قلبك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿جَمْعَهُۥ﴾ أي : في صدرك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك لأنَّ القلب بيت الصَّدر ، والصدر ساحة القلب فلا تنافي.

﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: أن نُقرئك إياه على أَبْيَن قراءة يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ أي: قرأه جبريل عليه السلام، وانتهى من قراءة ما نزل به ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: اقرأ بعد ذلك ما نزل عليك، فلا تَتعجَّل وتُجهِد نفسك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ والقارىء هو جبريل عليه السلام، وذلك لأنَّ جبريل عليه السلام يقرأ عن أمر الله تعالى، وقد تلقى القرآن عن حضرة الله تعالى، ثمَّ قرأه على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا مقام كبير في القُرب يُسمى: (القُرب الملكوتي) لا يناله إلا من كانت أفعاله أَمْرِيّة وهم الملائكة عليهم السلام، ولذلك فَهُم أَمْرِيُّون وليسوا نفسيين، فلا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله تعالى؛ لا بدافعٍ من أنفسهم، وأمَّا الآدميون المؤمنون فقد ينالون هذا المقام على نسبة معينة، فلمَّا يُصلي أحدهم لله تعالى حُبّاً في الله تعالى، وتعشُّقاً بالصلاة، حتى صارت الصلاة عنده نفسية أَمْرية، ولم تخرج عن كونها نفسية.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: علينا أَنْ نبيِّن لك معاني القرآن يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن هذه المعاني التي يجب عليك أن تُبينها للناس، لأنها تتعلق بالأحكام الشرعية: كالصلاة والزكاة والحج وغيرها.

وهناك معانٍ قرآنية خاصة بك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تترقَّى بها في مقامات القُرب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤] مِن معانٍ

يَصح بها دينهم وإيمانهم ، وهناك علوم ومفاهيم قرآنية اختُص بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن ذلك قوله : «إنَّ الله تعالى أمرني أن أعلِّمَكم ما جهلتم مما علَّمني في يومي هذا»(١) أي : بعض العلوم التي عَلَّمَنِيها الله تعالى؛ لا جميعها ، لأنَّه لا استعداد عند النَّاس لفهم المعاني كاستعداد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنَّما بيَّن لهم ما يحتاجون إليه في فَهْم دينهم ، وما تستعدُّ عقولهم لتقبُّله . ومِنْ بياناته صلى الله عليه وآله وسلم قوله : «صلُّوا كما رأيتموني أُصلي»(٢) ، «خُذوا عنِّي مَنَاسِكَكُم»(٣) وهكذا .

واعلم أن بيانات القرآن هي أيضاً بوحي الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه آله وسلم ، ونزلت عليه بالوحي النبويِّ ، وهذا قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء : ١١٣] أي : السُّنة المُطهرة ، بما فيها من أقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : (لقد تَرَكَنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يحرك طائر جناحيه في السَّماء إلا وذَكَرَ لنا رسول الله

(١) طرف من حديث طويل رواه الإمام مسلم في صحيحه ، في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار /٢٨٦٥/ (٥/ ٢٧٢٠) عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه .

(٢) هذا طرف من حديث رواه الإمام البخاري في كتاب الأذان ، باب الأذان لمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة /٦٣١/ (٢/ ١١١) وهو في (المسند) (٥/ ٥٣) عن سيدنا مالك بن الحويرث رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الحج ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً /١٢٩٧/ (٣/ ١٣٣٣) ولفظه : «لتأخذوا مناسككم . . . .» عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

صلى الله عليه وآله وسلم منه عِلماً) وقال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء يقرِّب إلى الجنة ويُباعد عن النار إلا بيَّنته لكم»(١).

والقُرب على مراتب ومقامات: فهناك قُرب الأبرار، وقرب المقرَّبين، وقرب الصِّدِّيقين، وكلٌّ منهم على درجات ومراتب.

فلم يترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته حَيَارى، بل تركهم على هُدى ونور وضياء «تَرَكْتُكم على مِثل البيضاء ليلُها ونهارُها سَواء»(٢).

وهل يُعْقل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تناول الحديث عن عالم الطَّير، وأهمَل شيئاً فيه سعادة البشر في الدُّنيا والآخرة؟! فلم يُحدِّث عن عالَم الطَّير وغيره إلا وقد بيَّن البيان القرآني للنَّاس، الذي فيه صلاحهم وسعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، ولكن أَين الباحثون، وأين المُؤمنون الذين يتدبَّرون أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم ويدرسونها؟!

﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ قال العُلماء رضي الله عنهم: لم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الاستزادة من شيء إلا من العِلم. أي: العلم بالقرآن، كما دلَّت عليه سِيَاق الآية، والقُرآن فيه التَّقرُّب إلى الله تعالى، ومعرفة عَظَمة الله تعالى، وفيه العِلم بـ لا إِلَه إلا الله.

ولا بُدَّ لك لِفَهْم القُرآن من الرُّجوع إلى بياناته صلى الله عليه

---

(١) كما في (مجمع الزوائد) (٨/ ٢٦٣) معزواً للإمام أحمد والطبراني.

(٢) الحديث كما في سنن ابن ماجه، المقدمة /٥/(١/ ٤) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه، و(المسند) (٤/ ١٢٦) عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وآله وسلم ، لأنَّه هو صاحب البَيَان عن القُرآن الذي قال الله تعالى له : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٩] أي : لك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثُمَّ أمرَه أن يُبيِّنه للنَّاس : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤].

وأمَّا العلوم الكَونيَّة الأخرى فهي علوم أرضية مَعاشِيَّة ، لا تُفيد صاحبها بعد الموت ، وليست مقصودة لذاتها ، وإنَّما العِلم المقصود بذاته ـ وهو العلم النَّافع في الدُّنيا والآخرة ـ هو العِلم بالله ، والعِلم بكتاب الله ، والعِلم بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا استيقظ من الليل قال : «لا إلّه إلا أنتَ ، سُبحانكَ ، اللهُمَّ أستغفرُك لذنبي ، وأسألكَ رحمتك ، اللهُمَّ زدني عِلْماً ، ولا تُزِغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهَبْ لي من لَدُنك رحمةً إنَّك أنتَ الوهاب»(١).

ومن دُعائه صلى الله عليه وآله وسلم : «اللهُمَّ علِّمني ما ينفعُني ، وانفعني بما علَّمتني ، وزِدني عِلْماً ، والحمدُ لله على كُلِّ حال ونعوذ بالله من حالِ أهل النَّار»(٢).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب ، باب ما يقول الرجل إذا تعارَّ من الليل / ٥٠٦١/ (٥/٣٠٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب /١٣٩/ حديث رقم /٣٥٩٣/ (٩/٢٢٦) وابن ماجه في المقدمة /٢٥١/ (١/٩٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ ﴾ وهذا عطف جُمَلٍ على جُمَل ، إذ إنه سبحانه ذكر قصة آدم وزوجه عليهما السلام وما جرى لهما؛ بَعد أن ذكر سبحانه قصة موسى عليه السلام مع فرعون .

قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل موسى ، وَقَبْلُ : مَنْ هو قَبْلَ موسى عليه السلام من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

قوله تعالى : ﴿ عَهِدْنَآ ﴾ يقال : عَهِد إليه إذا أعلمه وأوصاه ، ولفت انتباهه إلى أمور هامة .

قوله تعالى : ﴿ فَنَسِىَ ﴾ ويُطلق النسيان على معنيين : إما الذهول عن الحافظة ، أو بمعنى الترك . وهو النسيان الفعلي .

واختلف العلماء في نسيان آدم عليه السلام:

فمنهم من قال: إنه نسيان الغياب عن الحافظة.

ومنهم من قال: إنه نسيان الترك ، أي: إنَّ آدم عليه السلام ترك العهد ، وفعل ما نُهِيَ عنه.

والتحقيق: أَنّ آدم عليه السلام نَسِيَ ، بمعنى: غاب العهد عن حافظته ، أو أَنّه عليه السلام نسي العهد ، أَوْ نسي ما يترتب على العهد.

والظاهر: أَنه نسي العهد ـ وهو نهي الله تعالى له عن الأكل من شجرة معينة ، أَوْجَدها الله تعالى في الجنة؛ لحكمة يريدها سبحانه ـ أو أَنه نسي عاقبة العهد ، وهو أَنه إِنْ أَكل من الشجرة التي نُهِيَ عنها فإنه سَيُهْبَطُ به إلى عالم الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ إما أن يكون المعنى: لم نجد له تصميماً وَقَدَماً ثابتاً في الصبر عن الأكل من الشجرة ، بل أكل منها.

أَو أَن المعنى: لَم نجد له عزماً ـ أي: نية وهمة ـ على ارتكاب المخالفة ، وإنّما صدر منه ما صدر ناسياً؛ غير قاصد فعل ما نهاه الله عنه ، بل كان له رجاء وغاية في الأكل منها ، وهي: أَنْ يبقى في جوار الله تعالى متقرباً إليه.

فكانت غايته من أكل الشجرة غايةً حسنة عالية ، ولم يكن ينوي الوقوع في المعصية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: لم نجد له عزماً على المخالفة وارتكاب النهي ، وإنما ذاكان له مِنْ وراء ذلك مقاصد حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ وهنا يَذكر الله تعالى تفصيل العهد مع آدم عليه السلام وما جرى له. وقد أخذ الله تعالى العهد على جميع الملائكة أَنْ يسجدوا لآدم عليه السلام، بعد خلقه ونفخ الروح فيه. أن يسجدوا له تعظيماً وتكريماً كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: كلهم دفعة واحدة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٢٩ ـ ٣١].

وهذا يدل على شرف آدم عليه السلام، وكرامته على الله تعالى دون غيره من سائر المخلوقات، وقد نال هذا الشرف والكرامة كل مَن كان في صلبه من ذريته، مُؤمناً مُوَحِّداً لله تعالى.

ومن تكريم الله تعالى لآدم عليه السلام، أَنْ خلقه وَسَوَّاه بيديه سبحانه، ولم يَذكر ذلك سبحانه عن تخليقه لأحد من المخلوقات: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ [ص: ٧٢].

ولما ذكر سبحانه باقي الحيوانات قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١] وهكذا.

ولا يحملنك معرفة قصة آدم عليه السلام إلى ازدرائه وانتقاص مكانته. واعلم أَنَّ ما وقع منه عليه السلام لم يكن ذنباً مطلقاً، وإنما هو ذنب باعتبار مقامه النبوي عليه السلام، في حين أنه ما فعل ذلك إلا ناسياً عهد الله له، طامعاً في أَنْ يبقى في جوار رب العالمين. وَلَو وقع ذلك من أحدٍ من بني آدم لَمَا كان ذنباً.

ومن تكريم الله تعالى لآدم عليه السلام أَنْ فضله بالعلم، وخصه بعلم أسماءٍ إلٓهية لا تعلمها الملائكة، وقد بَيَّنَ لهم ذلك

سبحانه لما استفسروا عن الحكمة في جعل آدم عليه السلام خليفة عنه سبحانه في الأرض ، وأمر آدم عليه السلام أن يُنبئهم بأسمائهم قال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ الآية [البقرة : ٣٣].

وقد جعل الله تعالى آدم خليفة عنه في الأرض ، أي : يتلقى الأوامر عن الله ويأمر بها ، وَيُنفذ أحكام الله تعالى التشريعية في الأرض ، كما أَنَّ جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم خلفاء الله تعالى في أرضه ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [ص : ٢٦] ، وقال لإبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾ [البقرة : ١٢٤].

أَمّا أعظم نَصٍّ في الاستخلاف عن الله تعالى ، في أنه خليفة الله تعالى ، فهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى في حقه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الفتح : ١٠] فهو صلى الله عليه وآله وسلم الخليفة الأعظم عن الله تعالى ، لأنه جاء بأعظم وأجمع هَدْيٍ من عند الله تعالى ، إلى جميع بني آدم إلى يوم الدين.

ولم يكن سجود الملائكة لآدم عليه السلام سجود عبادة ، بل هو سجود تكريم وتعظيم؛ لمخلوق فَضَّلَه الله عليهم.

وقد كان سجود التكريم والتعظيم مشروعاً في بعض الشرائع السابقة ، كما أخبر سبحانه عن سجود إخوة يوسف وأبويه له عليهم

السلام فقال: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والفرق بين سجود التكريم والتعظيم، وسجود العبادة الذي لا يكون إلا لله تعالى: أَنّ الساجد يُلاحظ في سجود العبادة أنه عبد يسجد لرب، خلقه وَصَوَّره، وهو يمده ويرزقه وهكذا. أما سجود التكريم فيلاحظ فيه الساجد أَنّه عبد وَيَسجد لعبد مثله، كرمه الله عليه وشرفه.

وقد حَرَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سجود التكريم والتعظيم للمخلوق، وقال لما استأذنه كثير من الصحابة أن يسجدوا له: «لو كنت آمراً أحداً أَنْ يَسْجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»(١) أي: لِمَا له عليها من الحقوق.

وهذا لأن الشريعة المحمدية شريعة باقية إلى يوم الدين، فجاءت بسد جميع ذرائع الفساد التي قد يَنْفذ منها المؤمن إلى المحرمات، ولم تَتْرك ثغرة قَد توصل إلى الحرام إلا وقد سدتها.

ومن ذلك مشروعية حجاب المرأة خشية الوقوع في الزنا وهكذا.

فشريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شريعة محكمة، مصونة الجوانب كلها، لأنها باقية إلى يوم القيامة، فلا يجوز في شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السجود، أو الركوع، أو الانحناء على سبيل التكريم والتعظيم لأحد غير الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة /١١٥٩/(٤/١٣٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ولقد كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام سجوداً حقيقياً على الجباه ، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] وليس سجودهم سجود انحناءٍ كما قال بعضهم.

أما معنى الخليفة[١] عن الله تعالى: فهو الرسول الذي يُبلغ عن الله تعالى وبأمر الله تعالى.

وإنّ في ذكر الله تعالى لقصة آدم عليه السلام ، وأمره للملائكة بالسجود؛ إنّ في ذلك بياناً لك عن شرافة أصلك وكرامة مقامك عند الله تعالى.

إذ نال هذا الشرف والمكانة ، كل من كان في صلب آدم عليه السلام من ذريته الذين هُم على عقيدته في الإيمان.

أما الكفار فقد انقطعت نسبتهم إلى آدم عليه السلام ، بسبب كفرهم ، وبقي نسبهم ولا شرافة ولا كرامة لهم.

ولما سجد الملائكة لآدم عليه السلام لم يشغلهم ذلك عن عبادة الله تعالى ، لأنهم في ذلك امتثلوا أمر الله تعالى.

فهم من ناحية سجدوا لآدم تكريماً وتعظيماً ، ومن ناحية أُخرى كان سجودهم عبادة لله تعالى ، لأنهم امتثلوا أمره سبحانه.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ [البقرة: ٣٤] إبليس أي: مُبلس. أي: يائس من رحمة الله تعالى. مِنْ أَبْلس.

---

(١) ولو أنك تدبرت قول الله تعالى للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة: ٣٠] وَأَنَّه أعلمهم بذلك قبل أن يخلق آدم عليه السلام ، وقبل أَنْ يُسكنه الجنة ، لَفَهِمت مدى الحكمة في أكل آدم عليه السلام من الشجرة ، ولفهمت معنى الذنب في حقه عليه الصلاة والسلام.

﴿أَبَىٰ﴾ أي: امتنع عن السجود لآدم عليه السلام، مستكبراً كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ومعترضاً على حكمة الله تعالى من أمره له بالسجود لآدم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال تعالى في آية أخرى مخبراً عنه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

وفي آية أخرى: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٣٣].

فلقد استكبر إبليس، واعترض على أمر الله له بالسجود لآدم عليه السلام، وانتقد حكمة الله تعالى في ذلك. ولم يكن امتناعه عن السجود بسبب التكاسل أو التهاون في تنفيذ أمر الله، بل إنَّ الذي منعه عن السجود اعتراضه وانتقاده على أمر الله وحكمته، والذي حمله على ذلك تكبره وعجبه بنفسه. فكان هذا سبباً لكفره وطرده عن رحمة الله تعالى.

وقد أجرى إبليس مقايسة في نفسه، بين خلق الله له وخلقه سبحانه لآدم عليه السلام، وَزَعم أنّ المادة التي خلقه الله منها وهي النار؛ أفضل من المادة التي خلق الله منها آدم وهي التراب. فَضَلَّ في القياس(١)، إذ كيف يصح له أن يعترض على الله تعالى، الذي خلقه وَصَوَّره، وهو سبحانه أعلم بتخليقه وتخليق آدم، وهو رَبّ العالمين الذي له العلم المطلق والحكمة البالغة.

---

(١) وقالوا: إن أول من قاس وأخطأ في القياس هو إبليس، ونسأل الله العافية.

وقد زعم إبليس على مقتضى هواه ، ونقصان عقله ، وعتوه وغروره بنفسه ، ورؤيته للظواهر؛ دون التحقق في البواطن؛ زعم أَنّ النار أفضل من التراب ، لأنها تعلو وتمتد ، وتنير ما حولها ، أما الطين فهو كثيف وسافل ولا نور له .

واعترض على أمر الله تعالى أَنه كيف يُخضع العالي للسافل؟! بل إنّ الأمر أعظم من ذلك ، فما دام أنه أفضل من آدم على زعمه وقياسه ، فيجب على آدم أن يَسجد له ، وقد أضمر ذلك ولم يصرح به ، لكن يُفهم هذا من سياق اعتراضه وقياسه وانتقاده .

وما درى هذا الأحمق[١] أَنّ المادة الآدمية أشرف وأفضل من المادة التي خُلِقَ منها إبليس ، ولو أنصف وتعقل لعلم أن التراب له صفة الثبات والهدوء ، بينما تتصف النار بالميلان والطيش والخفة ، ثم إنّ النار تُدمر وتتلف كل ما أتت عليه ، بينما يتصف التراب بالإنماء والإنبات ، والتراب مستقر ثابت ، بينما تحتاج النار إلى ما تستقر عليه أو تَستند إليه . وهكذا .

وكيف يصح لصاحب الحكمة الجزئية ـ إن كان لديه حكمة ـ أَنْ يعترض على الذي خلقه وأعطاه تلك الحكمة ، وله تعالى الحكمة الكلية المطلقة . أَيُّ عقل يَقْبل هذا؟! بل أَيّ عقل يقبل أَنْ يَعترض صاحب المعلومات البسيطة الجزئية على من أحاط بتلك العلوم؟!

ومثال إبليس في رؤيته لظواهر الأشياء دون النظر في حقائقها ،

---

(١) والحمق والسفاهة بمعنى واحد ، وهو: نقصان العقل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ الآية [النساء: ٥]. ويعتبر إبليس أول أحمق وسفيه ظهر في الكون.

كَوَلد صغير دون التمييز ، دخل مع والده مكاناً مهجوراً ، فرأى فيه شيئاً مُلتفاً على نفسه ، وألوانه جميلة مناسبة براقة ، فظنه الولد أنه قُرص أو طبق كبير ملقى على الأرض ، فراح ليلعب به . فنهاه والده وأمره بالابتعاد ، لأنَّ ذلك الطبق إنما هو حية كبيرة ، قد التَفَّتْ على نفسها ، بحيث يظنها الناظر إليها أول مرة أنها طبق كبير .

فرؤية الولد لظاهر الشيء قد توقعه في المهالك . في حين أن نظر الوالد وَتَعَقّله حمله على التراجع والابتعاد عن ذلك المكان .

فلقد اغترّ إبليس بمظهر النار ونورها ، وغاب عن حقيقتها المتلفة المدمرة الطائشة . وهذا نظر كل من يتبع هواه من بني آدم ، وَيُعرض عن أحكام الله وشرعه .

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾
أي : إن إبليس أعلن عداوته لآدم وذريته ، وقد حذر الله تعالى آدم عليه السلام من عداوة إبليس ، بأن لا يخرجه وزوجه من الجنة إلى الأرض .

قوله تعالى : ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أي : تتعب وَتُجهد نفسك في تحصيل أسباب المعيشة ، مِنْ حَرث الأرض وزراعتها وهكذا .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾
فكان آدم عليه السلام يتنعم في الجنة ، فيأكل لا عن جوع ، ويلبس لا عن عُري ، ويشرب لا عن ظمأ ، كل ذلك على سبيل التنعم والتلذذ ، ولا يوجد في الجنة حَرّ شمس ، بل هو في نعيم من جميع الجهات والاعتبارات .

ومن هنا يَفهم العاقل الفرق بين نعيم الدنيا الذي هو في حقيقته دفع آلام ، وبَيْن نعيم الجنة الحقيقي المطلق.

وقد قرن سبحانه الجوع بالعري في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ، وقرن بين الظمأ والحر في قوله جل وعلا: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ .

وذلك لأنَّ الجوع أَلم الباطن ، والعُرْي أَلَمُ الجسم الظاهر ، فليس في الجنة متاعب باطنية في الأحشاء ، ولا متاعب جسمانية ظاهرة ، بل إنّ المؤمن فيها في غاية النعيم الظاهر والباطن.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: فلا تجد فيها حرارة في الباطن ولا في الظاهر ، لأنّ الظمأ شدة حرارة الباطن ، وهكذا يأتي ذكر نعيم أهل الجنة الظاهر مقترناً مع النعيم الباطن.

واعلم أن نشأة أهل الجنة فيها دواعي الأكل والشرب لا عن جوع وظمأ ، بل للتنعم والتلذذ فحسب ، لأن نعيم الجنة نعيم حقيقي كليّ مطلق ، وإنَّ المؤمن يتذوق في الدنيا نماذج من النعيم الجزئي ، حتى يَبذل جهده ويسعى لنيل النعيم الحقيقي المطلق في الجنة ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

ولما أسكن الله تعالى آدم عليه السلام الجنة قال له: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] أي: عَقَد الله تعالى الزواج بين آدم وحواء عليهما السلام ، بدليل قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ فحواء زوجة آدم عليهما السلام ، والعاقد بينهما هو الله تعالى ، ومعنى ذلك أَنّ آدم عليه السلام كان يتمتع بزوجه في الجنة ، وإنما

نهاهما الله تعالى عن الأكل من شجرة عَيّنها لهما ، وهي شجرة أوجدها الله تعالى في الجنة ، وجعل فيها خصائص شجر الدنيا ، وَمَنْ أكل منها جَرت عليه أحكام أهل الدنيا ، مِنْ تحرك الغذاء في البطن لطرح الفضلات والتغوط والتبول وهكذا.

أما باقي أشجار الجنة وثمارها ومآكلها ، فإنها لا تُسبب فضلات في الجسم يحتاج إلى طرحها ، وإنما تَرشح أجسامهم كرشح المسك. كما دلت عليه الأحاديث.

وراح إبليس اللعين ينظر في طريقة يُخرج بها آدم وزوجه عليهما السلام من نعيم الجنة ، فَرأى أَنَّ آدم عليه السلام يطمع في الخلود في جوار رب العالمين ، مع أن عُمُره محدود[1] ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وزعم أَنّه إذا أكل من تلك الشجرة نال خلود الأبد ، وجوار رب العالمين. وهذه غاية آدم ومنيته عليه السلام ، وراح إبليس يكرر الحلف بالله له على ذلك: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[2] [الأعراف: ٢١].

وما كان آدم عليه السلام يَظُنّ أَنَّ أَحداً يحلف بالله كاذباً ، ويكرر الحلف مرات ومرات وهو كاذب ، فما كان منه إلا أن اغتر بكلامه ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢] وأكل مع زوجه من تلك الشجرة ، التي نهاهما الله تعالى عنها ، وقد أكلا معاً ، ولم تأكل

---

(١) وقد أطلع الله تعالى الملائكة على عمر آدم عليه السلام أنّه ألف سنة ، وذلك لَمّا أعلمهم أنه جاعل في الأرض خليفة ، وَعَلِم ذلك إبليس ، إذْ إنّه كان قد أُذِنَ له أن يعبد الله بين صفوف الملائكة في السماء الدنيا فقط.

(٢) قاسم على وزن فاعل ، إما للمشاركة ، أو للكثرة والمبالغة ، كما هي في الآية ، إذ إنّ آدم عليه السلام لم يشاركه القسم.

حواء قبله كما يزعم بعض الجهال في أنها زَيَّنَت له ذلك ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ [الأعراف : ٢١] ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا ﴾ [الأعراف : ٢٢] ﴿ فَأَكَلَا ﴾ [طه : ١٢١] أي : معاً .

وكان لباس كل واحد منهما لباساً نورانياً ، لا يرى أحدهما عورته؛ ولا عورة الآخر . ﴿ فَأَكَلَا[1] مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢١ ـ ١٢٢] .

فلما أكلا من تلك الشجرة ظهرت لهما عوراتهما التي كانت مستورة عنهما بحجاب نوراني ، فاستحيا آدم عليه السلام ، وزوجه كذلك ، وراح كل منهما يَسعى لستر عورته بأوراق الشجر الكبيرة من أشجار الجنة .

وناداه الله تعالى : أفراراً مني يا آدم؟ .

قال : لا يا رب ، ولكن استحييت .

وما كان من آدم عليه السلام إلا أن شعر بذنبه ، وراح يتوب إلى الله تعالى ويستغفره ، حتى نال مقاماً بعد توبته أعلى مما كان عليه ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢٢] .

وهذا قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] وهذه الكلمات تشمل تعليم الله له دعاءه في الاستغفار : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

---

(١) وهكذا أكل آدم عليه السلام من الشجرة . على نيته ، وهي البقاء في جوار رب العالمين ، عابداً متقرباً ، ونسي عهد الله تعالى ، وَصَدَّق إبليس في حلفه بالله له أنه يريد النصح له .

وكذلك عَلَّمَهُ سبحانه الوسيلة فقال: «يا رب أسألك بحق محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلا ما غفرت لي.

فقال الله تعالى: يا آدم وكيف عرفت محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولم أخلقه ـ أي: لم أخلق جسده ـ.

فقال: يا رب إنك لما خلقتني بيدك، ونفخت فِيَّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك.

فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأَحَبُّ الخلق إليّ، وإذا سألتني بحقه قد غفرت لك، ولولا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما خلقتك»(١).

ومما عَلَّمَهُ سبحانه: «سبحانك اللهم وبحمدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٢) وهكذا عَلّمه سبحانه ذلك لما طَلب منه آدم عليه السلام التوبة.

وإنّ في قصة آدم عليه السلام، وما جرى له، تعليماً لذريته أَنْ إذا وقع أحدهم في الذنب أَنْ يتوب ويرجع إلى الله تعالى، وأَنْ

---

(١) الحديث رواه الطبراني في (المعجم الصغير والأوسط) (مجمع الزوائد) (٨/ ٢٥٣) والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦١٥) والبيهقي في (الدلائل) (٥/ ٤٨٩) وعزاه في (الدر المنثور) إلى أبي نعيم وابن عساكر، عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن المنذر، عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديث طويل.

يحترز من شر إبليس ويستعيذ بالله منه. أعاذنا الله تعالى من شر إبليس ومن شر كل ذي شر.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

إنَّ للعلماء أقوالاً مختلفة في تحديد نوع الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه عليهما السلام ، فمنهم من قال : هي شجرة تفاح ، ومنهم من قال : عِنب ، ومنهم ومنهم .

لكنَّ الأمر الأهم في المسألة ، أن تلك الشجرة التي نهى الله تعالى آدم وزوجه عليهما السلام عن الأكل منها ، هي شجرة دنيوية ، أوجدها الله تعالى في الجنة مُؤقتاً ؛ لأمر يريده سبحانه ، ونهى سبحانه آدم وزوجه عليهما السلام عن الأكل منها ، لأنَّ مَنْ أكل منها تَجري عليه أحكام الدنيا ، من اضطراب وتَغَوُّط ونحوه .

ولذلك لمَّا أكلا منها ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] .

وليس وجود هذه الشجرة في الجنة وجوداً أبدياً ، بل هو مؤقت ، لحكمة أرادها الله تعالى ، وعندما يدخل أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ فلا وجود لتلك الشجرة.

وكما تَتَمثَّل أمور من عالم الدنيا وهو عالم التَّغيُّر والفناء ، تتمثَّل في الجنة لأمر يريده الله تعالى ، كذلك قد تتنزَّل وتتمثَّل أمور من عالم الجنة وهو عالم البقاء ، وتظهر في عالم الدنيا ، كما حصل ذلك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الصلاة ، إذ تمثَّلت له الجنة بأشجارها وثمارها ، فمدَّ يده ليأخذ عُنقوداً منها ، ولو كان قد أخذ شيئاً منها فإنه لا يفنى ، ويبقى ما شاء الله تعالى ، لأنه تجري عليه أحكام عالم الجنة الباقي. ولمَّا تمثَّلت له النار كَعكَع وتراجع صلى الله عليه وآله وسلم[(١)] . . . الحديث.

---

(١) روى البخاري في كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف جماعة /١٠٥٢/ (٢/ ٥٤٠) عنْ عَبدِ اللهِ بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: انخسفتِ الشمسُ على عهدِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلمَ ، فصلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلمَ ، فقامَ قياماً طويلاً نحواً منْ قراءةِ سورةِ البقرةِ ، ثمَّ ركعَ ركوعاً طويلاً ، ثمَّ رفعَ فقامَ قياماً طويلاً ، وهوَ دونَ القيامِ الأولِ ، ثمَّ ركعَ ركوعاً طويلاً؛ وهوَ دونَ الركوعِ الأول ، ثم سجد ، ثم قام قياماً طويلاً ، وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعاً طويلاً؛ وهو دون الركوع الأول ، ثم رفع فقام قياماً طويلاً ، وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعاً طويلاً؛ وهو دون الركوع الأول ، ثم سجد ، ثم انصرف وقد تجلَّت الشمس.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يُخسفانِ لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله».

قالوا يا رسول الله: رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ، ثم رأيناك كَعْكَعْت؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني رأيت الجنة فتناولت عنقوداً ، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، وأُريت النار فلم أرَ منظراً قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء».=

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ الأمر لآدم وزوجه عليهما السلام، ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ الخطاب لذرية آدم عليه السلام، وهم في صلبه، والمعنى: بعض ذريتكم لبعض عدو، وهذا يعني أنهم سيهبطون إلى الأرض، وينتشرون فيها، وتجري العداوة فيما بينهم مؤمنهم وكافرهم وهكذا...

أما إعلام الله تعالى آدم عليه السلام بعداوة إبليس له، فقد أعلَمَه الله تعالى بذلك قبل أن يُسكنه وزوجه الجنة، وذلك بعد أَنِ امتنع إبليس عن السجود لآدم، طرده الله من رحمته، ومن السماء الدنيا التي أَذِن له أن يسجد فيها أحياناً، وأعلم آدم عليه السلام بعداوة إبليس له ولذريته: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

وقد جاء الخطاب لذرية آدم عليه السلام وهم في صلبه بقوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ أي: بعضكم يا بني آدم لبعض عدو. وإنّ لِعالم الصلب أحكاماً واعتباراً، كما أنَّ عالم الأرحام له اعتباره.

ولمّا أخذ الله العهد على بني آدم عليه السلام، استخرج ذرية آدم كلها من صلبه، ففي الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وفي

= قالوا: بِمَ يا رسول الله؟.
قال: «بكفرهن».
قيل: يكفرن بالله؟
قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله؛ ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط».

الحديث: «لما خلق الله آدم مَسَحَ ظهره، فسقط من ظهره كل نَسَمة هو خالقها إلى يوم القيامة» الحديث(١).

وقد خاطب الله تعالى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وامتن عليها بأن حَمَلهم في السفينة مَعَ مَنْ نجا فيها من ذرية نوح المؤمنين: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: في أصلاب أولئك الذين كانوا في السفينة من ذرية نوح عليه السلام.

وجاء بيان ذلك في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] الأمر لآدم وحواء عليهما السلام، وَمَنْ في صلب آدم من ذريته.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ وأصلها في اللغة: فإن ما يأتينكم، إنْ شرطية، وما صلة للتوكيد وتقوية المعنى، والمعنى: فإنْ يأتينكم مني هدى. فلم يترك سبحانه عباده هَمَلاً بلا هَدْيٍ منه، فيه صلاح أمرهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة، بل تعهَّدهم بالهدي منذ أهبطهم إلى الأرض، وذلك بواسطة إرسال الرسل، وإنزال الكتب التي فيها الشرائع الإلَهية المناسبة والمصلحة لهم.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ فالشرائع الإلَهية فيها السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة، وأعظم الشرائع وأهداها وأسعدها للبشرية هي شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى عبد بن حميد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. هذا وللحديث روايات متعددة ذكر قسماً كبيراً منها السيوطي في كتابه القيّم (الدر المنثور).

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ هي للتعقيب. فلقد تعهدهم سبحانه بالهدي منذ أهبطهم إلى الأرض، ولم يتركهم فترة بلا هدي منه، ومن اتبع هدى الله فإنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

والضلال هو: التِّيه والحيرة. ومعنى: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ أي: عما فيه سعادته وصلاحه؛ إنْ هو تمسك بشرع الله تعالى، بل يهتدي في الدنيا ويصلح أمره، وينعم في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ والمراد بالذكر في قوله: ﴿ذِكْرِى﴾ أي: كتابي، الذي أنزلت فيه آياتي، دلَّ على ذلك الآية في سورة البقرة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾. فقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ تُقابَل بقوله: ﴿ذِكْرِى﴾ فافهم.

وكتاب الله تعالى لهذه الأمة هو القرآن الكريم، وقد وصفه الله تعالى بأنه ذِكر، لأنّ فيه الآيات التي تَذْكُر الله بوحدانيته وعظمته، وفيه الآيات التي تُذَكِّر العباد بالآخرة. وهكذا فالمعنى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: آياتي التي فيها تَذْكيري لعبادي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ والمراد هنا الكافر والفاسق المُصر على المعصية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ﴾ يقابله قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ فالمُعرض عن ذكر الله هو الذي ألقى القرآن وراء ظهره، كما أنَّ المُتبع هو الذي جعل القرآن أمامه واهتدى بنوره.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في معيشة ضيقة شديدة في الدنيا،

وفي عالم القبر ، أما يوم القيامة فقال سبحانه : ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ .

والضَّنْك في اللغة يعني : الضيق والشدة . فيُبتلى هذا المُعرض عن آيات الله ، يُبتلى في الدنيا بأن تُسدَّ في وجهه أبواب الحلال فيسلك طُرُق الحرام ، ويُجعل في قلبه الحرص على الدنيا ، والتَّكالب عليها ، فلا يَشبع من الدنيا ولو جمع من أموالها الكثير ، لأنّ نفسه ضعيفة كئيبة غير راضية ، حتى إذا اشتدَّ الأمر عليه شرب الخمر ليشعر ـ على زعمه ـ بالرَّاحة وأنَّى له ذلك؟! حتى إذا صار في القبر سُلِّط عليه العذاب ، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «أتدرون فيما أنزلت هذه الآية : ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾» ؟! .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : «عذاب الكافر في قبره ، والذي نفسي بيده؛ إنه ليُسلط عليه تِسعةٌ وتسعون تِنِّيْنَاً ، أتدرون ما التِّنِّين؟ تسعة وتسعون حَيَّة ، لكل حية سبعة رؤوس ، ينفخون في جسمه ، ويلسعونه ، ويخدِشونه إلى يوم يُبعثون»(١) .

حتى إذا جاء وقت الساعة ، وحُشر الناس للحساب ، حُشر هذا الكافر أعمى البصر ، لأنه تعامى في الدنيا عن آيات الله تعالى فأعمى الله بصره يوم القيامة ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ : ٢٦] .

وهذا كما قال سبحانه في وصف الكافرين : ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ [القمر : ٢] أي : يتعاموا عن رؤيتها وعن الإذعان للحق .

---

(١) رواه أبو يعلى (مجمع الزوائد) (٣/ ٥٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ﴾ [المائدة: ٧١].

فلمَّا تعامى الكافر عن رؤية الحق: أعمى الله قلبه في الدنيا، وبصره في الآخرة: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: هكذا ينبغي أن يكون الأمر ﴿ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ أي: تركتها ترك الأشياء المنسيَّة عندك ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أي: تُترك: في العذاب.

واعلم أن الكافر يُحشر إلى أرض المَحشر أعمى، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧] حتى إذا سيق إلى جهنم، ووقف على أبوابها، وفُتِّحَتْ له أبوابها؛ ردَّ الله عليه بصره وسمعه على وجه قوي، حتى يرى ويسمع العذاب الشديد. نسأل الله العافية. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾؟! أي: ما أشدَّ سمعهم وما أشدَّ بصرهم يوم يأتوننا، حتى يسمعوا ويعاينوا أهوال النار، وألوان العذاب في جهنم.

وَمَنْ دخل الإيمانُ قلبَه: حفظ الله قلبه من أن تأكله نار جهنم؛ لأنَّها نار ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ كما أخبر سبحانه، فهي تُحرق قلوب الكفار لأنه لا إيمان فيها.

وَمَن سجد لله مؤمناً: حفظ الله مواضع السجود من جسده أن تأكله النار. وهذا بالنسبة للمؤمن الذي مات على المعصية، ولم تنلْه المغفرة والشفاعة لكثرة فِسقه.

وفي الحديث: «ناركم هذه، ما يُوقد بنو آدم جُزءٌ واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم»[1] فيجب على المؤمن أن يخاف عذاب الله، ويتَّقي ذلك؛ بترك المعاصي وعمل الطاعات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مَنِ اتَّبع كتاب الله وعمِل به فلا يضِل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية.

وإنَّ اتِّباع كتاب الله تعالى يكون على حسب ما بيَّن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّه صاحب البيان عن القرآن صلى الله عليه وآله وسلم، فلا غِنى للمؤمن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعلى المؤمن أن يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَمامه لأنه إمامه صلى الله عليه وآله وسلم، ومن حقَّق هذا كان على هدى مِنَ الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة / ٣٢٦٥/(٦/ ٣٣٠) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في شدة حر نار جهنم... /٢٨٤٣/(٥/ ٢٧٠٨) وهو في (المسند) (٢/ ٣١٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ .

لقد ذكر سبحانه في هذه السورة قصة سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام مع فرعون ، وما جاء به موسىٰ عليه السلام من البينات القاطعة ، ثم ذكر سبحانه ما يتعلق بأمر الكفار ومصيرهم في الآخرة ، ثم ذكر على وجه الاستفهام الإنكاري الذي فيه الزَّجر والتَّعنيف للكافرين فقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: لكفار هذه الأمة ، الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فلقد أهلك الله تعالى الأمم الكافرة قبلهم بأنواع من العذاب ، أليس ذلك عِبرة لهم؟ وأليس في أخبار هذه الأمم التّي كانت قبلهم التي وصلت أخبارها إليهم؛ أليس فيها زاجِرٌ ورادعٌ لهم. فماذا ينتظرون؟!! .

أينتظرون أَنْ يحل بهـم عذاب الله كما نَـزَل على من كفر قبلهم؟!!.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يعني: أكفر هؤلاء المشركون بك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولَمْ يَهْدِهم وَيبَيِّن لهم[(١)] ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾؟[(٢)].

فلقد أهلكنا قبلهم قُروناً كثيرة بسبب كفرهم، وقد وصلت أخبارهم إليهم: في التَّواريخ، وفي أخبار الكتب السابقة، وفي القرآن أيضاً، وانتشر عِلم ذلك عند جميع البشر.

فقد أهلَك سبحانه قوم نوح بالطّوفان، وقوم عاد بالريح، وقوم ثمود بالصيحة والرَّجفة، وقوم لوط بالخَسف وإمطار الحجارة عليهم، كلٌّ هذا تواتر خبره إليهم.

أفليس فيه عبرة وموعظة لهؤلاء الذين كفروا بك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟ فهل ينتظرون نزول العذاب عليهم كما نزل على من قبلهم؟!!.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ولولا كلمة سبقت من الله برفع العذاب المُستأصِل لهم في الدنيا، تكرمة لك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولولا الأجل المُسمى الذي أجَّلَه الله لهم؛ وهو يوم القيامة لولا ذلك: لكان

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ تضمين لمعنى فعل آخر، وهو البيان والإيصال.

(٢) ويُراد من القَرن: الجيل المُقارن لبعضه، وهذا يختلف من أمة إلى أمة، فكان قوم نوح عليه السلام مثلاً يعيش أحدهم ثلاثة آلاف سنة، وهذه المُدَّة هي قَرنهم وهكذا. أمّا في زمننا فأطلقوا القَرْن على مائة سنة، لأنه قَلَّ من يجاوزها في عُمُره.

العذاب مُلازماً لهم ، كما لزِم مَن قبلهم[1] .

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أماناً لأمته لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] أي : عذاباً دنيوياً يستأصلهم كلهم ، ولكن قد يقع عليهم عذاب جزئي في بعض نواحي الأرض ، التي تسكنها الأمم الكافرة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٤] .

وقد أكرم الله تعالى هذه الأمة ؛ وأخّر عنها العذاب إلى أجل مسمى يوم القيامة ؛ إكراماً لرسولها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ أي : وما كان الله ليعذبهم عذاباً عاماً مستأصلاً لهم كما عَذَّبَ مَنْ قبلهم من كفار الأمم السابقة ، وذلك تكرمة لك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل يؤخر الله عذابهم إلى يوم القيامة .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : بأنَّ عذاب الاستئصال الدنيوي مرفوع عمّن كفر من أمتك يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لكان العذاب ملازماً لهم ، ومستأصلاً لهم ، كما لازم مَنْ قبلهم ولم يترك منهم أحداً .

---

(١) وقوله تعالى : ﴿ لِزَامًا ﴾ مصدر أريد منه اسم الفاعل ، ويفيد التأكيد ، كما تقول : فلان عدل . أي : لقوة عدالته صار كأنه هو العدل . وتقدير الكلام : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً . أي : لكان العذاب ملازماً لهم ، لا ينفك عنهم ، وهو عذاب الاستئصال الدنيوي .

لكن كلمة الله سبقت في كلامه القضائي الأزلي ، وفي كلامه القرآني الشرعي ، بأنْ لا يعذب الكفار من هذه الأمة عذاباً عاماً دنيوياً يستأصلهم ، تكرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل يؤخرهم إلى يوم القيامة.

فلقد أكرم الله تعالى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعل أمته المؤمنين به؛ جعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وأخر العذاب الدنيوي عمن كفر به من أمته ، كل هذا إكراماً وتفضلاً من الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ تنبيهاً للمؤمن أنْ يتجنب الجرائم التي ارتكبها هؤلاء الأمم الكافرة التي أهلكها الله تعالى.

وليحذر أفعال قوم لوط وسفالتهم فيما بينهم ، مِنْ فعل الفاحشة ، والسب والشتم ، والتضارط في مجالسهم لعدم حيائهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وكذلك الابتعاد والحذر من فعل قوم عاد ، من التكبر في الأرض بغير الحق : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥].

ولقد سلط الله عليهم من جنوده أمراً لطيفاً لا يُرى بالعيان ، ولا يُمسك باليد ، حتى صَرَعهم واستأصلهم ، وهي: الريح العاتية.

فلا تلبس أيها المؤمن لباس الأمم الكافرة ، وتتشبه بهم ، بل البس لباس الأمة المحمدية المتبعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واحذر وتجنب أفعالهم: كالغش ، والاحتيال ، والتلاعب الذي فعله قوم ثمود.

ولقد كانت تلك الأمم أُمماً طويلة الأعمار ، قوية الأجساد ، واسعة المساكن ، مكنهم الله تعالى في الأرض: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩] ومع ذلك دمرهم الله تعالى لما كفروا وأبادهم ، ولا يُعجزه شيء جل وعلا.

فليعتبر هؤلاء الكفرة من هذه الأمة ، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم ، فهو سبحانه يُمْهل ولا يُهْمل ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي: العقول ـ جمع نُهية ـ ويقال للعقل: نهية ، لأنَّه ينهى صاحبه عن الرذائل. وهذا شأن العقل الصحيح ، الذي سَلِمَ من اتباع الهوى ، وعمل بما شرع الله تعالى.

وإنّ العقل قد يَسلم وقد يَسقم ، فإنْ مال عن الهدى صار سقيماً ، وإنْ مال إلى شرع الله تعالى؛ وعَمِل به صار سليماً ، ينهى صاحبه عن القبائح والرذائل ، وصار صاحبه صاحب نُهية.

فمن كان ذا عقل سليم ، ونظر في عاقبة من كفر من الأمم السابقة لاعتبر ، ولنهاه عقله عن ارتكاب ما فعلوا ، وإلا فإنَّ عقله سقيم ، أسقمته الأهواء والشهوات النفسانية والبهيمية.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي: اصبر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قول المشركين وكفرهم ، فإنَّ الله تعالى قد أخر عنهم العذاب تكرمة لك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أنه سبحانه يُمْهل ويؤخر؛ ولكنه لا يُهمل ، ولا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وهذا لأنه سبحانه حليم على مَنْ كفر به أو عصاه ، صبور لا يُعَجِّل العذاب .

وإذا قرأت اسم الله تعالى الصبور؛ فلاحظ صبره سبحانه على عباده ، وأنه لا يُعَجل لهم العذاب ، ويؤخر عنهم العقوبات؛ لعلهم يرجعون إليه بالتوبة والإنابة .

ولا تسل أيها المؤمن ربك الصبر إلاّ إذا ابتليت ، فَسَلِ الله أن يَرزقك الصبر الجميل؛ لئلا تقع في الضجر ، ويؤدي بك الأمر إلى الكفر .

أما سؤالك الصبر دونما بلاء فيعني أَنك سألت الله البلاء ، وَأَنْ يُصبرك عليه .

وقد مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رجل يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة .

فقال له : «أيُّ شيءٍ تمام النعمة»؟

قال : دعوة دعوت بها أرجو بها الخير .

قال : «فإن من تمام النعمة : دخول الجنة والفوز من النار» .

ومر على رجل يقول : اللهم إني أسألك الصبر .

فقال له : «سألت الله البلاء ، فسله العافية» .

ومر على رجل يدعو ويقول : يا ذا الجلال والإكرام . ويكرره .

فقال له : «قد استجيب لك فسل»[1] .

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب (٩٩) حديث رقم / ٣٥٢٤/ (٩/١٨٦) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ المراد منه الصلاة المكتوبة ، لأنّ مِنْ جملة ما فيها تسبيحاً وتحميداً لله تعالى .

والمعنى: وسبح متلبساً بحمدك لله ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ﴾ يعني: صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني: صلاة الظهر. وذلك لأن وقت صلاة الظهر يبدأ بعد نصف النهار. أي: بعد زوال الشمس عن كَبِدِ السماء ولو بلحظة.

ولما كان الزوال هو منتصف النهار ، فلما انتهى طرف النصف الأول ودخل طرف النصف الثاني دخل وقت الظهر ، ولذلك أراد من قوله سبحانه: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ وقت صلاة الظهر(١) .

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي: حتى ترضى ، وهذا يعني أن الله تعالى سيعطي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عطاءً كثيراً ، حتى يرضى صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ .

ومن جملة هذا العطاء الإلٓهي لرسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) واعلم أنّ النهار الشرعي يبدأ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. أما النهار العرفي فيبدأ من طلوع الشمس إلى غروبها. ونصف النهار الشرعي هو وقت الزوال.
ويدخل وقت صلاة الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثله؛ فيدخل وقت العصر كما هو مذهب الأئمة والصاحبين ـ أي: الإمام محمد وأبي يوسف ـ أما عند الإمام ـ أي: الإمام أبي حنيفة ـ فيستمر وقت الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه؛ حينها يدخل وقت العصر.

وسلم الشفاعة على اختلاف مراتبها.

وقرأ بعض القراء السبعة ﴿لعلك تُرضى﴾ بضم التاء، وهذا من أرضىٰ يُرضي، تَرضى يَرضى، أي: لعل الله يُرضيك بأن يعطيك عطاء حتى تقول له: رضيت يا رب.

واعلم أن رضا كل إنسان على حسب همته وعلمه واستعداده، ولا أعظم من علم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهمته واستعداده، ولذلك لا يكون رضاه إلا بالعطاء الإلٓهي الكبير له صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أن كل أهل الجنة يُعطون حتى يَرضون، كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة.

فيقولون: لبيك ربنا وسعديك.

فيقول: هل رضيتم؟.

فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ـ أي: أعطيت كل واحد منا حتى أرضيته ـ.

فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك.

قالوا: يا رب وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[1].

فنال أهل الجنة رضوان الله تعالى على وجه ثابت أبدي.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار /٦٥٤٩/ (١١/٤١٥) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٩) (٥/٢٧٠١).

كما يشمل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ يَشمل أتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذين ٱقتفوا أثره صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن الله تعالى يعطيهم حتى يرضيهم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي: في الآخرة بالعطاء الكثير ، وفي الدنيا أيضاً ، إذ إنّ المؤمن إذا وقع في معصية أصابه الكرب والحزن ، ولا يرضى ويطمئن إلا إذا رأىٰ نفسه في طاعة الله تعالى.

واعلم أن الخطابات في القرآن الكريم قد تكون موجهة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لكن المراد منها أمته ، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم رأس النوع الإنساني ، وسيد العالمين ، وموضع الخطابات الإلٰهية.

كما أَنّ رأس النوع الإنساني هو موضع توجه الخطابات وموضع النظر ، وإن كان موضوع الكلام والخطاب لا يتعلق بالرأس. فافهم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

فقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ هذه القَبْلية تشمل وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وتبدأ القبلية حينما يصير ظل كل شيء مثله. على مذهب الأئمة والصاحبين ، أو مثليه على قول الإمام إلى غروب الشمس.

وقد جاء التأكيد على المحافظة على هاتين الصلاتين لأنهما عُرضة للضياع ، فقد يُضَيّع الإنسان صلاة الفجر بسبب نومه ، وقد يضيع صلاة العصر بسبب انشغاله في الدنيا. فليحذر ذلك.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه نظر يوماً إلى القمر ليلة البدر ـ وإنَّ بدر البدور ، الذي عن بَدْره بَدَرَت البدور ،

هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة عياناً، كما ترون هذا القمر الطالع في الأفق. هل تُضَامُون في رؤيته؟» ـ أي: هل يصيب الضيم أحداً منكم في رؤية القمر، أم كلكم ترونه؟ أي: فلا يُحرم أحد من رؤية القمر إنْ هو تطلع إليه.

وفي رواية: «هل تَضَامُّون» ـ بشد الميم، والمعنى: هل تَـتَزاحمون؟

فلا مَضامَّةَ ولا ضيم: أي: لا تزاحم ولا حرمان في رؤية القمر ليلة البدر.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»(١) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الآية(٢).

وينبغي على المؤمن أن لا يُؤخر صلاة العصر إلى اصفرار الشمس، حتى لا يقع في الكراهة التحريمية.

وإنْ حصل وأخرها فليصلها، ولا يؤخرها إلى ما بعد غروب الشمس لئلا يَقع في المعصية الكبيرة.

وقد بَيّن صلى الله عليه وآله وسلم، أَنَّ من حافظ على الصلاة في وقتها فقد هيأ نفسه وأعدها لرؤية رب العالمين يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المواقيت، باب فضل صلاة العصر /٥٥٤/ (٢/٣٣) وتنظر أطرافه، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما /٦٣٣/ (٢/٧٥٠) عن سيدنا جرير رضي الله عنه.

(٢) أي: أوصاهم صلى الله عليه وآله وسلم بما أوصى الله به عباده.

ولا يغلبنكم النوم أو عمل الدنيا على إضاعة صلاة من الصلوات عن وقتها ، بل كونوا أنتم الغالبين لا المغلوبين.

واعلم أن التكليف الشرعي هو في الحقيقة تكييف للنفس، وتهيئة لها لأَن تحل: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥].

وإنّ حضرة المَلِكِ القدوس لا يدخلها إلا أهل القداسة والطهارة ، وهذا هو معنى التزكية التي مِنْ أهمها الصلاة لله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير الآيات من سورة طه

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

يُخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية عن حال الكفار إنْ هو أخذهم بعذاب استئصال عام: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي: من قبل أن يُبعث سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ اتِّباعاً إيمانياً وعملياً وقولياً ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ أي: بالعذاب.

وقد أقام سبحانه الحُجة على العباد، وأزال عنهم العُذر؛ بأن أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وجاؤوا بالبينات العقلية والكَونيَّة، الدالة على صدقهم وحقيَّة ما جاؤوا به. قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً يُبلغنا آياتك، فإنا لا ندري ولا نعلم، ولو أرسلت إلينا رسولاً لاتبعناه، ولَما ضللنا وكفرنا.

لكنه سبحانه أقام الحجة عليهم ، ولم يترك لهم مجالاً للأعذار بأن أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأيده بالبينات والبراهين ، لكنهم لم يؤمنوا ، ولم يذعنوا للحق؛ مع أن الحق قد بان لهم ، وما ذلك إلا إعراضاً وكبراً وجحوداً كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] أي: وما كنا معذبين عذاب استئصال عام في الدنيا ، وعذاباً أبدياً في الآخرة: حتى نبعث الرسل ، ويقيموا الحجة والبرهان ، وأمَّا الذين لم تَبلغهم رسالات الرسل ، كالذين هم في نواحي الأرض المنقطعة ، أو أهل الفترة ، فهؤلاء يَتوقف أمرهم على الآخرة ، بأن يَحشرهم سبحانه في برزخ من برازخ الآخرة ، ويُرسل إليهم رسولاً ، ويقيم عليهم الحجة ، فمن آمن فقد نجا وفاز ، ومن كفر فقد خاب وخسر ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلمَّا لم يُدرِك هؤلاء دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، لا بد أَنْ يبعث الله فيهم رسولاً ولو في الآخرة حتى تُقام الحجة عليهم.

ولهذا أخبر سبحانه في القرآن الكريم أنَّه أمر خَزَنة النار ـ وهم الملائكة الموكلون بتعذيب الكفار ـ أمرهم أن يسألوا الكفار: ألم يأتكم نذير؟ فقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي: دعوة الرسل ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي: هذا ما قلناه للرسل في الدنيا[1].

---

(١) وهناك من قال: إن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هو كلام الله تعالى ، رداً على الكفار لما قالوا لرسلهم: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ٨ ـ ١١].

ومن عجائب قدرة الله تعالى وأسراره ، أَنَّ هؤلاء الخزنة الذين يقومون بتعذيب الكفار في جهنم هم في نعيم مع الله تعالى ، لأنهم يقومون بتنفيذ أمره سبحانه وتعالى ، أما الكفار فهم في جحيم وعذاب أليم .

﴿وَقَالُواْ﴾ أي : الكفار وهم في جهنم ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي : لكلام الرسل فيما قرؤوا علينا وبينوا لنا ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي : نتعقل ونتفكر ونتدبر ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي هذا اعتراف من الكفار على أَنَّ ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام أمر مقبول ومعقول ، إذ لو أنهم سمعوا وأنصفوا وتفكروا فيما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام لأذعنوا لهم ، ولآمنوا بهم.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي : سمع طاعة وقبول ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي : نتعقَّل ونبحث فيما جاءت به الرسل ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ .

وإِنَّ الله تعالى قد عذَّبهم بحق ، لأنهم مُذنبون باعترافهم .

وقد يُقال : إنّ الرسالات السابقة كانت متوالية متواصلة ، بحيث لم تمضِ مدة إلا ويرسل الله رسولاً ، إلى أَن بَعث الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وخُتمت به النبوات والرسالات ، ألا يغني ذلك أنَّ النَّاس اليوم في عُذر؟ .

فيقال في الجواب : إنَّ رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عامةٌ لجميع بني عصره ؛ ومن بعدهم إلى يوم الدين كما قال

سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وفي الحديث: «وكان كلُّ رسول يُبعث إلى قومه خاصة؛ وبُعثت إلى كل أحمر وأسود»(١).

ومن أجل هذا تكفَّل الله تعالى أن يحفظ رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين، وذلك بحفظ القرآن الكريم عن التغيير والتبديل والتحريف، وبحفظ بيان القرآن وهي السنة المُطهرة، بما تشمله من أفعاله وأقواله وتقريراته صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وإنَّ حفظ القرآن يقتضي حفظ بياناته، وهي أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وطالما أنَّ القرآن يحتاج إلى بيان فقد تكفَّل سبحانه بحفظ القرآن وبيانه. أي: تكفَّل بحفظ رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين.

ولا يحتاج الأمر إلى بِعثة نبي أو رسول آخر، ليُبين ما خَفي أو غَمُض عن الناس من أحكام الشَّريعة، بل هي باقية واضحة، لا لَبْس ولا غموض فيها، وكلُّ مَن بلغته فقد قامت عليه الحجة، ولا عذر له عند الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ

(١) طرف من حديث رواه البخاري في أول كتاب التيمم / ٣٣٥/ (١/ ٤٣٥) ومسلم ـ واللفظ له ـ في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (٢/ ٦٦٠) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

﴿شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: وقل لهم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ يا أهل زمني ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: ومن بلغه هذا القرآن على مرِّ الزمان إلى يوم الدين. ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ بلغه القرآن فكأنَّما شافهتُه به»[١] أي: كأنَّما اجتمع بي، وبلَّغتُه الدعوة، وأقمتُ عليه الحجة.

ولذلك تجد أن هذا القرآن يُشاع ويذاع في نواحي الأرض كلها، حتى في بلاد الكفرة. وهذا من حكمة الله تعالى، حتى تُقام الحجة على كلٍّ من بَلَغَه هذا القرآن.

وممَّا تقدَّم تعلم أيُّها المؤمن أنه لا فترة. أي: لا انقطاع في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما حصل في رسالة سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل وغيرهم، لأنَّ رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم باقية محفوظة، كما كانت في حال وجوده في الدُّنيا صلى الله عليه وآله وسلم، وستبقى محفوظة بحفظ الله لها إلى يوم الدين.

أمَّا فترة أهل الكتاب فهي مِنْ بَعد رَفْع عيسى عليه السلام إلى السماء، بما يقارب ثلاثمائة سنة، إذ اجتمع أحبارهم ورُهبانهم وراحوا يُبَدلون ويحرِّفون التوراة والإنجيل على حسب أهوائهم وآرائهم، فوقع أهل الكتاب في ضلالة وجهل في دينهم، ولذلك سُموا أهل فترة، إلى أن بُعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأزال الظلم ونشر النور في العالم.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن مردويه، وأبي نعيم والخطيب، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أما فترة مُشركي العرب فكانت مِنْ بعد أَنْ مضى على شريعة سيدنا إسماعيل عليه السلام مدة طويلة. وضاع كثير من أحكام شريعته، وَتَقادم عليها الزمن، ووقع الناس في الضلال المُبين من عبادة الأصنام وارتكاب المحرمات؛ إلا قليلاً منهم مِمّن بقي على التوحيد، والحفاظ على بَقِيَّةٍ من شريعة سيدنا إسماعيل عليه السلام.

وإنَّ كلَّ من بَلَغَه القرآن وجب عليه أن يتعقَّلَهُ ويتدبَّر فيه، لأنَّه كلام رب العالمين، خاطب أصحاب العقول وأُولي الألباب أن يتفهموه ويتدبروه، لأنَّ علومه لا تنتهي، وعجائبه لا تنقضي، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تشبَع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الرَّد، ولا تنقضي عجائبُه»[1] الحديث.

لكنَّ الإنسان بمُقتضى نفسانيته الضعيفة، اعتاد أن يألَف الشيء إذا توارد عليه بكثرة واستمرار، فتراه مثلاً لا يتفكر في معاني وأسرار سورة الفاتحة، لأنه يسمعها كثيراً ويقرؤها كثيراً، ولو أنَّه اعتبر نفسه لمَّا يسمعها كلَّ مرة أنه يسمعها لأول مرة، لفَهِم من معانيها، ولسَرَت روحها في قلبه، ولترقَّى في الدَّرجات، وهكذا سائر كلام الله تعالى من القرآن الكريم، إذ إنَّ أثره وفاعليته في القلب والروح لا بمجرد السماع الأذني، ولو كان كذلك فإنَّ الكفار قد سمعوا القرآن بآذانهم، فيحتاج الأمر إلى إصغاء بالأُذن وحضور بالقلب مع التفكر والتدبر.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن الكريم، باب ما جاء في فضل القرآن /٢٩٠٨/ (٨/١١٢) عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه وعنا به.

واعلم أنَّ من ترك العمل الصالح ، وادَّعى عِمارة قلبه بالإيمان فهو مغرور بنفسه ، لأنَّ مَنْ سيطر على قلبه حُبّ شيء ظهر على جوارحه وأقواله وأعماله ، والإيمان ما وَقَر في القلب ، وصدَّقه العمل ، ولذلك نجد أن الله تعالى قَرَن في كثير من الآيات القرآنية قرن الإيمان بالعمل الصالح : ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة : ٢٥] لأنَّهما مُتلازمان .

ومن ادَّعى محبتك ولا شيء عنده من أقواله وأعماله تشهد على ذلك فهو كاذب في دعواه ، ولو أنَّك صدَّقته لكُنت مغروراً بنفسك أشد منه ، وفاقداً لعقلك ، بل عليك أن تقول له أولاً : حسِّن معاملتك معي إذا كنت تحبني ، وأجْرِ على لسانك شيئاً من طيب الكلام معي ، وإلا فما هو شاهد محبتك لي؟! .

فلا بد إذاً مما وقر في القلب أن يظهر على اللسان والجوارح ، فمن أحب أباه برَّه ، ومن أحب زوجته أكرمها ، ومن أحب صديقه صدق في معاملته له وهكذا . . . فمن أحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم سعى في طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولو كانت القضية الإيمانية تقتصر على القلوب لما أجهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه بالعمل ، والقيام والصلاة ، فقد قام صلى الله عليه وآله وسلم حتى تورمت وتفطرت قدماه الشريفتان صلى الله عليه وآله وسلم ، كل ذلك دليل على امتلاء ذراته صلى الله عليه وآله وسلم بمحبة الله تعالى ، وعلى وجه خاص به صلى الله عليه وآله وسلم دون العالمين .

وقد تكفل الله سبحانه بنفسه أن يَحفظ رسالة سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم، وَمَكَّن أمته أن يحفظوا هذا القرآن نصاً في صدورهم: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٩]. وورد في الحديث القدسي: «وجعلت صدور أمتك أناجيل ـ مصاحف واسعة ـ يقرؤون القرآن ظاهراً»(١).

بينما لم يتكفل سبحانه بحفظ الكتب السابقة، بل وَكَلَ حِفْظها إلى أحبارهم فما استطاعوا ذلك. قال الله تعالى: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]. ولم يكن أولئك يستطيعون حفظ كتابهم ظاهراً إلا أجزاء منه، بل كان أنبياؤهم يحفظونها.

وفي الحديث: «وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان»(٢). فإنْ هُوَ مُحِيَ من السطور فهو محفوظ في الصدور.

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ يعني: إن الله تعالى أقام الحجة، وأزال العذر، وأرسل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أنهم أعرضوا واستكبروا، فقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ قُلْ ﴾ أي: قل لهم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر عاقبة الآخر ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ فانتظروا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي: سيأتي يوم القيامة الذي تظهر فيه النتائج، وتُبَان

---

(١) كما في (دلائل النبوة) لأبي نعيم.

(٢) طرف من حديث طويل رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار / ٢٨٦٥/ (٥/ ٢٧٢٠) عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه.

العواقب ، ويُعرف مَنْ هو على الصراط السويّ ، وعلى الهدى المستقيم المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن كان في دنياه مِعوَجّاً ضالاً .

وإنْ قيل: متى يكون هذا؟

يُقال: يُعرف هذا يوم القيامة .

وإن قيل: أين نحن من يوم القيامة؟

قال الله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ١] أي : فلا يظنوا أنّ الأمر بعيد ، بل هو قريب ، وكل آتٍ قريب ، وليس بين المرء وبين دخول الآخرة إلا الموت ، وما أقربه من الإنسان!!

وإن الآية الكريمة : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ تدل على اقتراب يوم القيامة بالنسبة لِمَا مضى من زمن على الدنيا ، وتدل على دُنو الموت من الإنسان ، إذ إنه يجهل وقت موته مع قربه منه ، وهو في غفلاته غير مكترث بما هنالك. الناس في غفلاتهم ورحى الموت تطحن.

ولمَّا خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصحابة إلى آخر النهار ، قال في آخر خطبته صلى الله عليه وآله وسلم : «أَلا إنَّه لم يبق من الدنيا في ما مضى منها؛ إلا كما بقي من يومكم هذا في ما مضى منه»(١) فنظر الصحابة إلى الشمس فرأوها على رؤوس

(١) طرف من حديث طويل رواه الترمذي في كتاب الفتن ، باب ما جاء ما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة / ٢١٩٢/ (٦/ ٣٥١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وينظر (المسند) (٣/ ٦١).

الجبال. أي: لم يبق لغروبها إلا القليل.

فقد مضى على الدنيا أزمان طويلة، لا على الإنسانِ، إذ إنّ آدم هو آخر المخلوقات على وجه الأرض. فافهم.

وإنّ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ تنبيهاً لكل إنسان أن لا يغتر بشبابه، أو قوته، أو ماله، أو جاهه، لأنّ الموت قريب منه، وهو أول باب يدخلون منه إلى برازخ الآخرة.

وليعتبر كل إنسان ولينظر في الناس، أليس غالب الناس من الشباب والرجال، والقليل منهم كبار السن والكهول؟! ألَا يدل ذلك على أن معظم الذين يموتون هم في سن الشباب، ولو كان الأمر خلاف ذلك لرأيت الكهول أكثر من الشباب، وليس الأمر كذلك. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢﴾.

لقد أخبر سبحانه في عِدَّة آيات من القرآن الكريم عن اقتراب السَّاعة، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١] وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وهذا الاقتراب هو بالنِّسبة لِمَا مضى على الدُّنيا من عُمُرها، وليس من بَدء خَلْق آدم عليه السلام، فقد خَلَق الله تعالى عالم الدُّنيا وما فيها قبل أن يخلق آدم عليه السلام على ظَهرها بأزمنة طويلة، لا يعلم عددها إلا الله الذي خلقها، أمَّا خَلْق آدم عليه السلام وبَدء الخَليقة الإنسانية على وجه الأرض، فقد كان ذلك آخر المخلوقات على وجه الأرض، كما دلَّت على ذلك الأحاديث النَّبويَّة.

وقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اقترابَ الساعة، ودُنوَّ وقتها بالنسبة لِما مضى على عالَم الدُّنيا، فقال يوماً بعد أن خَطَب الصحابة رضي الله عنهم إلى قُبيل الغُروب: «ألا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَىٰ مِنْهَا إِلا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَىٰ

مِنْهُ»(١) ونظر الصحابة رضي الله عنهم إلى الشمس وقد أوشكت على الغروب ، ولم يَبْق إلا أشعتها على رؤوس الجبال .

وقد قَرَن سبحانه قُرب الساعة بانشقاق القمر ، لأنَّ انشاق القَمَر على عَهْد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ مُعجزة مؤيِّدة له صلى الله عليه وآله وسلم ـ هو من أشراط السَّاعة الصُّغرى ، كما أنَّ بِعثته صلى الله عليه وآله وسلم هي من أشراط السَّاعة الصُّغرى ، روى الترمذي(٢) عَنْ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّاد الْفِهْرِيِّ رضي الله عنه ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه وَسَلَّمَ قَالَ: «بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ ، فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقَتْ هَذِهِ هَذِهِ» لأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى .

وفي رواية لمسلم وغيره(٣) ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ ، وعَلاَ صَوْتُهُ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ» وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى . أي: يشير صلى الله عليه وآله وسلم إلى الوسطى والسبابة من أصابع يده الشريفة المباركة صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٣] أي: فيما يسألونك ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: إن

---

(١) تقدم تخريجه ص / ٣٨٢/ .

(٢) في كتاب الفتن ، باب ما جاء في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» / ٢٢١٤/ (٦/ ٣٦٥).

(٣) (صحيح) مسلم كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة / ٨٦٧/ (٢/ ٩٢٣) وانظر (فتح الباري) (١١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨).

بعثتك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي من أشراط الساعة التي تُذَكِّرُ بها .

واعلم أنَّ للساعة أشراطاً صغرى ووسطى وكبرى ، وقد ظهرت أشراطها الصغرى أولاً بِبعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد كان ذلك مَكتوباً في الكُتب السَّماوية السابقة على أن الساعة ستقوم بعد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، آخر عهد أمته صلى الله عليه وآله وسلم .

وتبدأ الأشراط الكُبرى للسَّاعة بظهور المَهْدي عليه السلام ، ثُم تَتوالى بظهور الدَّجَّال ، ونزول عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهكذا إلى أن تطلُع الشمس من مَغْرِبها .

وإنَّ انشقاق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية دالَّة على صِدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصِدْق نبوَّته وما جاء به ، وتدل أيضاً على قدرة الله تعالى على تخريب هذا العالَم الدنيوي ، وأنَّ هذا العالم بما فيه من كواكب ونجوم وأجَرام ليس قديماً ، بل إنَّ القديم الذي لا أوَّل له ، والآخر الذي لا نهاية له : هو الله تعالى وحده .

وإنَّ الذي قَبِل الانشقاقَ يَقبل الهَدم والخَرَاب ، وهذا دليل على أنَّه سيأتي يوم ـ وهو يوم القيامة ـ يُخرب الله تعالى فيه هذا العالم ، كما أخبر سبحانه : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ .

وإنَّ جميع الكواكب والنُّجوم مآلها إلى الخَرَاب والدَّمار ، لأنَّ ما جرى على القمر من انشقاق قابل أن يجري عليها؛ لأنَّها من جِنسه ، ولكنَّ الله تعالى أجرى الانشقاق على القمر لأنَّه أقربُ

الكواكب السَّماوية إلى الأرض ، وأشدُّها ظهوراً في نوره وجرمه .

ولو شقَّ لهم زُحَل أو الزُّهرة مثلاً لَمَا كان ذلك واضِحاً في أعين الكفار ، لكنَّ انشقاق القمر نِصفين مُتباعدين أمر لم يستطيعوا إنكاره بأبصارهم ، فَمَا كان منهم إلا العِناد والإعراض ودعوى السِّحر ، كما أخبر عنهم سبحانه : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر : ٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ وهي بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وانشقاق القمر على عهده صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [القتال : ١٨] أي : فماذا تنفعهم الذِّكرى إذا وقعت السَّاعة؟ .

بل عليهم أن يعتبِروا ويتذكَّروا بوقوع أشراطها ، وهذا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات : ٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ؟ [الفجر : ٢٣] .

وذلك لأنَّ الإنسان يوم القيامة يتذكَّر جميع ما مرَّ عليه في عالم الدنيا لمَّا كان فيها ، فيتذكَّر جميع أقواله وأعماله وأحواله ، حتى إنَّه يتمنَّى لو أنه ينسى بعضها ، لكنَّ هذه الذِّكرى لا تنفع الإنسان وقتئذٍ ، بل عليه أنَّ يتذكَّر وهو في الدُّنيا بما ذكَّره به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن وأحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن جُملة أشراط السَّاعة الصُّغرى ما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره[(١)] ،

---

(١) (سنن) الترمذي ، كتاب تفسير القرآن الكريم ، ومن سورة الزمر /٣٢٣٨/ (٨/ ٣٦٩) ، (مسند) الإمام أحمد (٣/ ٧) .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ»؟.

قَالَ الْمُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم؟.

قَالَ: قُولُوا: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، تَوَكَّلْنَا عَلَى اللهِ».

والقَرْن هو الصُّور، وصاحِب القَرن هو إسرافِيل عليه السلام، فقد وضع فمَ الصُّور على فمه، ينتظر أمر الله تعالى بالنَّفخ فيه، وهناك نفخة إماتة، ويليها نفخة إحياء.

وعالم الصُّور قَرني الشَّكل، بمعنى أنَّ أسفله واسِع وأعلاه ضيِّق.

وقد يتساءل الإنسان: كيف التَقَم إسرافيل عليه السلام القَرن يُصغي إلى أمر الله تعالى للنَّفخ فيه، وقد حصل ذلك في عصر نبوَّته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم، وقد مرَّت تلك السِّنُون ولم تقمِ الساعة بعد؟!.

فيقال: إنَّ أمر الزَّمن أمر نِسبي، يختلف من عالَم إلى عالَم، فأنت ترى هذه المدَّة طويلة بالنِّسبة لعالَم الدُّنيا، أمَّا بالنِّسبة للعالم العُلوي فليست كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٧].

وإذا كان اليوم في عالم الأرض ينشأ من تعاقُب اللَّيل والنَّهار، فإن اليوم في بقيَّة الكواكب تختلف مدَّته عن مُدة اليوم في عالم الأرض، وفي بعض الكواكب لا تطلُع الشمس عليها إلا كلَّ سنة ستة أشهر، ومنها أكثر من ذلك ومنها أقل.

ولك في عالَم المَنَام عِبرة لفَهم ذلك: فقد تنام فترة نسبية وتجد نفسك أنَّك سافرتَ وعمِلتَ وغَدَوْت ورُحت، مع أنَّك ما استغرقتْ مُدَّة نومك إلا دقائق، فاعبُرْ من ذلك لفهم أمر الزمن في العوالم البَرزخِيَّة، والأخروية، والعوالم الغَيبيَّة.

قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٍ مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: اقتربت السَّاعة بالنِّسبة لِمَا مضى على عالم الدنيا، واقترب بقُرب الساعة حساب الناس وجزاؤهم، فمالهم لا يَستَعِدُّون، وَمِنْ غَفلتهم لا يَنْتَبِهُون؟!.

وكيف يَستبعدون وُقوع السَّاعة وقيام القِيامة مع أنَّ باب الدُّخول إلى عوالم الآخرة هو الموت؛ وهو قريب من كلِّ أحد، ولا أحد يعرف وقت انتهاء أجلِه؟!.

ويُسمَّى موت الإنسان بالسَّاعة الصغرى، أمَّا الساعة الكبرى فهي يوم يقوم الناس فيها لربِّ العالمين.

أمَّا قِيامة كلِّ إنسان فهي بموته، ومن السَّاعة الصُّغرى يَعْبُرُ إلى الساعة الكبرى.

وما دام أَجَلُ الإنسان محتومٌ، ويجهل مدَّة انتهائه، فما باله يطمئنُّ إلى الدُّنيا، ويعمل فيها كأنَّه خالِدٌ لا موت سيأتي عليه؟!.

وأمَّا المؤمن العاقل فهو من انتبَه من غَفْلته، وتفكَّر وتدبَّر، وحاسَب نفسَه قبل أن يُحاسب، وتزوَّد وأعدَّ عُدَّته لبَرازِخ الآخرة، روى الترمذي، عن شَدَّادِ بْن أَوْسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَىٰ اللهِ».

قَالَ ـ أي: الترمذي ـ: وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» يَقُولُ: حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَيُرْوَىٰ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا. اهـ (سنن الترمذي)[١].

وليعلَم الإنسان أنَّ الحِساب والسُّؤال سيجري عليه من عالَم القبر، فيُسأل عن الإيمان بالله تعالى، والإيمانِ بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبقيَّة أركان الإيمان والإسلام، وإن كان هذا السُّؤال إجماليّاً؛ إلا أنَّه يترتَّب عليه نَعِيم القبر أو عذاب القبر.

وأمَّا السُّؤال التَّفصيلي فسيكون بعد قِيَام السَّاعة في عالم الحِساب.

واعلم أنَّ المُحاسِب في الآخرة هو الله تعالى، الذي لا تَخْفى عليه خافِيَة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد أمر سبحانه عباده أن يعتبِروا ويتذكَّروا بمَواعِظ القُرآن وتَذكِيره، ولا يكونوا ممَّن قال فيهم سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ

---

(١) كتاب صفة القيامة/ ٢٤٦١/ (٧/ ١٦٥).

مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ أي: نزوله ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾ الآية.

وقوله سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ وهذه الآيات نَزَلت في ذمِّ الكافرين الذين هم في غَفلة الدُّنيا يعمَهُون، وعن الآخرة مُعرِضون، وليَحذر المُؤمن أن تأخذ الدُّنيا قلبَه وعقله، وتشغَلَه وتُلهيَه عن الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: لاهية قلوبهم عن الله، مشغولة بما سِوى الله تعالى، وهذا وصف الكافر المُعرِض.

أمّا شأن المُؤمن فهو أن يكون على مُراقبةٍ لله في جميع أحيانه وأحواله، وقلبه حاضر مُتوجِّه إلى الله تعالى، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُم مُوقِنُونَ بالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ» رواه الترمذي[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أمّا الأمور التي تجعل القلب حاضراً مُراقباً لله تعالى، فترجع إلى الأسباب التي جعلت القلب غافلاً لاهياً عن ربِّه، وهي مُتعددة، وأشدُّها خطراً على الإنسان هي الدُّنيا وزَخارفُها، وزينتُها وأموالُها، فإذا استوْلَت على الإنسان غَفلة الدُّنيا فلا ينتَبه منها إلا بتذكُّر الموت والآخرة، فكما لا يَذهب بالدُّنيا إلا الآخرة التي هي ضرَّتُها، فلا يُذهب غفلة القلب عن الله تعالى إلا تَذَكُّره للآخرة، وتفكُّره فيما

---

(١) في كتاب الدعوات، باب/ ٦٦/ حديث رقم/ ٣٤٧٤/ (٩/ ١٥٦).

بعد الموت ، مِمَّا يحمِله إلى الرجوع إلى الله تعالى ، والتَّوبة ممَّا كان عليه ، والمُبادرة إلى فعل الطَّاعات.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي: استمعوا لآيات القرآن وتذكيره ومواعظه سَمَاع أُذُن ، ولم يعتَبِروا أو ينتهوا عمَّا هم فيه ، وليَحذر المؤمن أن يكون هذا وصفه لَدَى سَماع آيات الله تعالى ، ولا يكُن ممَّن استمعوا آيات الله وهم يلعبون ، بل ممَّن استمعوا وهم يتدبَّرون ويتذكَّرون ويتَّعِظون ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣] بل أنصتُوا واستمعوا ، وتبصَّروا وتدبَّروا ، وخَشَعوا وعمِلوا.

وقال تعالى في وصف المُؤمنين أيضاً: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢] أي: زادتهم إيماناً فوق إيمانهم.

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣] وهذا شأن المؤمنين وصِفتهم.

وليعلَم الإنسان أنَّ الزَّمان الذي يعيشه في الدنيا ـ وهو عُمُره ـ إنَّما هو ظَرف، وعليه أن يملأه بالعبادات والطَّاعات وفعل الخيرات، حتى إذا حُشرت الظُّروف المكانية والزَّمانية إلى الله تعالى يوم القيامة كانت له شاهداً ومُنقِذاً.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ: عُمُرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ» ؟ رواه

الترمذي[١] عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه.

ولا يمحو أثر الذَّنب من الزَّمن الذي شَغَله الإنسان بمعصية الله تعالى إلا التَّوبة النَّصُوح، فهي تمحو الظُّلمات من جهة، وتكون لصاحبها حسنة كبيرة، وهذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

فمن تاب لله تعالى ـ والتَّوبة حسنة كبيرة ـ فإنَّ توبته هذه تمحو الذَّنب وظُلمته وأثره، وتكون أيضاً حسنةً للتَّائِب.

وقد أمر الله تعالى جميع المؤمنين على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم في الإيمان أمرهم بالتَّوبة لعلَّهم يفلِحُون، وتوبة كلِّ مؤمن على حسبه، وفلاحُه على حَسب توبته، فمنهم من يتوب من الكبائِر، ومن لم يفعلها يتوب من الصغائر، ومنهم من يتوب من صغائر الصغائر، ومنهم من يتوب من الغَفَلات التي تمرُّ على قلبه أحياناً، ومنهم من يتوب من الخَوَاطِر السَّريعة التي تخطُر عليه ومنهم ومنهم.

وقد نزل قوله تعالى في السَّنة السَّادسة للهجرة يأمر فيه سبحانه جميع المؤمنين من المهاجرين والأنصار بالتَّوبة ـ وحُكم الآية يشمَل كلَّ مؤمن إلى يوم الدِّين ـ فقال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

والتَّوبة مقام يُقيم فيه المُؤمن ولا يُفارِقه. أي: أنَّه مهما ارتقى

---

(١) في كتاب أول صفة القيامة / ٢٤١٩/ (٧/ ١٣٦).

في مراتب الإيمان فلا يترك التَّوبة إلى الله تعالى ، ولا يفارِقها طُول حياته .

اللهُمَّ اجعلنا من التَّائِبين المُفلِحين .

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

❊ ❊ ❊

درس حول تفسير قوله تعالى في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ﴾ .

لقد ذَكَرَ الله تعالى في هذه الآيات صِفات الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وَردَّ في ذلك على الكفَّار الذين أنكروا رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، زَعماً منهم أنَّه لو أراد أن يُرسل رسولاً إليهم لأرسل مَلَكاً ، وزَعَمُوا أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بَشَرٌ مثلهم ، يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق ، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ .

أي : جَرَت عادة الله تعالى أن يُرسل الرُّسل عليهم الصلاة والسلام إلى البَشَر وهم من جِنس البَشَر ، وهذا مُقتضى الحِكمة ، وإنْ كان سبحانه قادِراً على أن يُنزِل ملائكة ، ولكن مَنِ الذي يرى الملائكة؟ .

فلو أنَّه سبحانه أرسل رسولاً ملكاً ، وبقي على حقيقته المَلَكيَّة فإنَّ البَشَر لا يرونه ولا يسمعون صوته ، فكيف يقتدون به ، ويأخذون عنه ما شَرَع الله تعالى لهم؟!

ولو أنَّ هذا المَلَك تمثَّل لهم بصورة رجل ليقتدوا به ، لقالوا هذا رسولٌ بَشَر وليس مَلَكاً ، ولعادوا إلى ما زَعَمُوا مِن الشُّبهة والضَّلال ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: ولو جعلنا الرسول إليهم من الملائكة لتمثَّل لهم بصورة رجل ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] أي: ولعَادوا إلى إنكارهم والتِباس الأمر عليهم بأنَّه ليس مَلَكاً.

وهكذا اقتَضَت حِكمة الله تعالى أن يُرسل إلى البَشَر رُسُلاً منهم ، ولكنَّه سُبحانه يَخصُّهم بالخصائِص العالية فوق مُستوى البشر ، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٦] أي: أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم مِن البشر ، ولكنَّ الله تعالى ربَّاه وعَنَاه بعنايته الخاصة ، وأمدَّه وأعدّه حتى يُنزل عليه الوَحي ، ويفتح عليه من العلوم والمعارف الإلَهية ما لا يُمكن لأحد غيره أن ينالها، ويُطلِعه على المُغيَّبات ومَلَكُوت الأشياء وغير ذلك.

فقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دلَّ على أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم بَشَرٌ ، لكن فوق مُستوى البَشَر ، لأنَّه ليس أحدٌ مِن البَشَر غيره فيه القَابليَّة والاستعداد والأهليَّة؛ لنزول الوحي والقرآن وما هُناك من العلوم والتَّجليات الإلَهية.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الآية ، أي: حتى يرى الناس أعمالَهم ، ويسمعوا أقوالهم ، ويقتدوا بهم لمعرفة الحلال والحرام ، وما شَرَع الله تعالى لهم.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالًا﴾ أي: فلم يكن من النِّساء رسل ولا أنبياء، لأنَّ المرأة دون الرَّجل في المَقام والرُّتبة، وأمَّا السيدة مريم عليها السلام فكانت مُؤمنة صِدِّيقة كما وَصَفَها سبحانه، ولو كانت نبيَّة ولم يصفها سبحانه بالنُّبوَّة لَبَخَسَها حقَّها ومقامها، لأنَّ الصِّدِّيقيَّةَ دون النُّبوة في المقام.

وقد رد سبحانه في أكثر من آية على شُبهة الكفار وإنكارهم رِسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنَّهم من البشر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١ ـ ٢].

أي: فمَالِ هؤلاء الكفار يعجبون من نزول الوحي على رجل منهم، وهم يعرفون مَكانته عندهم، وفضْلَه عليهم، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويزعُمون أنَّه لو أراد الله أن يُرسل رسولاً لأرسل مَلَكاً، والحال أنَّه سبحانه قادرٌ على أن يُرسِل مَلَكاً، ولو أرسل مَلَكاً إمَّا أن يبقى على حقيقته المَلَكيَّة فلا يرون ذاته النُّورانية ولا يسمعونه، وإمَّا أن يتمثَّل لهم بصورة رجل فيقولون: هذا رسول بَشَر، ولَعادوا إلى إنكارهم وإعراضِهم، ولو أنَّهم أنصفوا وتعقَّلوا لعلِموا أنَّ حِكمة الله تقتضي أن يُرسل إليهم رسولاً منهم، معروفاً عندهم بالفَضْل والصِّدق والأمانة، حتى يروا شخصه، ويسمعوا أقواله، ويتأسَّوا بتعاليمه وبياناتِه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الخِطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أرسله الله تعالى بشِيراً ونَذِيراً، فأمره أن يُنذِر النَّاس كلَّهم. أي: أن يُخوِّفهم ويحذِّرهم من عواقِب الدُّنيا

وعواقِب الآخرة ، ومِنْ عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي : آمنوا بك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبما جِئت به ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

والمعنى : أنَّ لهم سابِقيَّة صِدق وشَرف على جميع الأمم قبلَهم ، فلهذه الأُمَّة المحمدية الأسبقيةُ في الفَضْل والمَراتب والكمالات وأعالي المقامات ، ولها الأسبقيَّة على غيرها من الأُمم يوم القيامة حين المُرور على الصِّراط ، حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم : «نَحْنُ الآخِرُون مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَالأَوَّلُون يَوْمَ القِيَامَةِ»[1] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «فَأَكُون أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنْ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ»[2] أي : على الصراط .

وإنَّ أُمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي أول الأُمم دخولاً الجنَّة وراءه صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو صلى الله عليه

---

(١) كما جاء هذا في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة / ٨٥٥/ (٢/ ٩١٧)وعند ابن ماجه /١٠٨٣/ والبزار (مجمع الزوائد) (٢/ ١٦٥) ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وحُذَيْفَةَ رضي الله عنهما قالا : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : «أَضَلَّ اللهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَان قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَىٰ يَوْمُ الأَحَدِ ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلاَئِقِ» وفي روايات أخرىٰ : في (صحيح) البخاري أول كتاب الجمعة / ٨٧٦/ (٢/ ٣٥٤) وفي (صحيح) مسلم كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة : «السابقون يوم القيامة» .

(٢) كما جاء في حديث طويل رواه البخاري في كتاب الأذان ، باب فضل السجود /٨٠٦/ (٢/ ٢٩٢) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وآله وسلم أول الرُّسل دُخولاً الجنَّة ، ففي الحديث: «إنَّ الجنة حُرِّمَت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ـ وهذا تحريم كَوني وشرعي ـ وحُرِّمت على الأمم حتى تدخلها أمتي»[١].

وروى الإمام مسلم والإمام أحمد[٢] ، عَنْ سيدنا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَسْتَفْتِحُ ، فَيَقُولُ: الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟

فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. صلى الله عليه وآله وسلم.

فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ ـ أي: بحقِّك أمرني الله تعالى ـ لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: سابِقة وَعد صِدق ، أنَّ لهم التَّقدُّم والفَضْل على غيرهم من الأُمم في جميع المقامات والمراتب.

ويقال عن القَدَم ـ وهي الجارحة المعروفة في رِجْل الإنسان ـ إنها قدم ، لأن لها السبق والتقدم على باقي أعضاء الإنسان في المشي.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثباتاً ورُسوخاً في الإيمان ، فلا يُمكن لأحدٍ من هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يَزِيغَ أو يرتدَّ عن دينه ، فإنَّ الله تعالى يجعل لهم ثبات صِدق في الإيمان؛ فلا تَزِلُّ لهم قَدم فيكفروا ، وفي هذا بِشَارة من الله تعالى لأتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن النجار عن عمر رضي الله عنه ، كما في (الفتح الكبير).

(٢) (المسند) (٣/١٣٦) ، (صحيح) مسلم، كتاب الإيمان ، باب في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس يشفع في الجنة...» /١٩٧/ (١/٣٨٥).

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: لهم قَديم الصِّدق في الكتاب الأوَّل أنَّهم مُؤمنون، ويموتون على الإيمان، وإنَّ النِّهايات على حَسَب البدايات، فما دامت البداية على الإيمان والعملِ الصالح؛ فالنِّهايةُ تكون على ذلك أيضاً.

وإنَّ الصِّدق لا يتبدَّل ولا يتغيَّر كَمَا تدلُّ عليه لُغة العرب، إذ إنَّهم يُسَمُّون الصَّخرة الثَّابِتةَ الرَّاسِخَةَ في الأرض صِدقاً، فالصِّدق يدلُّ على الثَّبات والرُّسوخ.

فهؤلاء المُؤمنون الذين عمِلوا الصَّالحات هم على تَمَكُّنٍ وثَبَات ورُسوخ في الإيمان، وهم ينتقِلون إلى قَدَم الصِّدق، لأنَّ لهم قَديمَ الصِّدق، ولهم الأسبقِيَّةُ في المراتب والمقامات والفوزِ بالجنَّة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

ولا بُدَّ في الصِّدق مِن صِدقٍ في الإيمان، وصِدق في الأقوال، وصِدقٍ في الأعمالِ، وصِدقٍ في الأحوال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠].

وإنَّ الصِّدق في العمل يقتضي من صاحبه أن يدخلَ فيه بصدق ويخرجَ منه بصِدق، ولا يُفسِدَه أو يُحبطَ ثوابه بالرِّياء والسُّمعة، أو حُبِّ الظُّهور، أو العُجْب، أو الكِبْر وغير ذلك.

فمثلاً إذا أراد الصَّلاة في المسجد ولم يكن فيه أحد، ودخل في الصلاة بِصِدق مُراقباً لله مُخلِصَاً له في عبادته، وهو في صلاته دخل إنسانٌ المسجدَ، فجَعَل هذا يلاحظه في قلبه، ورَاحَ يُحسِّن في صلاته ويزيد في طُمأنينَته، ويُطِيلُ رُكوعَه وسجودَه، ويُوهِمُ النَّاظِرَ إليه بأنَّه خاشِعٌ في صلاته، فإنَّ هذا قد أفسد صلاته بمُراءاة غيره مِن النَّاس، ولم يخرج من صلاته بِصِدق.

وهكذا إذا كُنت تاجِراً واتَّفق معك رجل على أن تبيعَه بِضاعة كذا وكذا وَصفُها ، فلمَّا غاب عنك وجاء من يستلمها عنه ، سلَّمته بِضاعة تختلِف في وَصفِها عن تِلك التي تمَّ الاتفاق عليها ، ولم تَخرجْ من بَيعتك بصدق. وقِس على ذلك سائِر أعمالك في دخولك بها وخروجك منها.

فادخُل المسجد ـ مثلاً ـ بصدق ، مُخلصاً لله تعالى ، مُبتغِيَاً وجه الله تعالى ، ولا تدخلْه لتُحدِّث فُلاناً الذي وَعَدته في المسجد ، إذ ليس المسجد مكاناً للاجتماع والمُكالمات في الأغراض الدُّنيويَّة ، وهكذا فإنَّ الإنسان الصَّادق يدخل بصدق ، ويخرج بصدق ، ويمشي بصدق ، ويتكلَّم بصدق ، وينال قَدم الصِّدق ، ويَحُل في مقعد الصِّدق ، ويكون له لِسان الصِّدق ، كما أخبر سبحانه عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي: ثناءً حسناً في الآخرين من الأُمم ، وهي أُمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

والمعنى: أنْ يُوفِّقه الله تعالى لِفعل الصَّالحات الخالِصة لله تعالى ، حتى إذا أثنى عليه النَّاس ومَدَحوه أثنوا عليه بصدق ومدحوه بصدق ، لا مُداراة ومُداهنة.

وقد سأل ذلك الخَليل عليه الصلاة والسلام لأنَّ هذه الأُمة المحمدية هي خير الأُمم وأفضلها ، فثناؤها خيرُ الثَّناء وأفضلُه ، وثناؤها لا يكون إلا بالحقِّ والصدق.

وقد أجاب الله تعالى دُعاء الخليل عليه السَّلام ، وشَرَع لأُمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الثَّناء على الخليل عليه السلام.

ومن ذلك: الصلاة عليه في كلِّ صلاة يُصلِّيها المُؤمن المحمدي ، وذلك في الصلاة الإبراهيمية التي علَّمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه وأمَّتِه.

ولقد اقتضت حِكمة الله تعالى أن يُرسلَ إلى البَشَر رسولاً بَشَراً مثلهم ، يأكل ويشرب ، حتى يأخذوا عنه ويقتدوا به ، لكنَّ الله تعالى خصَّه بخصائِصَ ليست عند غيره من البَشَر ، ورفَعَه عن مُستوى البَشَر ، حتى يكون أَهْلاً لنُزول الوحي مِن الله تعالى عليه ، وما يستلزم ذلك من كَشْف للمُغيَّبات ، وإفاضةِ العُلوم والمَعارف ، والتَّجليات عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وهكذا ممَّا لا يعلمه إلا الله تعالى ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الآية [فُصِّلَتْ: ٦] ، أي فَلَسْت مَلَكاً ، ولست من عالَم الجنِّ ، بل أنا بَشَرٌ من بني آدم ، لكنَّ الله تعالى خصَّني بالخصائص العالية ، وربَّاني التَّربية الخاصَّة من صِغَري ، وعَنَاني بعِنايته ، وأمدَّني وأعدَّني للنُّبوَّة والرِّسالة ، وهذا معنى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وليس أحدٌ غيري مُستعد وقابِل لنزول الوحي.

فقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ إشارة إلى رفَع مُستواه صلى الله عليه وآله وسلم عن غيره من البشر ، وتخصيصِه بالخصائص العالية التي لم ينلها غيره من البشر ، فلا يُقاس صلى الله عليه وآله وسلم بالبشر ، بل له الأحكام الخاصَّة به صلى الله عليه وآله وسلم ، وله المُستوى الأعلى على سائر خَلْق الله تعالى ، وهو صاحب المقام الفَرْدَاني في سائر خِصَالِه وشمائِله وسَجَايَاه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بيَّن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا واصَل الصيام ، وأراد الصَّحابة الكِرام رضي الله عنهم اتِّباعه ظنّاً مِنهم أنَّهم مثله ،

وحِرصاً منهم على اتِّباعه صلى الله عليه وآله وسلم ، فنَهاهم عن ذلك وقال: «إنِّي لست مِثلَكم» ـ وفي رواية ـ: «إني لَستُ كَهَيئتِكُم» ـ أي: في الخصائص والأحكام وإنْ كُنت بَشَراً «أَبِيْتُ يُطعِمُني ربِّي ويَسْقِينِي» كما جاء هذا في الصحيحين[(١)] عن عِدَّة من الصَّحابة الكِرام رِضوان الله عليهم.

ولو كان هذا الطعام والشراب حِسيًّاً ماديًّاً لأفطر صلى الله عليه وآله وسلم ولَمَا واصل! لكنَّه غِذاء روحي عُلوي ربَّاني خاص به صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِني أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ»[(٢)].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً»[(٣)].

وقد بيَّن سبحانه فَضله السَّابقَ على رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وعِنايته الأزليَّة بهم ، وإمداده وإعداده لهم ، فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤] ، أي: أنَّه

---

(١) البخاري في كتاب الصوم ، باب الوصال / ١٩٦١/ وما بعده (٤/ ٢٠٢) مسلم كتاب الصيام ، باب النهي عن الوصال / ١١٠٢/ وما بعده (٣/ ١١٢٩).

(٢) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو تعلمون ما أعلم...» / ٢٣١٣/ (٧/ ٧٤) ، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء / ٤١٩٠/ (٢/ ١٤٠٢) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف / ١٠٤٤/ (٢/ ٥٢٩) ، ومسلم في كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف / ٩٠١/ (٢/ ٩٥٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

سبحانه هو العليم بالعلم الأزلي المُطلَق الذي لا أوَّل له بمَن هو أَهلٌ وقابِل لتلقِّي النُّبوة والرسالة ، وليس الأمر عارِضاً مفاجِئاً.

وقال الله تعالى في بيان أنَّه لا يليق لخَتم الرِّسالات والنُّبوَّات إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فخُتِمَت به: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] أي: وكان في آزال الآزال حيث لا زمان ولا مكان ، يعلم سبحانه بالعِلم الذي لا أوَّل له ، أنَّه لا يليق لخَتم النُّبوَّات والرِّسالات إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمدَّه وأعدَّه لذلك سبحانه وتعالى.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أوَّل الحقائِق خَلقاً في عالَم الحقائِق النُّورانية ، وهو أوَّل الأرواح خَلْقاً في عالَم الأرواح ، ونُبِّئَ في ذلك العالَم كما صَحَّ ذلك فيما وَرَد عنه من أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يزال صلى الله عليه وآله وسلم في عِناية الله تعالى الخاصّة ، ينتقِل مِن أصلاب الطَّاهرين إلى أرحام الطَّاهرات ، حتى ظهر في عالَم الدُّنيا ، وتولاه الله تعالى بعِنايته ورعايته وإمداده له سبحانه ، وعَزَله عن قومه ، وحَفِظه من رِجس الأوثان والأصنام ، وفَطَره على التَّوحيد والإيمان ، وحبَّب إليه عبادة الله تعالى؛ والخَلوة في غار حِراء لذلك ، حتى إذا بَلَغ الأربعين نزل عليه الوحي ، وأمره أن يُخرِج النَّاس مِن الظُّلمات إلى النُّور ، وانتشر دينه في نواحِي الأرض كلِّها ، وسيبقى إلى يوم الدين ، لأنَّه لا نبي ولا رسول بعده صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الأنبياء في الخَلق

ـ أي: في عالَم الأرواح ـ وآخرهم في البعث»[1] أي: في عالم الدُّنيا، وإلا فهو أول من تنشقُّ عنه الأرض يوم القيامة، ويُحشر إلى الله تعالى، كَمَا وَرَدَ ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ أي: إلا رِجالاً عُقلاء، أفاض الله تعالى عليهم الكمالات والآداب العالية، ثمَّ أوحى إليهم وأرسلهم إلى النَّاس، وهذا قوله: ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾، وفي هذا دليلٌ أنَّ الرسل هم خِيْرَة الله مِن خَلقه، وأنَّ النبوة لا ينالها النِّساء، لأنَّه سبحانه لم يخلُق فيهنَّ الاستعداد لذلك، بل هُنَّ قاصِرات عن بُلوغ مقام الرِّجال؛ وإن كان مِنهُنَّ الصَّالحات والقانتات والصِّدِّيقات كما أخبر سبحانه وتعالى.

وقال الله تعالى في سورة يُوسف عليه السلام: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩] أي: من أهل المُدن العامِرة، لا مِنْ أطراف الأرض ومُدُنِها المهجورة، ومِن أشراف الناس حَسبَاً ونسباً، وصِدقاً وأمانة، وعَدْلاً وأخلاقاً وأدباً.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ الآية [القصص: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴾ أي: لم نجعلهم أجساداً صُوريَّة شكلية لا يأكلون ولا يشربون، بل جعلناهم بشَراً يأكلون ويشربون، وينامون ويجلسون، ويترتَّب على ذلك بيان الحلال من الحرام، وبيان

(١) عزاه في (كشف الخفا) نقلاً عن (المقاصد الحسنة) إلى أبي نعيم، وابن أبي حاتم. وتكلم حوله مفصلاً فلينظر هناك.

المفاسِد من المصالِح ، حتى يتبيَّن للناس ذلك ، ويقتدوا بهم ، ويأخذوا عنهم التَّعاليم والإرشادات .

ويقال عن كلِّ شيء له لون : جَسداً ، ومنه جسد الإنسان .

ويُقال عن الزعفران : جَسدٌ ، لأنَّ له لوناً ؛ وتُصبَغ به أشياء أخرى .

ويقال : هذا مَجسود أي : مصبوغ بلون .

أما كلمة جِسم فهي أعم من الجسد ، وقد تُطلق على ما لا لون له كالهواء والماء ، وإن كان الهواء جِسماً لطيفاً ، ولا لون للهواء إلا إذا حمل غباراً ؛ فَيَتَـلَوَّن بلون ما يَحمل ، ويبدو للناظر أنه أحمر أو رمادي على حسب ما يحمل من غبار . ونسأل الله العافية .

وكذلك الماء فلا لون له ، بل لونه على لون إنائه . وهذا ما ثبت لدى التحقيق .

فالجسد له شكل وهيئة وصورة ولون ، أما الجِسم فهو أعم من الجسد ، ويشمل ما لا لون له ولا صورة له . كما تقدم .

وقد خص الله تعالى رسله وأنبياءه عليهم الصلاة والسلام بقوة في مداركهم وعقولهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، على وجه لا يتصف به غيرهم ، ورفع مستواهم عن مستوى باقي البشر .

فمن ذلك : سماعهم لتسبيح الأشياء حولهم ، ورؤيتهم للمغيبات : كعذاب أهل البرزخ من الكفرة ، وعصاة المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا وهكذا ، وقد يكشف الله تعالى لبعض أوليائه عن ذلك .

ونسأل الله تعالى التوفيق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

درس حول تفسير قوله تعالى في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا
يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ في هذا تنبيه للعاقل إلى التَّفكر في الحِكمة مِنْ خَلْقه سبحانه للسماوات والأرض وما بينهما.

وقد خَلَق سبحانه السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات كبيرة أو صغيرة، عظيمة أو دقيقة، كلُّ ذلك خَلَقه سبحانه بالحق والحِكمة، لا لهو ولا لعِب، ولا عَبَث في خَلْقه وأفعاله سبحانه.

وتُطلق كلمة السماء على العُلو بما حواه على سماوات سبع، وكلُّ ما علاك وأظلَّك فهو سماء.

وأمَّا كلِمة السماوات فيُراد منها العوالم السَّماويَّة السَّبعة، أمَّا كلمة السماء فتشمل ما فوقك إلى عالم السَّماء السَّابعة.

والأرض كلمة جِنس يُراد منها الأرضون السَّبعة ـ أي: الكواكب الأرضية السبعة ـ ولم يَذكر سبحانه كلمة الأرض في القرآن بصيغة الجمع لثقلها في اللفظ، في حين أَنّ كلمة السماوات جاءت بصيغة الجمع لسهولتها في اللفظ، وهذا لأن القرآن معجز في نصه وكلماته، ولا ثقل أو صعوبة في النطق بكلماته، بل هي كلمات لطيفة سهلة يَسَّرَها سبحانه للذكر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: أنَّه سبحانه ليس لاهياً أو لاعِباً في خَلْق شيء من هذا العالَم الكبير، بسماواته وأجرامِها، وكواكبها، وبأرضه وما بينهما.

والإنسان هو من جُملة ما بين السماء والأرض، وكذا الجِن، والأشجار، والبحار والأنهار، والحيوانات والدِّيدان والطيور، كلُّ ذلك يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وكلُّ تلك المخلوقات لا عَبَثَ فيها ولا فُضولَ، ولا لهو ولا لعِب، بل خَلَقَها الله تعالى بالحقِّ والحِكمة.

وقد يتساءل الإنسان: ما الحِكمة في خَلْقه سبحانه للدِّيدان أو الصَّراصير أو غير ذلك؟!.

فيُقال في الجواب: أنت أيُّها الإنسان مخلوق مِن خَلق الله تعالى، آتاك الله تعالى عَقلاً وعِلماً وحِكمة تليق بك، ولا يمكن أنْ تُدرِكَ حِكمة الله تعالى في خَلْقه للأشياء كلِّها، فقد يُطلعك سبحانه على بعض منها، وتخفى عليك أسرار وحِكَم كثيرة في هذا العالم، إلا أنَّك يجب أن تؤمن أنَّ كلَّ شيء خلقه الله تعالى إنما خلقه بالحق والحِكمة، لأنَّه هو المَلِك الحق العليم الحكيم، ولا يصدر عنه إلا الحقُّ والحِكمة.

وإذا كان الإنسان يلهو في بعض الأحيان باللعب والتَّسلية ، لإضاعة الوقت بما لا فائدة منه في الدُّنيا ولا في الآخرة ، فإنَّ ذلك مُستحيل في حق الله تعالى ، فلا لهو ولا لعِب ولا عَبَث في أفعاله سبحانه؛ أو في تدبيره لأمور خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: وإنَّ الإنسان هو مِنْ جُملة العوالم التي خَلَقَها الله تعالى بين السَّماء والأرض.

وإنَّ مِنَ الناس مَن ضلَّ ونسب إلى الله تعالى الولد ، وقالوا: اتخذ الله ولداً لِيَلْهُوَ به ، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي: نتبنى ولداً نلهو به كما زعم هؤلاء الضالون ونسبوا إلى الله تعالى: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: فلو أنَّه سبحانه جاز عليه أن يَتَّخذ ولداً يلهو به ، ويلاعبه كما يلاعب الأب ولده ، فلو جاز ذلك على الله تعالى لَمَا اتَّخذه من بني آدم ، لأنَّ الآدَمِيَّ يَتَّخذ له ولداً من جِنسه من بني آدم ، أمَّا هو سبحانه لو جاز عليه ذلك قال: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من عالم كبير أرفع منكم يا بني آدم وأعظم ، لكنَّ الأمر مُستحيل لا يُتصوَّر في حق الله تعالى.

قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي: ولداً ، كما بيَّن ذلك سبحانه في آية أخرى بقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] فاللَّهو في الآية يعني: التَّبني.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ﴿إِن﴾ في الآية بمعنى: ما ، وهي تعني: الجُحود والنَّفي ، والمعنى: ما كُنَّا فاعلين ، وعلى هذا المعنى يكون الوقف في الآية على قوله تعالى: ﴿لَّدُنَّآ﴾.

ونفيه سبحانه ذلك يدل على أن الإرادة الإلَٰهية لا تتوجَّه على

فِعل ذلك ـ أي: اتِّخاذ الولد ـ وهذا مُستحيل لا يُتصوَّر في حقِّه سبحانه، والإرادة لا تتعلَّق بالمُستحيلات.

أو أنَّ الوقف على تمام الآية، أي: على قوله تعالى: ﴿فَٰعِلِينَ﴾ وتكون ﴿إِن﴾ شرطية.

والمعنى: إنْ كنَّا فاعلين لاتَّخذنا من لَدُنَّا، ولكنَّ هذا لا يكون ولا يُتصوَّر في حقِّ الله تعالى، وهو سبحانه أَحَدٌ صَمَد لم يلِد ولم يُولد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ يدل على أنّ هناك ما بين السماء والأرض عوالم كثيرة، منها النُّجوم والكواكب وما أودع الله تعالى فيها، ومنها عالَم الجِن.

وإنَّ ما يراه الإنسان مِن هذا الفضاء الكَوني الواسِع كلَّه مليء بالعوالم، قد يُدرك الإنسان بعضها ويَخفىٰ عليه الكثير منها.

وهناك العوالم المَلَكية العالية ما بين كلِّ سماء وسماء، وليس في ذلك كلِّه لهو ولا لعب، ولا عَبث ولا فُضول، إذ كلُّ ذرة في هذا الكَون إنَّما خَلَقَها الله تعالى بالحقِّ والحِكمة.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقد نفى سبحانه عن نفسه اللهو واللعب، وأثبت لنفسه صفة

العِلم والحكمة المطلقة ، فهو العليم الحكيم(١) .

والحكمة هي : وضع الشيء في موضعه اللائق به ، وهذا يحتاج إلى علم كبير بالأشياء وخصائصها وطبائعها ، وكُلما صحَّ العلم صحَّت الحكمة ، ولذلك لا يسمى الطبيب حكيماً إلا إذا صحَّ علمه بالطب ، وجاء وصفه للدواء مناسباً للداء ، فهو عندئذٍ حكيم بحكمة جزئية . أي : في ميدان الطب والأدوية مثلاً .

أما علم الله تعالى فهو العلم المطلق الذي لا أول له ، وهو السابق على خلق الأشياء ، وحكمته سبحانه هي الحكمة المطلقة العالية ، فهو العليم الحكيم ، ولذلك قرن سبحانه اسمه العليم بالحكيم ؛ وهذا لحكمة أيضاً ، وأحياناً يقرن الحكيم بالعليم ؛ وهذا لحكمة أيضاً . كما في سورة الأنعام مثلاً ، فجاء قوله تعالى : ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

فكيف يتصور في حقه سبحانه اللهو والعبث وهو العليم الحكيم ؟!

وقد بَيّن سبحانه أنه لم يخلق الخلق لهواً أو لعباً أو عبثاً ، فقال جل وعلا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر : ٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] أي : تنزه الله تعالى عن فعل ذلك ، لأنه المَلِكُ الحق ، ولا يخلق إلا بالحق ، ولا بد أن يعود أمر الخلائق إلى الحق .

فلم يخلق الله تعالى الخلق وتركهم سدىً دونما أمر ونهي ،

---

(١) ويقال عن الإنسان المُعْرِض عن اللهو واللعب : بأنه عاقل ، وعقله يَحمله على فِعل ما فيه الحكمة وهي : الصواب والسداد في القول والعمل ، والعقل للإنسان عِقَال له يمنعه عن فعل ما فيه ضرره .

وتعاليم وإرشادات فيها بيان مصالحهم من مفاسدهم، وسعادتهم من شقائهم، وفيها بيان كلِّ ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، بل أرسل سبحانه الرُّسلَ عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم الكتب الإلَهية، وشَرَعَ لهم الشرائع التي فيها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

ولا بد من يوم ترجع فيه الخلائق إلى الله تعالى ليحاسبهم على أعمالهم، فيثيب المحسن ثواب إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، وإلا لاستوى المؤمن مع الكافر، والمُحسن مع المسيء، والظالم مع المظلوم، وليس هذا من الحقِّ والحِكمة، وقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١ ـ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أي: وهذا ليس من الحق، فلا بد أن يَنتهي أمر العالَم إلى الحق، وهذا يوم القيامة الذي يُحِق الله فيه الحق، وتظهر الأشياء على حقائقها. فهو يوم الحاقَّة.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: أن يُخلق ويُترك هَمَلاً بلا أمر ولا نهي، ولا شرع يؤمر بالعمل به؟ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠] بلى وعِزَّة ربِّنا.

أي: فلا بُدَّ أن يجمع الله تعالى الخلائق ليوم الحساب والجزاء، وإذا استبعد الإنسان على الله قدرته على إحياء الموتى، وحشرهم ونشرهم للسؤال والحساب والجزاء، فقد بيَّن سبحانه

أدلة قدرته على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: فليفكِّر وليعتبر هذا المُنكر للإعادة، فليفكر في البُداءة، أي: كيف بدأ الله تعالى خَلْقه وطوَّره، من طَور النُّطفة، إلى العَلَقة، إلى المُضغة، إلى أن أخرجه طفلاً.

والذي قدر على بدء خلقك يقدر على إعادتك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي: إن الأمر كله هيِّن عليه سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ فردَّ الله عليه بالدليل القاطع بقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦ ـ ٦٧] أي: فلينظر في بدء خلق الله له، وليعتبر فيعلم ويؤمن أن الله قادر على إعادة نشره وحشره.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: من ماء مَهين، خلقه الله تعالى من خلاصة الأغذية التي يتناولها الإنسان، والتي يرجع أصل منشئها إلى الأرض، التي أودع الله فيها خصائص الإنماء والإنبات؛ فأخرجت الزروع والثمار.

وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من قبضة قبضها من جميع تراب الأرض ـ لا من بقعة معينة ـ كما جاء بيان ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا مات الإنسان وَبَلِيت عِظامه، وتفرَّقت وتَشتَّتَتْ في بقاع الأرض، فهو سبحانه قادر على جمعها وإعادتها يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي: بل بالحق وللحق ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: هذا ظنهم، وهو أَنْ لا إعادة ولا بعث ولا حشر ولا حساب ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧ ـ ٢٨] أي: فكما لا يتساوى الليل والنهار، والظلمة والنور، والعلم والجهل، فكذلك لا يتساوى المؤمن والكافر، والمُحسن والمسيء، ولا بد إذاً من يوم تظهر فيه الحقائق، ويحكم فيه الملك الحق، وهو أحكم الحاكمين.

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: ولكم الويل أيها المشركون الذين زعمتم أنَّ لله ولداً، فلكم الويل مما تصفون به ربكم من أمور لم يتصف بها، لأنَّ منهم من نسب له الولد، ومنهم وصفه بأنه اتخذ الملائكة إناثاً، ومنهم مَنْ وصفه بأنه وُلِدَ له ولد.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: فسيظهر لهم الحق يوم القيامة، وَيُنادُون بالويل والهلاك والثبور، كما أخبر عنهم سبحانه بقوله ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وأنى لهم الموت في يوم الخلود، الذي تمثل فيه الموت بصورة كبش وَذُبِح ومات، مما يزيد الكافرين أَلَماً وحسرة، ويزيد أهل الجنة فرحاً ونعيماً.

واعلم أن نشأة أهل الجنة في الجنة تختلف عن نشأتهم في الدنيا، إذ يُنشئهم الله تعالى في الجنة نشأة باقية أبدية، بقوة الشباب ورونقه، سِنّ أحدهم ثلاث وثلاثون سنة، يبقون كذلك آباد الآباد، في حياة طيبة ونعيم متجدد.

أما نشأة أهل الدنيا فهي نشأة زمنية متغيرة، بحيث يمر الإنسان في سن الشباب وهو ربيع عمره، ثم يبدأ شيئاً فشيئاً بالكهولة والهرم، ويعتريه الضعف والشيخوخة، حتى ينتهي أجله الذي

أجّله الله تعالى له في الدنيا . وهذا من جملة حكمة الله تعالى ورحمة الله تعالى بالإنسان ، إذ لولا الموت لبقي الإنسان يُقاسي ويعاني من ضعفه وهرمه وشيخوخته

ولذلك ذكر سبحانه في سورة الرحمن قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فذكر ذلك سبحانه في سياق ذكره لنعمه على الإنسان .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي : له سبحانه ما في السماوات وما في الأرض مُلكاً ومِلكاً ، فهو المالك لذوات الأشياء كلها ، ولا أحد يشاركه في ملكه سبحانه ، وهو وحده الملك فيها ، أي : المتصرف فيها ، والمدبر لأمورها . بمقتضى علمه وحكمته سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ من الملأ الأعلى ، والمقربين من الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ خاضعين خاشعين له سبحانه ، مع أَنّ لهم المقام العالي عنده سبحانه ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي : ولا يتعبون ولا يَمَلُّون من عبادته سبحانه .

ويقال في لغة العرب : فلان حَسير مِنْ حَسَرَ يَحْسِر[1] حسوراً إذا تَعِبَ وَكَلَّ ، فهو حاسِر وحسير ، وهو الذي انقطعت قواه من شدة التَّعب .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٤] أي : مُنقطع لا قوة عنده للنَّظر .

---

(١) على وزن ضرب يضرب .

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ وإنَّ زِيادة المبنى تدل على زيادة المعنىٰ ، فهم لا يحسِرون أي: لا يتعبون ولا يملون من عبادة الله تعالى ، ولا يُريدون الانقطاع عن عبادته سبحانه ، فَهُم لا يريدون ولا يتمنَّون التَّوقف عن عبادته سبحانه ، ولا يقع في نفوسهم الرَّغبة إلى انتظار أَمْرٍ مِنَ الله أَنْ يتوقفوا عن عبادته سبحانه ، بل إنَّ عبادة الله تعالى هي حياتهم وولَعُهم ونعيمهم، وصفتهم التي لا تفارقهم ، ولذلك قال سبحانه : ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ، أو يتوقفون لحظة عن تسبيح الله تعالى .

وقد يلتَبِس على المرء فَهْم ذلك ، لأنَّ الملائكة عليهم السلام هم دائماً في تنفيذ أوامر الله تعالى في العوالم ، فكيف يقومون بتنفيذ ما أمرهم الله تعالى به ، وكيف لا ينقطعون لحظة عن تسبيح الله تعالى؟ .

فيُقال في الجواب: إنَّ نشأة الملائكة عليهم السلام نشأةٌ مَلَكوتية نورانية، فَطَرَهم الله تعالى على معرفته ، وعبادته وتسبيحه ، وتنفيذ أوامره ؛ دونما تَعَبٍ أو مَشقَّة أو مَلَلٍ يعتريهم .

وإنَّ نشأة أهل الجنَّة كذلك ، فقد وَرَد في (صحيح) مسلم وغيره[1] ، عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّة يَأْكُلُونَ فِيْهَا وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا يَتْفُلُونَ ، ولا يَبُولُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ» .

قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ .

---

(١) (صحيح) مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب في صفات الجنة وأهلها /٢٨٣٥/ (٥/ ٢٧/٠٤) وأبو داود ـ مختصراً ـ في كتاب السنة ، بابٌ في الشفاعة /٤٧٤١/ (٥/ ١٠٧). =

قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ».

فكما أنَّ الإنسان في الدنيا أنشأه الله تعالى نشأة لا يجد فيها تكلُّفاً أو مشقة في تنفُّسه للهواء حوله؛ ليبقى حياً في الدنيا ، مع أنَّه يأكل ويشرب ويعمل ويتكلَّم وينام ، إلا أنَّه لا ينقطع عن تنفُّسه ، وكذلك أهل الجنَّة؛ فهم في نعيمهم ومآكلهم ومشاربهم ، إلا أنَّ تسبيح الله وتحميده وتكبيره ولَعُهم وكَلَفهم الذي لا يفتُرون عنه لِحظة.

ومن هنا تفهم أنَّ الملائكة عليهم السلام لا يفتُرون لحظة عن تسبيح الله تعالى ، مع أنَّهم دائماً في تنفيذ أوامر الله تعالى ، ولا يَشْغَلُهم التَّسبيح عن تنفيذهم لأوامر الله تعالى ، كما لا يشغل التَّنفُّسُ[1] الإنسان عن عمله وحركته ، وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ» أي: وليس في نَفَسِكم كِلفة ومشقَّة ، بل هو حياتهم ولا تكلُّف فيه ، وهذا هو حال أهل الجنة في عباداتهم وتسبيحهم ، وتقديسهم ، ونعيمهم.

نسأل الله أن يجعلنا منهم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) ولا يُسمَّى الهواء نَفَساً إلا إذا تَنَفَّسَه الإنسان وصار في نَفَسه ، وإلا فهو هواء قبل أن يدخل جَوفه ، ويستفيد الإنسان من تَنَفُّسه للهواء ما أودع الله فيه من مواد تُبقي عليه حياته ، ويطرح في زفيره ما لا فائدة له منه ، كما أن جِسمه يأخذ ما يستفيد منه من الطعام والغذاء ، ويطرح ما لا فائدة له منه.

جُملة دروس حول
تفسير الآيات من سورة المؤمنون

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

لقد ذكَر سبحانه في أول هذه السُّورة مَراتِب ومقامات أهل الإيمان الكَامل ، وأثنى عليهم ، وبشَّرهم بالجنَّة ، ثمَّ ذكَرَ سبحانه الأدِلَّة والبَراهين النَّفسية والآفاقيَّة على حَقِّيَّةِ قضايا الإيمان ، وأولها الإيمان بالله تعالى ، وأنَّه حقٌّ واجب الوجود ، وهذا لأنَّ الآيات القرآنية مُرتبطة بعضها ببعض ، وهناك التَّناسب في توالي الآيات ، وكثيراً ما يقرِن سبحانه الدليل النفسي بالدليل الآفاقي ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الآيات [الذاريات : ٢٠ ـ ٢١] .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ فمعنى خلقنَا : أي : أوجدنا . فالخلق في الآية هو الإيجاد مع التقدير

والتهيئة ، فهيَّأ له ، وقدَّر له سبحانه ، وأوجده كما قدَّر.

والإنسان مشتق من الأنس ، بمعنى: أنه يُؤنس. أي: يُرى ، ويقابله الجان وهم أخفياء لا يُرون ، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] أي: رأى وأبصر ، فالإنسان سُمي بذلك لأنه يُرى ويبصر بالعيان.

فَسُمِيَّ الإنسان إنساناً لأُنسه:

وما سُمي الإنسان إلا لأُنسه ‏ ‏ ‏ وما القلب إلا أنَّه يتقلَّب

فالقلب دوماً في تقلُّب ، إمَّا من خير إلى خير؛ كقلوب أهل الإيمان ، وأما قلب الكافر: فينقلب من شر إلى شر.

وَتُطلق كلمة إنسان على الذكر والأنثى ، وجاء في لغة نادرة قولهم: إنسانة.

وقد ذكر بعض العلماء أَنَّ الإنسان سُمي بذلك لأنَّه يَنْسَىٰ أي: يعتريه النِّسيان ، ومنه:

وما سُمي الإنسانُ إلا لِنَسْيه ‏ ‏ ‏ فأولُّ ناسٍ فيها أول النَّاسِ

والحقُّ أنه سُمي بذلك لأنسه ، أي: لأنه يُؤنس ويُرى ويُشهد.

والمُراد من الإنسان في الآية جِنس الإنسان ، وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وهو أول جنس الإنسان ، والمُراد منه آدم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ السُّلالة هي: ما يُسَل ويُستَخْلص من الشيء مِن خُلاصة ، وهي على وزن فُعَالة ، وهذا الوزن يفيد معنى الاستخلاص.

فقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أي: من خلاصات من طين

الأرض ، فجاء خَلق آدم من الخلاصات الأرضية النَّفيسة القيِّمَة ، لأنَّ الأرض حَوَت الرَّديء والنفيس ، فلما ذَكَر سبحانه أنه خلق آدم من سُلالة من طين الأرض ؛ دلَّ على أنَّه خَلَقَه من الخلاصات الجيِّدة النَّفيسة ، لا من الأردئة الأرضية . والطين من جملة تراب الأرض .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ الضمير يعود إلى الفرع الإنساني ، الذي تفرَّع عن آدم عليه السلام ، وهم بنو آدم ، لأنَّ الآية تذكر خلق جنس الإنسان ، فهو من حيث الأصل مَخلوق من طين ، وأَما مِنْ حيث النوع فمخلوق من نطفة .

والنُّطفة : هي المَاء الذي ينطُف ـ أي : يسيل بصعوبة ـ ﴿ فِي قَرَارٍ ﴾ ـ وهو الرَّحم ـ ﴿ مَّكِينٍ ﴾ ـ أي : مُتمكِّن ثابت ـ فلا تنفك النُّطفة عن رَحِم المرأة بتحرُّك المرأة وقيامها وقعودها .

فالنُّطفة تستَقِر في الرَّحم ، وتتمكن فيه ، وتمضي عليها مُدة حتى يُطوِّرها الله تعالى إلى عَلَقَة ـ أي : قِطعة دَم جامِدة مُتعلِّقة في جِدار الرَّحم ، ولا تنفصل عن جِدار الرَّحم إلا بصعوبة ـ .

﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي : طوَّر سبحانه العَلَقة في التَّخليق وجعلها مُضغة . أي : قطعة على قَدْر المُضغة ـ على وزن فُعْلة ـ وهي على قَدْر ما يُمضغ . والمعنى : أي : كتلة شِبه لحميَّة تبلغ في حجمها قَدْر المُضغة ، أي : قَدْر ما يتمكن الإنسان من مَضْغِهِ .

﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ أي : طوَّرها سبحانه في التَّخليق حتى جعلها عِظَاماً ، وهي تَشمَل عِظَام الأطراف والرَّأس ، وما هُناك من عِظام الجِسم المعروفة ، ولكلِّ عَظْمٍ مُهمَّته .

﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أي : غير العَلقة

والمُضغة ، وهذا الخَلْق الآخر يحصل لمّا تمضي عليه أربعة أشهر ثم تُنفخ فيه الرُّوح ، وهذا لأنَّ سَرَيان الرُّوح فيه جَعَلت فيه القُوى والمَدارك : السَّمعية والبَصريَّة والحركية ، وإنْ كانت مَطوية مُجملة ستظهر بعد ولادته ، وأمَّا قبل نَفْخ الرُّوح فيه فلم تكن فيه هذه القُوى ؛ وإن كان تشكيل الأُذن والعين ، والأنف والفم والأطراف موجوداً ، فلقد نشأ هذا المخلوق نشأة ثانية بعد نفخ الروح فيه .

وإن شُعور المرأة بحركة الجنين قبل نفخ الروح فيه ـ أي : قبل أن تمضيَ عليه أربعة أشهر ـ أمرٌ واقعيٌّ مقبولٌ ، وسبب هذه الحركة هو نُمو الجنين في رَحِم أمِّه ، إذ إنَّ أعضاءه تكبُر وتنمو ، وينشأ عن ذلك حركة قد تشعر بها المرأة الحامل ، وحركة النُّمو هذه تُشبه حركة نمو النَّبات وجُذوره وأعضائه ، وهي حركة حقيقية ، وقد يُؤثِّر امتداد الجُذور في الأرض إلى تشقُّقها وتصدُّعها أحياناً ، فحركة الجنين في بطن أمه قبل أن يَمضي عليه أربعة أشهر هي حركةُ نمو ، وليس حركة روحية . فافهم .

وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ : إنَّ ثُمَّ تفيد التَّراخي ، وتدلُّ على انقضاء مُدَّة من الزَّمن ، وعلى هذا فالنَّشأة الأُخرى التي يُنشئها الله لهذا المخلوق هي عند ولادته وخروجه من بطن أمه ، وقد مضى عليه فترة الحَمْل كلها ، وقد تطوَّر من نُطفة إلى عَلَقة ، إلى مُضغة ، إلى عِظام مُشكَّلة ومَكْسُوَّة لحماً ، ثم نُفخت فيه الرُّوح ثم نَمَا وكبِرَ ، حتى صار مُستعداً للخروج إلى هذا العالم ، فأخرجه الله تعالى ، وأنشأه نشأةً أخرى في تلك اللَّحظة ، ومِن ذلك أن جعل غذاءه يسري إليه عن طريق فمِه بعد أن كان بواسطة دم أمِّه ، وجعل تَنَفُّسه عن طريق أنفه

بالتَّنفس المعروف ، بعد أن كان بواسطة الماء الموجود في رَحِم أمِّه ، وهكذا أخذ نشأةً مُناسبة لهذا العالم الذي جاء إليه .

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ الذي خَلَق الخَلْق الحَسَن المبدع الكامل ، ومعنى الخالقين : المُصوِّرين والمُقدِّرين للأشياء ، فكلُّ شيء خَلَقه سبحانه إنَّما خَلَقه على قَدْر مُعيَّن في الكيفيَّة والكمِيَّة ، وكلُّ ذلك صادِر عن حكمته وعِلمه سبحانه .

ومعنى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ أي : تَعَاظم وتعالى بكثرة أسمائه وكمالاته ، فهو المُتعالي على خَلْقه في أن يُشابههم في صِفة من صفاته ، فكثُرَتْ أسماؤه وكمالاته على وجه التَّعالي لا على وجه يُشبه صفات المخلوقات ، فصفاته سبحانه مُتعالية عن الخَلْق على وجه لا يتناهى ، فأين سمعك من سمع الله؟! وأين بصرك من بصر الله؟! وهكذا فلا شَبَه ولا تَناسب ولا تماثُل ولا تناظُر ، بل هو سبحانه المُتعالي في ذاته وكمالاته ، وليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير .

وبعد أَنْ ذَكَر سبحانه الأطوَار التي مرَّت على الإنسان ، إلى أن خلقَه إِنساناً عاقِلاً سميعاً بصيراً ، ذَكَر سُبحانه مدَّة انتهاء أجَلِ الإنسان في هذه الدُّنيا فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ أي : فمهما طَالَ عُمُر الإنسان ، ومهما كَبِرَ جِسمه ، وعظُمَت قوَّته ، فلا بُدَّ له من الموت ، وهناك قوة فوق كلِّ القُوى ، وهي قُوَّةٌ قاهِرة لا تُغلب ، ألا وهي قُوَّة الله تعالى الخالق القوي المَتين .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾ أي : بعد أن تمضيَ عليكم مُدَّة وأنتُم في عالم البَرزخ ، حتى إذا جاء أمر السَّاعة فهناك النَّشر والبَعث ، والحشر للحساب والجزاء .

وسُمي يوم القيامة بذلك لأنَّه يوم يَقوم فيه النَّاس لربِّ العالمين كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٥] والقِيَامة مُبَالغة من القِيَام.

وهكذا ذَكَر سُبحانه آيات رُبوبيته بالإنسان، وهي الآيات التي مرَّت عليه، والآيات التي ستأتي عليه، حتى يَتعرَّف الإنسان إلى ربِّه من خلال تَفكُّرِه في نفسه.

ثم ذَكَر سُبحانه الآيات الآفاقية المُحيطة بالإنسان فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾.

طَرائِق: جمع طريقة، كما تقول: سَبائِك جَمع سَبيكة، والمُراد من الطَّرائق إذاً السَّماوات السَّبع، التي صَنَعَها الله وسَبَكَها فوق بعضها، ويُقال عن الحَديد المَطروق بذلك إذا سُبِك: ألواحاً.

وقال بعضهم: طرائق جمع طريقة، بمعنى طريقة يمشي عليها فهي سماوات سبع، ولكلٍّ سماء طُرق للملائكة تصعد وتنزل منها، وتمشي عليها، ولكلٍّ مَلَك طريقه الخاص به، وعلى هذا فالسماوات طرائق على المعنى المعروف.

وقال بعضهم: طرائق أي: مَجاري للكواكب، وهي الأفلاك. جمع: فَلَك، وهو الطَّريق الذي يسلُكه الكوكب في سَيْره، وقَطْعِه للمَسافة التي أَوقَعَه الله تعالى فيها من القُبَّة السَّماوية ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ولا تَصْطَدِم الكَوَاكِب ببعضها إلا عند خَرَاب العالم لِقيَام السَّاعة، والكُلُّ بإذن الله تعالى، وأمر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: لمَّا خلقنا الإنسان، وأبدعنا صُنعه وتصويره، وخَلَقْنَا السَّماوات وما فيها لم

نترك هذه المخلوقات ونُغْفِل أمرَها ، بل خَلَقْنَا الإنسان في أحسن تقويم ، وخلقنَا ما حوله من العوالم ، ولم نُغْفِل ونُهْمِل أمرَه ، بل تعهَّدناه بالأوامر والمَناهي ، والهِدَاية لِمَا فيه صَلاحه في الدُّنيا ، وسَعادته في الآخِرة .

كمَا أنَّه سُبحانه لم يَخْلُق الإنسان ويَغْفل عنه ، بل تعهَّده بالحِفظ والإمداد ، كمَا تعهَّده بالهَدي والأمر والنَّهي .

ولا غِنَى للمَخلوق أيّاً كان ؛ لا غِنى له عن ربِّه في أن يُمِدَّه في كلِّ لحظة ـ بل أقل من اللَّحظة ـ أَنْ يُمدَّه بالوجود والبَقَاء ، ولو قطع عنه مَدَدَ الإيجاد لعَادَ إلى العَدم .

فلم يخلُق سُبحانه الخَلْق ثمَّ يترُكْهم تَرْكَ الغَافِلين ، بل لا زال يُمدُّهم ويُربِّيْهم ، ولا غِنَى لهم عنه ولا لَحْظة ، بل كلُّ مخلوق هو فقيرٌ فَقْراً ذاتياً إلى ربِّه ، ولا يُتصوَّر في حقِّه سبحانه الغَفْلة عن خلْقه ، فَذَكَّرنَا سبحانه بخَلْقِ أنفسنا ، وخَلْق العَوالِم المُحِيطة بِنَا ، وذكَّرَنَا بتوالي إمداده لنا ، ورُبوبيَّته بنا ، ودوام فَقْرنا وحاجَتِنا له سُبحانه وتعالى ، بل وحاجة وفقر العوالم كلِّها له سُبحانه وتعالى .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ثلاثة دروس حول تفسير بعض آيات
من سورة المزمل ﷺ

من قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ
أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ
ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ
يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ
تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ
ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي
ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾ وهم الذي بَطَروا نعمة الله تعالى عليهم، ولم يشكروه عليها، وانغمسوا في شهواتهم، وإذا جاءهم شيء من الحق أعرضوا واستكبروا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي: أَنْظِرْهم مُدَّة قليلة، وهي مدة حياتهم في الدنيا، حتى إذا جاءهم الموت كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مدة قليلة؛ وإنْ كانوا قد لَبِثُوا فيها أعماراً طويلة.

ويبدأ العذاب بالكافر فور دخوله عالم البرزخ ، ثم يتنقل في عذاب برازخ الآخرة حتى يَصلَى نار جهنم ويخلد فيها.

وفي الآية تنبيه من الله تعالى لعباده ، أَنْ لا يجعل أحدهم الدنيا ومآكلها وشهواتها هَمّه الأكبر ، بل عليه أَنْ يهتم بأمور دينه وعبادته ، وليرضىٰ مِنَ الدنيا بما قَسَمَهُ الله تعالى له ، دُون أن تشغله عن عبادة الله تعالى وطاعته.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾

أي: وعند الله تعالى عذابٌ مماثل لجرائم هؤلاء المكذبين وذنوبهم ، فَكما أَطلق هؤلاء لأنفسهم العنان في استباحة ما يَهْوَوْنَ من مآكل مشارب ، وَمَشوا بأرجلهم إلى أماكن اللهو واللعب وتعاطي الشهوات المحرمة ، كان عقاب الله تعالى لهم في الآخرة مُماثلاً لذنوبهم ، بأن قُيِّدَتْ أَرجلهم بالأنكال[1] ، وَقُدِّم لهم طعام فيه الغُصص؛ بعد أن كانوا في الدنيا يتناولون ما لَذّ لهم من المآكل والمشارب المحرمة.

كما أنهم يذوقون الجحيم الأليم ، لأنهم في الدنيا قد نَعَّمُوا أنفسهم بما يُسخط الله تعالى ، وَيأتيهم الغُصص في طعامهم ، بسبب الشوك الموجود في الطعام الذي يُقدَّم لهم ، وهم في جهنم يعذبون بالعذاب الأليم ، بأنواعه: الحسي ، والروحي ، والجسمي ، والفكري. ونسأل الله العافية.

---

(١) الأنكال جمع: نِكْل ـ بكسر النون ـ وهو القيد الثقيل الذي تُقَيَّد به الرجلين . وأما الأغلال فهي: قَيْد الأعناق. فَيُقيد الكافر في رجليه ، ويغل في عنقه.
وقال بعض السلف: وهذه الأنكال تمنع صاحبها من الحركة ، بل إذا أراد الحركة أخذته فسفلته لشدة ثقلها.

وإذا تساءل الإنسان: متى هذا؟.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: ويكون هذا العذاب للكافر يوم القيامة، الذي فيه ترجف الأرض رجفة عظيمة شديدة، حتى إنّ الجبال ترتجف من شدتها ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: وصارت رمالاً سائلة من شِدَّة الرجفة التي أصابتها.

وهذا يدل على أَنّ قِوام كل شيء وقوته إنما هي بالله تعالى، خالقها ومقيمها.

فهو القَيُّوْم الذي قامت وتقوم به الأشياء، وإذا شاء سَلَبها ما خصها به، كما في الجبال التي يَسلبها الله تعالى صلابتها وقساوتها، فتصير رملاً سائلاً خفيفاً تَعبث به الرياح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنَّ أمركم أيها العباد غير متروك، بل هناك الشاهد الذي سيشهد عليكم، فمن آمن يَشهد له بالإيمان، ومن كفر يشهد عليه بالكفر.

وهذا الرسول الشاهد على الأمة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا﴾ أي: عظيماً، وهذا التنكير للتفخيم، كما هو معروف في فَنِّ البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أي: شاهداً عليه وعلى قومه ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ وفي هذا تهديدٌ وإنذارٌ لهذه الأمة إنْ هي عَصَت رسولها صلى الله عليه وآله وسلم، فَسَيَلْحق بها العذاب كما لحق بالأمم قبلها التي عَصت رسلها، ومنهم فرعون وقومه.

لكنَّ الله تعالى رحمة بهذه الأمة المحمدية، وإكراماً لرسولها

صلى الله عليه وآله وسلم ، وَعَدَ حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ لا يُهلكم بعذاب عامٍّ يستأصلهم ، بل قد يَنزل عليهم عذاب جزئي في بعض النواحي دون بعضها وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ أي: شديداً ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ﴾ أي: مطر غزير ﴿فَطَلّٞ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: مطر خفيف.

وقد خص سبحانه ذكر فرعون في الآية دون غيره من الكفرة ، ليُحَذِّر ويهدد كفار قريش الذين تربَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهم ، ونشأ بينهم ، وَهُم يعرفون فيه الصدق والأمانة ، والعفة والنزاهة والكرامة ، فَما بالهم لَمّا بلغ الأربعين ، ونبأه الله تعالى ، وأرسله إليهم راحوا يُنكرون رسالته ويُعرضون عنه ، ويزهدون فيه ، ويقولون: لو أراد أَنْ يرسل رسولاً لأرسل ملكاً ، كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

وقالوا فيما قالوا كما أخبر سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ أي: من مكة أو الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ وقد نَزل على يتيم أبي طالب صلى الله عليه وآله وسلم كما زعموا ، وقد رد الله عليهم ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ التي من أعظمها إرسال الرسل والشرائع على الأمم ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: إنَّ أمر الرزق في الدنيا؛ وقسمته بين العباد ليس موكولاً إليهم ، فما بالهم يُريدون أن يتحكموا في رحمة الله بعباده بإرسال الرسول إليهم ، صلى الله عليه وآله وسلم؟؟!!.

وقد ذكر سبحانه في هذه الآية فرعون ، لأنّ موسىٰ عليه الصلاة

والسلام قد تربى أيضاً في قصر فرعون ثم تركهم ، وعاد إليهم بعد سنين ، وقد نبأه الله تعالى وأرسله إليهم ، فراح فرعون يُنكر عليه ، وَيُعرض عنه ، كما أخبر سبحانه: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨] أي: وجئت الآن تدعوني إلى الله تعالى؟!.

وهذا شأن كثير من جهال الناس ، أن يزهدوا في علماء بلدهم ، أو أوليائهم ، أو صالحيهم ، أَوْ أَنْ يزهدوا في علماء أرحامهم ، وأقاربهم ، وجيرانهم ، أو أهل حَيِّهم ، جاء في الحديث ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أزهد الناس في العالِم أهله وجيرانه» رواه أبو نعيم في (الحلية) عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وابن عدي في (الكامل) عن جابر رضي الله عنه.

لكنهم لو أنصفوا وتعقلوا لاعترفوا بفضل كل ذي فضل ، لكنّ وقوفهم مع حجاب القرابة أو المعرفة أو الجوار يَحُوْل بينهم وبين الاعتراف بالحق.

ولذلك خاطب الله تعالى هذه الأمة بقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ أي: فاتقوا الله وآمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وإن كان قد نشأ بينكم ، لكن الله تعالى فَضّله ونبأه وأرسله إليكم ، فلا تُنكروا عليه ذلك ، كما أنكر فرعون وقومه على موسىٰ عليه السلام الذي تربىٰ بينهم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ أي: فكيف تَتَوَقّون عذاب يوم القيامة إن أنتم كفرتم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟.

قوله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾.

﴿بِهِۦ﴾ بمعنى: فِيْه، أي: إن السماء وضخامتها وعظمة ما فيها من أَجرام، كل ذلك يتشقق ويتهدم في ذلك اليوم، فكيف تَتَوقون عذاب ذلك اليوم العظيم؟!.

نعم لا يَقيكم عذاب ذلك اليوم إلا الإيمان والتقوى.

أو أن المعنى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بسبب هول ذلك اليوم وشدته انفطرت السماء، فاحذر أيها الإنسان هَوْلَ ذلك اليوم الذي انشقت السماء مِنْ شدته، وَخُذ وقايتك من كربه وعذابه، ذلك بأن تُؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبما جاء به: قلباً وقولاً وعملاً.

قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: فلا تَعجب من ذلك، ولا تستبعده على قدرة الله تعالى، فإنَّ ما وعد الله به ناجز لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ وَلم يقل سيفعل، ليؤكد تحقق وقوعه، وكأنَّ الأمر قد حصل، فليتصور الإنسان ذلك، وليحدد موقفه منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فاتخذ لك طريقاً موصلاً إلى الله تعالى، وهو طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تنال الأمان.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: تذكرة للعباد يُذَكِّرهم الله تعالى بها ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً يسلكه ليقربه إلى الله تعالى، وَمَنْ سلك الطريق المقرب إلى الله تعالى أوصله الله تعالى، لأنه سبحانه يُقْبِلُ على مَنْ أَقْبَلَ عليه.

وهذا الطريق الموصل إلى الله تعالى، هو الذي جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ أي: وقل لهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وَمَنِ اتَّبع العلماء العاملين، والأئمة المحمديين رضي الله عنهم فقد اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم مقتدون به، وهو إمامهم، وهم مُبَلِّغون عَنه، فَمَنِ اتَّبعهم فقد اقتدى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٞۖ﴾ أي: وسوف يَذْكرها الله تعالى في الآخرة، وَسَوف يوقفكم ويسألكم هل تَذَكَّرْتم بما ذَكَّرْتُكم به في الدنيا، أم تناسيتم وأهملتم؟.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ ولا يَتَّخِذُ سبيلاً موصلاً إلى ربه إلا العاقل، الذي نظر في عواقب الأمور، وأخذ حذره ووقايته، بأن آمن واتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما الكافر فهو صاحب عقل دنيوي، صرفه في تحصيل شهواته واتباع أهوائه، ولم يَسْتعد أو يكترث بما سيجري عليه، كمن رأى السقف بدأ يَتَشَقَّقُ ولم يَفِرَّ منه، بل قال: لَمّا يهبط السقف فسوف أفر، فلما هبط السقف أخذ به. فأهل الإيمان هم العقلاء على الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: وهذه التذكرة يتذكر بها العقلاء، وهم أهل الإيمان الذين ينتفعون بتذكير الله ومواعظه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وأهل الإيمان هم العقلاء على الحقيقة، لأنهم تعقلوا فيما ذَكَّرهم به الله، فصدقوا وآمنوا، وأما الكافرون المعرضون فهم أصحاب عقول حيوانية شهوانية.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء تذكر واتعظ فسلك طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واتبعه، واهتدى بهديه: عقيدة، وقولاً، وعملاً، وخُلُقاً وأدباً، حتى يدخل في أمان الله تعالى، وينال سعادة الدنيا والآخرة.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] أي: فَمَنِ اتَّبع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في كل ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد سلك الطريق الموصل إلى الله تعالى، وقد قال سبحانه في الحديث القدسي: «مَنْ أقبل إليَّ تلقيته من بعيد» وهذا إذا كان مُخلصاً في عبادته لله تعالى، ومقصوده رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ تنبيه للإنسان أن يسلك طريق ربه متحققاً بعبوديته له سبحانه، أي: أَنْ يكون الذل والانكسار صفته الملازمة له، في سَيْرِه وسلوكه إلى الله تعالى، وأَنْ يخلع ما عليه من صفات الأنانية والكبر، والترفع والتعاظم، لأن العظمة والعز والكبرياء من صفات الله تعالى، فقد

قال سبحانه في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري ـ وفي رواية: «العز إزاري» ـ فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» كما جاء في (سنن) أبي داود وغيره(١).

وذلك لأن صفاته وكمالاته سبحانه ذاتية له غير مكتسبة، وأما صفات الكمال لدى العبد فهي بخلق الله تعالى وفضله عليه، فلا حق له أن يتكبر ويتفاخر بنفسه، بل عليه أن يُسْند جميع ما به من فضل ونِعَمٍ وكمال إلى الله تعالى الذي مَنّ عليه، وَتَفَضَّل عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ومن العباد مَنْ يَقِفُ مع نفسه في عباداته لله تعالى، ويرى لنفسه الفضل على غيره، وأنه هو العابد الذي يقوم الليل ويصوم النهار، وله من الأوراد والأذكار ما له، فهو بذلك محجوب عن الوصول إلى الله تعالى، حَجَبته نفسه، وَعُجْبُهُ عن الترقي في مقامات القرب من الله تعالى.

وفي هذا المعنى قال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه: سلكت الطرق إلى الله تعالى فوجدتها ملأىٰ. أي: فهناك الكثير مِمَّنْ يقوم الليل، والكثير ممن يصوم النهار، والكثير ممن يلزم الأوراد والأذكار وهكذا، لكن وقوف هؤلاء مع النفس أو العجب بما يفعلون كان حجاباً مانعاً لهم عن الوصول إلى الله تعالى.

قال أبو يزيد رضي الله عنه: فقلت: يا ربِّ بِمَ أتقرب إليك؟.

قال: يا أبا يزيد تَقَرب إليَّ بما لَيْس فِيَّ. أي: بصفة ليست لي، بل هي للعبد، وهي: الذل والانكسار.

---

(١) أبو داود في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر / ٤٠٩٠/ (٤/ ٣٥٠) وابن ماجه في كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر / ٤١٧٤/ (٢/ ١٣٩٧).

قال أبو يزيد رضي الله عنه: فَسَلَكْتُ طريق الذل والانكسار فوصلت إلى الله تعالى ، وتركت الناس على الأبواب.

وعلى السالك طريق الله تعالى أن لا يكون هَمُّه نيل المكاشفات وخوارق العادات ، بل أَنْ يكون مُخلصاً لله تعالى في عباداته ، ومقصوده رضوان الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وَيَكفيه بذلك شرفاً وكرامةً ، وإنْ أَجرى الله على يده خوارق عادات؛ أو أطلعه على بَعْضٍ من المغيبات فلا يقف عندها ، ولا ينشغل بها عن متابعة سيره وعبادته لله تعالى ، بل يجب أن يكون هَمُّهُ الأكبر رضوان الله تعالى ، والفوز بقربه سبحانه.

ومن طلب الولاية لكشف أسرار الناس ، والاطلاع على ما في ضمائرهم: ابتلاه الله تعالى وامتحنه بذلك ، لأَنَّ الله الغفور الرحيم؛ قد ستر عباده ، فما لِهذا راح يَطْلب وسيلة لافتضاحهم وكشف أسرارهم؟!.

وَمِنْ صفات الولي التيسير على عباد الله تعالى ، وتبشيرهم والرحمة بهم ، والنصح لهم والدعاء لهم ، عملاً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَسِّرُوا ولا تعسروا ، وَبَشِّروا ولا تنفروا» رواه البخاري(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ولك أيها المؤمن السالك طريق الله تعالى؛ لك في سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُسوة حسنة ، فواجِبٌ عليك أن تقتدي به صلى الله عليه وآله وسلم.

فلما عُرِجَ به صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات السبع ،

---

(١) في كتاب العلم ، باب ما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يَتَخَوَّلُهُمْ بالموعظة /٦٩/ (١/١٦٣).

وإلى ما فوقها من سدرة المنتهى وجنة المأوى ، لم يَشغله شيء من ذلك كله عن مقصوده الأول ، وغاية مطلوبه ، وهو الله تعالى ، ومناجاته ، ورؤيته سبحانه ، ولهذا قال تعالى في سورة النجم التي ذكر بها خبر المعراج : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم : ٤٢] فلم تكن غايته صلى الله عليه وآله وسلم ولا منتهى رغبته إلا الله تعالى ، فَمَنْ كان صادقاً في سَيره إلى الله تعالى فليتبع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي لم يقف مع شيء دون الله تعالى ، ومع ذلك أعطاه الله تعالى كل شيء .

وفي الحديث القدسي يقول سبحانه : «مَنْ أقبل إليَّ تلقيته من بعيد ، وَمَن أراد مُرادي أعطيته فوق المزيد ، وَمَن تَصَرَّف بحولي وقوتي أَلَنْتُ له الحديد» .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي : لا يتخذ سبيلاً إلى حظ نفسه أو مراد نفسه ، بل يتخذ سبيلاً إلى ربه ، متحققاً بالعبودية له سبحانه ، وقد قال سبحانه : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء : ١٧٢] أي : لأنهم كلما ازدادوا معرفة بالله ازدادوا خشية له ، وذُلًّا وعبودية له سبحانه ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في وصف سيدنا جبريل لما رآه في مقامه عند سدرة المنتهى : «كالحلس البالي من خشية الله جل وعلا»[١] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها ، عن قيام

---

(١) كما رواه الطبراني في (الأوسط) عن سيدنا جابر رضي الله عنه (مجمع الزوائد) (١/ ٧٨) .

النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: لما أنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقام أصحابه حولاً كاملاً ـ أي: على هذه المقادير التي ذكرها الله تعالى في الآية، وهي: النصف مع الزيادة، أو أقل من النصف إلى الثلث ـ وأمسك سبحانه آخر السورة عنده.

وبعد حول ـ وفي رواية: بعد ثماني عشر شهراً، وفي بعض الروايات: بعد حولين ـ أنزل سبحانه قوله: ﴿ ۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ وفيها شهادة من الله تعالى على قيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَمَنْ معه اتباعاً له صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾، ﴿ مِّنَ ﴾ في الآية للبيان، وليست للتبعيض، والمعنى: وطائفة وهم الذين آمنوا معك، وذلك لاعتبار أن الأمر فرض، وكل الصحابة قاموا به.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ أي: ما بين زيادة ونقص، فإذا طال الليل قصر النهار، وإذا طال النهار قصر الليل، وهو سبحانه أعلم بمقاديرها ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ ﴾ أي: تُحصوا هذا التقدير ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ ونسخ الله بذلك فرضية قيام الليل، وبقيت على وجه الاستحباب والتطوع.

وقوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ ﴾ أي: تُحصوا هذا التقدير الذي فرضه الله عليكم من قيام الليل، وذلك لئلا يقعوا في الحرج؛ لأنّ أحدهم كان لا ينام الليل أبداً حتى يُحقق قيام ثلثيه أو نصفه أو ثلثه.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: رَجَع إليكم بالتخفيف من فرضية قيام الليل.

والتوبة: هي الرجوع، فيقال: تاب الله على فلان أي: رجع إليه بالمغفرة لذنبه.

ولَمّا لم يكن قد صدر من الصحابة رضي الله عنهم ذنب، فكان قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خَفَّفَ عنكم تلك الفريضة المعينة بالمقادير المذكورة، وقال لهم: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: صَلُّوا ما تيسر لكم من الليل.

وقد أطلق سبحانه القرآن وأراد الصلاة، لأنّه قد يُطلق عليها بعض أركانها أو أبعاضها؛ كما جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم، وأطلق على الصلاة: الركوع، وأحياناً السجود، وأحياناً التسبيح أو القراءة.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية نسخ الله الفريضة وجعل قيام الليل تطوعاً.

إلا أَنَّ أكثر العلماء على أنه بقي فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون أمته.

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾: أي: من القرآن. والمعنى: فاقرؤوا في تهجدكم ما تيسر منه، لأن الفريضة كانت بقيام النصف أو الثلث أو الثلثين، ولا بد من إطالة القراءة في ذلك حتى يستغرق تلك المدة من الليل، فجاء الأمر في الآية بقراءة ما تيسر ـ أي: ولو كان قليلاً ـ ونسخت فريضة التطويل من القراءة في الصلاة.

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وقد فَرض الله تعالى الصلوات الخمس في اليوم والليلة ليلة الإسراء والمعراج، بعد أن نسخ فريضة قيام الليل عن الأُمَّة.

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وقد فُرضت الزكاة في المال بمقاديرها المعروفة في المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ولكن أصل الزكاة فُرض في مكة المكرمة، وهذه السورة مكية النزول، إذ فَرَض سبحانه على الأغنياء أن ينفقوا شيئاً من أموالهم، إلى أن نزل بيان مقاديرها بعد الهجرة.

وقد جاء ذِكر الزكاة مَقروناً بالصلاة في كثير من الآيات القرآنية وذلك لأهميتها في دين الإسلام.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فالصلاة عبادة بدنية، والزكاة عبادة مالية، وإنَّ أعزَّ شيء على الإنسان هو نفْسه والنَّفيس عنده، فجاء الأمر بعبادة الله تعالى مُتَعَلِّقاً بالنَّفْس والنَّفيس عنده، أمَّا بالنفس فهي أَنْ يصرِف شيئاً من قوَّته وطاقته البدنية التي أعطاه الله إياها، أن يصرف ذلك بالصلاة لله تعالى، وأن يصطَبِر على أداء الصلاة؛ وإنْ كانت نفسه تأمره بالتَّعجُّل فيها أو الكسل في أدائها، ولا بد منها على الإنسان في كل أحواله.

وأما بذل النفيس عند الإنسان في عبادة الله تعالى فهو بإنفاق شيء من ماله، معلوم مقداره، على الفقراء والمساكين، ويكون ذلك بأداء فريضة الزكاة كما أوجبها وبيَّنَهَا سبحانه.

ومما تقدم تعرف فضل الجهاد عند الله تعالى ، الذي جاء الأمر به ببذل النفس والنفيس: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [الحجرات: ١٥] ، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ومن وجبت عليه الزكاة ومنعها فَيُخشى عليه أن يموت منافقاً أو كافراً ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في المنافقين: «ظَهَرَتْ لهم الصلاة فقَبِلوها ، وخفيت لهم الزكاة فأكلوها ، أولئك هم المنافقون»[1] أي: إنهم أُمِرُوا بالصلاة مع الناس جماعة ففعلوا ليراهم الناس ، وَمَنعوا الزكاة وأكلوا حق الفقراء لأنّ الزكاة خَفِيَّةٌ عن الناس ، لا تظهر لهم إنْ هم أَدَّوْها أو منعوها.

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الزكاة قنطرة الإسلام»[2] أي: فمن منع الزكاة فقد راح يهدم القنطرة.

وَمَنْ مَنَعَ أداء زكاة ماله وهو يصلي ، فقد تشبه باليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] ، فهؤلاء أخذوا من

---

(١) رواه البزار عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (مجمع الزوائد) (٣/ ٦٤).

(٢) رواه الطبراني في (الكبير والأوسط) ، عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه (مجمع الزوائد) (٣/ ٦٢).

الكتاب ما وافق هواهم وعملوا به، وتركوا ما فيه مشقة على أنفسهم ومخالفة لأهوائهم، فلا يقال عنهم مؤمنون متبعون لشرع الله، بل هُم متبعون لهوى نفوسهم وعقولهم.

وقد جاء الوعيد الشديد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لمانع الزكاة، وَيبدأ العذاب به عند الموت، فتشتد عليه سكرات الموت، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ليؤدي جميع ما عليه، حتى إذا وُضِعَ في قبره تمثل له ماله بصورة ثعبان كبير، يُطَوِّقُ رقبته ويلدغه ويقول له: أنا كنزك أنا مالك، أي: فأنت الذي تعبت وشقيت في الدنيا في تحصيلي، وبخلت فِيَّ، فكيف أتركك؟! فأنا مالك، وأنا كنزك الذي كنزته؛ ولم تؤد حق الله فيه.

وهكذا تشتد عليه الكربات، وتتوالى عليه الأهوال في برازخ الآخرة حتى ينتهي إلى جهنم. ونسأل الله العافية.

والأصل في كلمة الزكاة أنها تعني: الطهارة، ومنه قوله تعالى في سيدنا يحيى عليه السلام: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣] أي: وآتيناه من لَدُنَّا حَناناً خاصاً على والديه، وعلى خلق الله تعالى كلهم، ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: وطهارة في نفسه، فهو سبحانه زَكّىٰ نَفْس يحيى عليه السلام، وطهَّرها وقدَّسها وطيبها.

وإنَّ أزكى نفوس العالمين وأطهرها هي نفس سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فنفسه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم طاهرة مُطَهِّرَةٌ لغيرها، وطيبة مُطَيِّبة لغيرها، ولذلك كان من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالمين أنه جاء يزكيهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فجاء صلى الله عليه وآله وسلم يُزكي نفوس العالمين كلّهم، مِنْ أهل زمنه وَمَنْ بعدهم إلى يوم الدين. أي: يطهرها ويطيبها، ويرفع من شأنها في مقامات القرب الإلَهي، فما أعظم طهارة وطِيْبِ وقداسة نفسه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أرسله الله تعالى للعالمين مزكياً!!.

نعم لا يدرك حد ذلك إلا الله الذي تولاه، وأفاض عليه الكمالات، ولذلك ناداه بقوله تعالى: ﴿طه﴾ أي: يا أيها الطيب الطاهر الهادي الأمين.

وتدل كلمة الزكاة أيضاً على النماء، ولذلك فإنَّ الزكاة المالية تَطْهِيْرٌ للمال مِنَ الدَّنس وتنمية له، فالمال المُزَكّى مال طاهر، أما غير المزكى فهو دنس، لأنّ فيه حقوق الفقراء، ويجعل سبحانه في المال المزكى البركة والنماء، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ما نقص مال عبد من صدقة»[1] أي: بل بارك الله فيه وَنَمَّاه، وإن العبرة في الشيء البركة فيه، لاكثرة عدده: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

كما أَنَّ الزكاة طهارة لصاحبها من صفة الشح والبخل، ومانع

---

(١) كما جاء هذا في حديث طويل رواه الترمذي في كتاب الزهد /٢٣٢٦/ (٧/ ٨١) عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه.

الزكاة بخيل ولو أنفق في ملذاته وشهواته؛ لأنَّ نفسه تبخل في أداء حقوق الفقراء.

وَمِنْ منافع الزكاة صلاح المجتمع، ونشر المحبة والمودة فيما بين المؤمنين، وَمَنْ قَصَّر في دفع زكاة ماله فقد ظلم نفسه، وأغضب ربه، ومنع الفقير حقه، وكان سبباً في إضرار المجتمع وفساده، لأنه أناني لا يُحب الخير لغيره، بل أكل حَقَّ غيره واعتدى عليه.

وليس للغني فضل أو امتنان على الفقير إنْ هو دفع إليه زكاة ماله، بل هو حَقٌّ واجب عليه، أوجبه الله عليه وقام بأدائه، كما ليس للمَدِين فَضْلٌ وامتنان على الدائن إنْ هو وَفَّاه دَيْنه!! بل عليه أن يَشْكره ويدعُوَ له بأن أعانه وأقرضه قرضاً حسناً.

ولو فُرِضَ أَنَّ الفقراء أجمعوا على أن يتعففوا ولا يقبلوا من الأغنياء زكاة أموالهم، لَكَان لازماً على الأغنياء حينئذ أن يسألوا الفقراء ويرجوهم قَبول زكاة أموالهم، حتى يتخلصوا من حقوقهم عليهم، وتسقط عنهم الزكاة.

ولو أَنَّ أغنياء كل قُطْرٍ أَدَّوا زكاة أموالهم لفقراء ذلك القطر لَسُدَّت حاجات الفقراء، ولما رَأَيت فقيراً مُتقعاً محتاجاً، بل صار مكفِيّاً، لأن الله تعالى جَعل الموازنة المالية في أموال الأغنياء لسد حاجات الفقراء، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي: معلوم نصابه ومقداره ليفي بحاجة الفقراء ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢١ـ ٢٥].

وإذا وُجِدَ في قطر من أقطار المسلمين فقراء غير مكفيين، فهذا دليل على أن أغنياء ذلك القطر قد منعوا زكاة أموالهم، أو وضعوها

في غير مصارفها التي بَيّنها سبحانه في كتابه ، ولذلك كانت وصيته صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، لما أرسله إلى اليمن قاضياً: «اُدعهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله ، فإنْ هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أَنّ الله قَدِ ٱفترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإنْ هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أَنّ الله افترض عليهم صدقة في أموالهم؛ تُؤْخَذُ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» رواه البخاري[(١)] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ وذلك بالتقرب إليه سبحانه بالأعمال الصالحة والأقوال الطيبة ، وقد ندب سبحانه إلى إقراضه ورغب فيه في كثير من الآيات القرآنية ، وَمِنْ ذلك قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: فليتقدم ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وتشمل هذه القربات كل ما زاد على الفرائض؛ مِنْ نوافل الأعمال والأقوال ، لأنّ الفريضة قد جاء الأمر بها بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ولقد ذكر سبحانه كلمة الإقراض في الندب على فعل الطاعات النافلة المُقَرِّبة إلى الله ، حتى يُبَيِّن لك أنها محفوظة عنده سبحانه لا تضيع ، وليبين لك أَنّ إقراضك له لا لأجل أن يَنتفع ، بل لأجل أن ينفعك أنت أيها المُقرِض ، وذلك بأنْ يُضاعف لك ثواب عملك

---

(١) في أول كتاب الزكاة / ١٣٩٥/ (٣/ ٢٦١) ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام / ١٩/ (١/ ١٤٢).

أضعافاً كثيرةً على حسب درجة إخلاصك في العمل ، وإلاّ فهو سبحانه الغني المعطي.

ولقد حَرّم سبحانه الربا على عباده فيما بينهم ، لكنه سبحانه فضلاً منه وكرماً يُضاعف لمن أقرض القرض الحسن أضعافاً كثيرة ، قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؟ [البقرة: ٢٧٦].

والقرض الحسن فيما بين العباد هُو: أَنْ يُقرض الإنسان غيره شيئاً من المال ويسترده منه كما أخذه ، دون أيِّ زيادة عليه ، وأَنْ لا يَمْتَنَّ عليه في إقراضه ، وأَنْ يُنظره إذا كان معسراً ، ولا يغلظ عليه في الطلب ، فكما بدأ قرضه بالحُسن والصدق مع الله تعالى ، فَليخرج في استرداد قرضه بالحسن والصدق أيضاً ، ليتم له ثوابه.

وأما القرض الحسن المراد في الآية : ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾[١] أي: إقراضاً حسناً ، بأن يكون صاحبه مخلصاً صادقاً مع الله تعالى.

وقد يطلق القرض على المقروض ، والمعنى عندئذ: أَنْ يكون الشيء الذي تَقربت به إلى الله تعالى حسناً. أي: حلالاً طيباً.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٢] وغيره ، بيان مضاعفة الله تعالى للحسنات ، فعن أبي عثمان النهدي[٣] رضي الله عنه قال: بَلغني في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله ليعطي العبد المؤمن بالحسنة الواحدة أَلْفَ أَلْفِ حسنة».

قال أبو عثمان رضي الله عنه: فَحَجَجْتُ ذاك العام ، فلقيت

---

(١) وقد يراد من القرض في الآية المصدر بمعنى الإقراض ، أو يطلق على المقروض بمعنى المفعول.

(٢) (المسند) (٢/٢٩٦) وعزاه في (الدر المنثور) إلى ابن أبي شيبة وابن جرير.

(٣) من كبار التابعين.

أبا هريرة رضي الله عنه ، فقلت له : بلغني عنك هذا الحديث ، أهكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ .

فقال أبو هريرة رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «إن الله تعالى ليعطي العبد المؤمن بالحسنة الواحدة أَلْفي أَلْفِ حسنة» .

وقال له : وأنت تعجب من ذلك؟! . لا تعجب ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] أي : وهذا من جملة المضاعفات .

واعلم أن المضاعفة تكون على حسب درجة الإخلاص لله في العمل ، والصدق مع الله فيه .

وقد روى الطبراني بسنده[(١)] ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ جاء أبو الدحداح الصحابي الأنصاري رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إنّ الله تعالى لَيُريد منّا القرض الحسن؟ .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «نعم يا أبا الدحداح» .

فقال أبو الدحداح رضي الله عنه : يا رسول الله ناولني يدك .

فمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة ، فأخذها أبو الدحداح رضي الله عنه بكَفَّيْه معاهداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يا رسول الله ، قد أقرضت ربي حائطي ـ أي :

---

(١) (مجمع الزوائد) (٦/ ٣٢١ و٩/ ٣٢٤) .

بستاني ـ وفيه ستمائة نخلة. وجعله وقفاً على الفقراء كالصدقة الجارية.

ثم مضى إلى الحائط وكانت فيه زوجته وعياله، فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك.

قال: اخرجي من الحائط فإني قد أقرضته لربي.

فخرجت ممتثلة أمره رضي الله عنه وعنها، وعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجمعين.

وَمِنْ جملة القرض الحسن أَنْ يكون المَقروض ـ وهو الشيء الذي تَتصدق به ـ أَنْ يكون حسناً طَيِّباً محبوباً عندك، ترتضيه لنفسك، إذ كيف تتقرب إلى الله تعالى بأَنْ تَتَصدق بالخبيث من مالك، وبما لا ترتضيه لنفسك، فليمنعك إيمانك وحياؤك من الله مِنْ فعل ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: لا تتقصدوا الإنفاق من الخبيث ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ﴾ أي: والحال لو أَنَّه عُرض عليكم لما أخذتموه إلا عن خجل وإغماض ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] غني عنكم وعن صدقاتكم، ولكنه سبحانه أمركم بذلك لمنفعتكم وإسعادكم، وهو سبحانه غَنِيٌّ حَمِيْدٌ، أي: جواد كريم، ينفق على عباده وَيُحْمَدُ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: ولو كان هذا الخير قليلاً جداً، لأن ﴿مِّنْ﴾ للتبعيض.

قوله تعالى: ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أي: تجدوه خيراً مما قدمتم، بمضاعفة ثوابه، وعظيم أجره، وَيَرى المؤمن عمله الحسن عياناً في الآخرة، بصُور نورانية مُبَشِّرة، كما يرى الكافر أعماله بِصُور ظلمانية مخيفة منفرة.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ فيجد المؤمن قرضه الحسن الذي تقرب بـه إلى الله تعالى في الدنيا؛ يجده في الآخـرة أعظم مما تقرب به، وقد بَيَّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ تصدق بعدل تمرة مِنْ كسب طيب. ولا يقبل الله إلا الطيب ـ أي: الحلال ـ فإنّ الله يتقبلها بيمينـه، ثم يُربيها ـ أي: تنمو وتكبـر ـ لصاحبهـا كمـا يُـربي أحدكم فَـلُـوَّه، حتى تكون مثـل الجبل»(١).

وهذا قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ أي: حاضراً يراه صاحبه، وذلك لتمثل الأعمال الصالحة بأمثلة نورانية، والأعمال السيئة بأمثلة ظلمانية، يتمنى صاحبها أَنْ تَبْتَعِد عنه، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ أي: تجده أيضاً لكن ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣١] لكن عمل الإنسان لا يفارقه أبداً.

فاعلم أيها المؤمن أَنّ كل ما تعمله في الدنيا ستجده في الآخرة عياناً، وستجد ثوابه إنْ كان خيراً، وستجد عقابه إنْ كان شراً ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب / ١٤١٠/ (٣/ ٢٧٨) ومسلم في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب / ١٠١٤/ (٢/ ١٠٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يَـرَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ﴾ أي: سَعْيُ الإنسان وعمله في الدنيا ﴿سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: ٤٠ـ٤١].

وقوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا وَأَعۡظَمَ أَجۡرًاۚ﴾ أي: يضاعفه الله تعالى لكم، ويثيبكم عليه دخول الجنة، التي هي دار ضيافة الرحمن، التي يترقى فيها المؤمن في المقام والنعيم، وقد قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٣٠].

وليس لزيادة فضله سبحانه حَدٌّ وانتهاء، ولذلك فإنَّ نعيم أهل الجنة لا انتهاء له ولا فناء. اللهم اجعلنا منهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ وقد جاء الأمر بالاستغفار بعد الفراغ من الأعمال التعبدية التي فرضها الله سبحانه، والتي ندب إليها ورغب فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾.

فاعلم أنَّ هذا الاستغفار بعد العمل الصالح لا بعد العمل السيء كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

وأما الاستغفار بعد العمل الصالح فهو ما يقتضيه عجز المؤمن العابد عن القيام بأداء حق الله تعالى من العبادة والطاعة، ولزوم العابد مقام التوبة مَهْمَا عَبَدَ الله تعالى وتقرب إليه، وقد يكون لتلافي ما صدر من العبد في عبادته من غَفَلات وهفوات.

ولقد أمر سبحانه عباده الذين حَجُّوا بَيْتَهُ أن يستغفروه بعد الفراغ

من إفاضتهم من عرفات ، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما روى مسلم في صحيحه(١) ـ إذا سَلّم من الصلاة استغفر الله ثلاث مرات ، مع أَنّ صلاته صلى الله عليه وآله وسلم هي الصلاة التي يَعجز أهل السماء والأرض عن الإتيان بمثلها ، وأفعاله صلى الله عليه وآله وسلم هدي وإرشاد للأمة كلها.

وقال سبحانه: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] أي: وهم الذين مدوا الصلاة من أول الليل إلى وقت السحر ، فلما دخلوا وقت السحر جلسوا يستغفرون الله تعالى. ا هـ كما قاله الحسن البصري رضي الله عنه.

أي: ختموا قيامهم وتهجدهم باستغفار الله تعالى ، وقد قال أنس رضي الله عنه: «أُمِرنا ـ أي: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أَنْ نستغفر بالليل سبعين استغفارة»(٢) أي: أَنْ نختم قيامنا بالاستغفار.

واعلم أَنَّ الاستغفار بعد العمل السيء يكون طلباً للمغفرة من الله تعالى؛ أن يعفو عنه ولا يعاقبه على ذلك الذنب.

وأما الاستغفار بعد الفراغ من العمل الصالح فهو تنبيه المؤمن العابد لأَنْ يكون معترفاً بتقصيره في عبادة الله تعالى ، وعجزه عن

---

(١) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته / ٥٩١/ (٢/ ٧٢٠) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير وابن مَرْدُوْيَهْ.

القيام بأداء حق الله تعالى ، إذْ مهما عَبَدَ المؤمن وعَمِلَ فما قَدَرَ الله حق قدره ، بل هو سبحانه أجلّ وأعظم ، وإنّ الملائكة الذين يَعبدون الله وَيُسبحونه في الليل والنهار ولا يفترون في ذلك ، فإنَّهم يوم القيامة يقولون: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[١] أي: فأنت أجل وأعظم مما أثنينا عليك ، وَسَبَّحْنَاك ، وأنت أكبر مما كَبَّرْنَاك ، وَمِنْ هنا تَفْهم شيئاً من أسرار التكبير في حركات العبادة ، ومنها التنقل في أركان الصلاة حتى يقول العبد بعد سجوده (الله أكبر) أي: وإنْ أَنا سجدت لله لكنه أجل وأعظم من ذلك ، سبحانه وتعالى.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يطيل سجوده في تهجده ثم يقول: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك ، أَنْتَ كما أثنيت على نفسك»[٢] وهذا مقتضى وقوف العبد في مقام العبودية ، مع الإجلال والتعظيم والتكبير لمقام الربوبية.

ولهذا كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيد العالمين ، وأحمد الحامدين لرب العالمين ، والذي كان ولا يزال يَحمد الله بمحامد ويُثني عليه بما لا يقدر عليه أحد من خلق الله تعالى غيره ، وَمَعَ ذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» أي: أنت يا رب كما أثنيتُ ، وفوق ما أثنيتُ ، وأجل وأعظم مما أثنيتُ ،

---

(١) طرف من حديث طويل ، رواه الطبراني في (الكبير) عن سيدنا جابر رضي الله عنه (مجمع الزوائد) (١/ ٥١).

(٢) الوقف في هذا الدعاء عند كلمة: «عليك» ثم تكمل: «أنت كما أثنيت على نفسك». وقد روى هذا الحديث مسلم في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود / ٤٨٦/ (٢/ ٦٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يستطيع أحدٌ مِنْ خلقك أن يُحصي ثناء عليك ، بل إنّ الثناء المحيط للثناء عليك هو ثناؤك أَنت يا رب على نفسك .

ويرحم الله القائل:

إذا نحن أثنينا عيك بصالح ... فأنت الذي نثني وفوق الذي نثني

وذلك لأنّ الثناء من التثنية . أي : تكرار ذكر المحامد والكمالات والمحاسن ، وطالما أنّ كمالاته ومحاسنه سبحانه لا تتناهى ؛ فمحامده لا تتناهى ، فالثناء عليه لا يُمكن لأحد أَنْ يُحصيه أو يحيط به ، بل هو سبحانه يُثني على نفسه بأسماء وكمالات لا يعلمها أحد من خلقه ، وقد عَلّمنا سبحانه في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، كيف نُثني عليه ، وجاءت نصوص كثيرة في حمده سبحانه والثناء عليه ، لكنَّا وإنْ حَمَدناه بما عَلَّمنا ، وإنْ أَثنينا عليه بما عَلّمنا فإنّه لا يُمكننا أن نُحصي حَمْداً وثناء عليه ، لأنه سبحانه الإلّه الخالق ، الذي لا تتناهى كمالاته ومحاسنه ، ولا يمكن لمخلوق مَحدود أن يُحيط بما لا يتناهى .

وقد عَلّمَ سبحانه أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام صِيَغاً مِنْ محامده والثناء عليه، وَخَصّ أنبياءه بِعلم بعض أسمائه سبحانه، ولم يذكروها للناس لأنّ ذلك مِنْ باب علوم النبوة التي لا يُمكن لغير نبي أَنْ يتحملها أو يُطيقها ، بل إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتفاضلون في العلوم والرتبة والمقامات ، وإنّ أعظمهم وأكرمهم على الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو أعلم خلق الله بالله، وأتقاهم له سبحانه ، وقد عَلَّمه الله تعالى أسماء إلّهية ، ومحامد إلّهية ، وثناءات إلّهية ، وَحَمده صلى الله عليه وآله

وسلم بها ، وأثنى عليه بها ، ولا يُمكن لأحد غيره أن يعلمها .

ويفهم هذا كله من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب»[١] .

ومن قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «أو عَلّمته أحداً من خلقك» تفهم مدى سعة علومه صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعرفته بالله تعالى .

ونسأل الله تعالى أن يفيض علينا من أسراره وأنواره صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا بمقتضى العجز عن القيام بحقه سبحانه حق القيام ، من العبادة والحمد والثناء ، وبمقتضى مقام الاعتراف بالتقصير مع الله تعالى ، والتزام مقام العبودية ، كل ذلك يُلزِم العبد العابد العارف أَن يستغفر ربه بعد كل عبادة وطاعة ، وهو سبحانه الغفور الرحيم ، الذي يتلافىٰ تقصير عبده المؤمن العارف ، ويتجاوز عن مُؤاخذته على غفلاته وهفواته ، ويرحمه ويكرمه بدخول الجنة .

اللهم اغفر لنا وارحمنا ، إنّك أنت الغفور الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) كما جاء هذا في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في (مسنده) (١/ ٣٩١ ـ ٤٥٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

درس حول تفسير قوله تعالى من سورة المدثر ﷺ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾.

إنَّ أول سورة المُدثر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ هي ثاني ما نزل من القرآن الكريم، بعد نزول الآيات الخمس الأولى من سورة العَلق.

وبعد أن نزلت هذه الآيات الخمس من سورة العَلق فَتَر **الوحي القرآني فقط** عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مدَّة ثلاث سنين، أو سنتين ونصف؛ على خلاف بين العلماء، والأخير هو الأرجح. وبعد هذه الفترة نزلت أول سورة المدثر، ولم ينقطع الوحي النبوي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الفترة، وكان ذلك بواسطة إسرافيل عليه الصلاة والسلام، كما روى أحمد في (تاريخه) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قُرِن به إسرافيل عليه السلام في فترة الوحي فكان يعلِّمه الكلمة والشيء[1] ـ أي: الأمور الجزئية ـ.

---

(١) كما في (فتح الباري) (١/ ٢٧).

أمَّا الوحي القرآني على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام ، فنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أول ما نزل بأوائل سورة العلق ، ثمَّ أوائل سورة المدثر بعد أن فَـتَـرَ ، ثم بسورة: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ أو الفاتحة ـ على خلاف بين العلماء ـ ثم توالى نزول القرآن على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتتابع آيات بعد آيات .

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[(١)] ، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جاورت بحراء ، فلما قَضيت جِوَاري ، هَبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أَر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أَر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أَر شيئاً ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء ـ أي: نزل عَلَيَّ بأول سورة العلق ـ جالس على كرسيٍّ بين السماء والأرض» ـ أي: تراءى له جبريل عليه السلام بالمَلَكِيَّةِ الجبريلية ، على الحقيقة الجبريلية ـ قال: «فرجعت إلى أهلي فقلت: دَثِّـرُوني . فدَثَّرُوني» فأنزل الله تعالى هذه الآيات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ .

ولقد كان جبريل عليه السلام يَنزل بالوحي القرآني على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع بقائه على حقيقته الملكية

---

(١) البخاري في كتاب التفسير ، سورة المدثر / ٤٩٢٢/ (٦٧٦٨) ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم / ٢٥٧/ (٣١٨/١).

الجبريلية ، ويتطور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطور الملكي ويأخذ عنه.

أما الوحي النبوي وغيره ، فكان جبريل عليه السلام يتمثل أحياناً بصورة رجل حَسن الوجه نظيف الثياب ، ويأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويبلغه ما أمره الله تعالى، وأحياناً كان يأتي بصورة الصحابي دِحْيَة بن خليفة الكلبي(١) رضي الله عنه، وكان حَسَنَ السَّمْت والهيئة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وأصل الكلمة: متدثر ، وجرى إدغام التاء دالاً ، وقد ناداه الله تعالى بالحالة التي كان عليها صلى الله عليه وآله وسلم ملاطفة له ومؤانسة.

وإنّ عادة الله تعالى أن يُخاطب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بألقاب التشريف والتكريم ، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ أو يخاطبه بالحالة التي هو عليها صلى الله عليه وآله وسلم مؤانسة له، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

وهذا من تَفَضُّل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتكريمه على غيره من الأنبياء والرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، فلم يخاطبه أو يناده باسمه؛ كما خاطب ونادى غيره من الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ ، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ، بل ناداه وخاطبه بمقامه وصفاته وأحواله صلى الله عليه وآله وسلم ، تكريماً له عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان

---

(١) نسبة إلى قبيلته.

متدثراً من حيث الظاهر بالدِّثار المعروف ـ وهو ما يجعله الإنسان عليه إذا اضطجع ـ لكنّه صلى الله عليه وآله وسلم في الوقت نفسه متدثر بأثواب النبوة ، لأنّ هناك الدِّثار الجسماني الظاهر ، وهناك الدثار النبوي ، فجاء نداء الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أي: بما أنت متدثر ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أي: لأنك نبي الله تعالى ، ورسول الله تعالى. صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ وَلَمْ يأمره سبحانه أن يُبَشِّر مع أنه أرسله بشيراً ونذيراً صلى الله عليه وآله وسلم ، نعم أمره أولاً بإنذار الناس ، لأنهم كانوا في جاهلية وضلال مبين ، وحالهم يحتاج إلى إنذار ، أي: إلى تخويف من عاقبة أمرهم ، فإذا ارتدعوا وآمنوا بَشَّرهم.

قوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ ولهذا الإنذار وجوه متعددة ، فَأَنْذِرْهم من العذاب القريب ، وأَنْذِرهم مِنْ سوء عواقبهم ، لأنَّ الحالة التي هم عليها من الكفر حالة غير معقولة وغير مقبولة ، بل هي شأن مَن لا يعقل. فأنذرهم أَن يترفعوا بأنفسهم عن مستوى البهائم ، إذ كيف يَتقبل العقل أن يسجد إنسان لصنم صنعه بيديه ، ويتخذه إلَهاً له؟!.

فأين عقل هذا؟ وأين فهمه ؟! وأين تفكيره؟!

ولا يمكن التَّفَاهم معَ مَنْ هذا شأنه ، بل إنَّ الأمر يحتاج إلى إنذار وتخويف ، حتى ينزجر ويرجع عما هو عليه.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: كَبِّره سبحانه عن أن يكون له شركاء تُعبد معه؛ من أصنام وغيرها ، بل هو واحد أحد لا شريك له.

وأما المشركون فكانوا يُكبرون آلهتهم ويعظمونها ، فجاء قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: فهو وحده سبحانه الرب الخالق البارئ ، الذي يُعَظَّم وَيُكَبَّر وَيُقَدَّس وَيُعْبَدُ حقاً.

وإنّ من المقبول لدى العقل السليم؛ أنّه لا يُعبد إلا من كان خالقاً بارئاً رازقاً لعباده ، مُمِدّاً لهم ، مُدَبِّراً لأمورهم ، وهذا هو الله تعالى الذي قال في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] أي: لأنه رَبُّكم الذي خلقكم ، ويربيكم ويمدكم ، ولا رَبَّ لكم سواه: يرزق ويمد ، ويضر وينفع.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: ومهما عَمِل الإنسان وعبد ربه فَيَجِبُ عليه أَنْ يُكبر الله تعالى ، لأنه سبحانه أجل وأكبر مما عرف العبد وَعَبَدَ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: تكبيراً مطلقاً عن الحد والقيد ، كما قال سبحانه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] أي: ومهما عَظَّمْتَهُ سبحانه وكَبَّرْتَه فهو أجل وأكبر ، وله سبحانه الأكبرية المطلقة.

فإذا سجدت لله تعالى عابداً له ، ثم رفعت رأسك فقلت: الله أكبر أي: أنه سبحانه أكبر مما سجدت له وأعظم ، فَمَهْمَا عَظَّمْتَه وكبرته وعبدته سبحانه؛ فَأنت عاجز عن القيام بحقه عليك حَقَّ القيام ، لأنه أكبر مِمّا عَرَفت وَعَظَّمْتَ وعبدت.

ولقد شرع سبحانه تكبيرة الإحرام فرضاً للدخول في الصلاة ، حتى يبقىٰ العبد المصلي ملاحظاً أكبرية الله تعالى المطلقة ، وإذا سها أو غفل عن ذلك جاءت التكبيرات الأخرى أثناء تنقله في أركان

الصلاة تُذكره بذلك ، وترقيه في مشاهدة أكبرية الله تعالى ، وخضوعه وخشوعه له.

وإنَّ مِنْ شأن مَنْ يراقب ويستشعر بقلبه أكبرية الله المطلقة أن يَذل ويخضع له سبحانه ، وأنه العبد الأصغر الأحقر ، الواقف بين يدي من له الأكبرية المطلقة ، في قدرته وعلمه ، وعظمته سبحانه.

وقد ورد أَنّ التكبير مفتاح الصلاة ، وهو مقتضىٰ قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ فلا بد للدخول في الصلاة من ذكر الله تعالى ، وذلك بتكبيره سبحانه ، كما عَلّمنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إذا سجد لله لاحظ أكبرية الله تعالى المطلقة ، وأنه الرب الأكبر الذي يَجِبُ على العبد أَنْ يَذل ويخضع له ، معترفاً بتقصيره في عبادته له.

وإذا وسوس الشيطان للعبد وحدثته نفسه: لِمَ هذا التذلل كله والخضوع لله تعالى؟.

فيقال: إنَّ أداء الحق أمر واجب مقبول معقول ، وما دُمْتَ عبداً لله فواجب عليك أن تقوم بحق الربِّ عليك، وهو عبادته والذل والخضوع له سبحانه، وإذا كنت أيها الإنسان رَبَّ نفسك ـ وأنى لك هذا ؟! ـ فلا تسجد لله تعالى ، ومتى استغنيت عن الله تعالى فلا تعبده؛ وكل ذلك محالٌ في حقك. فأنت عبد مفتقر لله تعالى، اعترفت أَم أَنكرت، وأنت مُفتقر إلى الله تعالى في وجودك ورزقك، وحركات جسمك وأعضائك وذراتك، وجميع ما هنالك، ولو كان لك من أمر الرب شيء فأوجد نفسك على أحسن صورة ، وارزق نفسك كما تُريد ، واحفظ جسمك أن يعتريه المرض والهرم؛ لكن أَنَّىٰ لَك ذلك؛ والعبدية مُلازمة لك ، فاعرف حق الله تعالى

عليك ، وَقُم بعبادته سبحانه كما أمرك ، واعترفْ بتقصيرك في حقه سبحانه؛ مهما عبدته وسجدت له ، وأثنيت عليه وحمدته وكبرته .

وإنّ في تذلل العبد لربه وعبادته له تعززاً به سبحانه ، لأنَّ مَنْ ذَل لله ، وخضع نه سبحانه: قَرَّبه سبحانه ، وأدخله في ظل عزته ، وخلع عليه ثوب كرامته ، فصار عبداً ذليلاً لله عزيزاً به ، وقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فاطر: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِـزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] أي: المتبعين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّه أعظم مَنْ عَبَدَ الله تعالى وتقرب إليه ، فنال أعلى مقامات في العزة الإلٓهية .

قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي: فطهر ثوب جسمك من النجس، ولذلك يَحْرم على العبد أَنْ يَجُرَّ ثوبه على الأرض، تحاشياً عن النجاسات ، وَيُكره تحريماً أَنْ يُرخي العبد ثوبه تحت كعبيه ، وإنّ العمل بالسنة هو تقصير الثوب فوق الكعبين ولو لشيء قليل .

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي: طهر ثوب نفسك من الصفات الذميمة القبيحة ، كالحقد والحسد ، والغِلِّ والعجب ، والتكبر وغيرها .

وانظر في محاسن دين الله تعالى ، الذي أمر بِطَهارة الثياب من الأنجاس ، ونظافة الثياب من الأدناس ، وتخلية النفس عن القبائح والرذائل ، وتحليته بالمكارم والفضائل ، وكثيراً ما كانت العرب تُكَنِّي عن طهارة النفس بطهارة الثوب والذيل ، وَمِن هذا قول القائل:

إذا المـرء لـم يَـدْنَـس مـن اللـؤم عـرضـه
فكـــل رداء يـــرتـــديـــه جميـــل

ولولا مغفرة الله تعالى ـ أي: ستره على عباده لعلهم يرجعون إليه ويتوبون إليه ـ لظهر أثر الدنس في نفس أحدهم واضحاً على جسمه بظلمة وسواد. ونسأل الله العافية من أمراض النفوس والقلوب والأجسام.

وإنَّ أَطهر نفوس العالمين وأزكاها، هي نفس سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي تولى الله تعالى تربيته الخاصة، وَعَناه بعنايته الخاصة، ثم أرسله إلى العالمين كُلِّهم مزكياً هادياً، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] أي: ليطهر نفوسهم وقلوبهم وعقولهم: مِنْ دَنس الشرك، وَدَنَس كل وصف قبيح، وَيُحليهم بالإيمان والكمالات والفضائل.

واعلم أَنَّ أعظم سبب في تطهير النفس مِنْ رعوناتها، وتخليتها عن الأنانية ودعاوى الكبر والعجب هو: كثرة السجود لله تعالى، لأنَّ في السجود تذللاً وخضوعاً لله تعالى وحده، وتحرُّراً عن العبودية للأغيار، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم للصحابي الذي سأله مرافقته في الجنة ـ أي: القرب منه صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»(١) أي: فبكثرة السجود لله تعالى تطهر النفس وتزكو، حتى تصير أهلاً للقرب من حضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن أراد القرب من حضرة الله تعالى، فليكثر أيضاً من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه /٤٨٩/ (٢/٦٣٨) عن سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

السجود لله تعالى ، وفيه يقول سبحانه : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ .

وذلك لأنَّ القرب من حضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو قرب إلى حضرة الله سبحانه وتعالى ، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم أقرب المقربين من ربِّ العالمين ، وهو صاحب مقام الوسيلة الفرداني ، وصاحب المقام المحمود صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ويشمل هذا أَنْ يُطهر الإنسان ثوب عقله وفكره ، فليحفظ فكره عن التجوال فيما حرم الله تعالى ، وليَشغل باله وتفكيره في آيات الله تعالى وآلائه سبحانه ، وليحفظ قلبه عن الضلالات والشبهات والزيغ؛ بكثرة ذكر الله تعالى ، والالتجاء إليه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ بضم راء الرُّجْزَ(١) ، وَهُو كل أمر قبيح . والمعنى : اُهجر كل أمر قبيح وابتعد عنه ، لأنّ هجر الشيء أَنْ يَجْعله الإنسان في مكان ويجعل نفسه في مكان آخر .

فينبغي على المؤمن أَنْ يتنزه عن فعل السيئات والمعاصي ، وأن يهجرها ويتباعد عنها أيضاً ، وذلك ببغضها والنفور منها ، لأنّها أشياء قبيحة منكرة في نظر الشرع ، فلتكن في نظره أيضاً قبيحة ، ينبغي هجرها بالتباعد عنها وبغضها .

ومِنَ الناس مثلاً مَن لا يفعل المعاصي لكنه لا يَرى في فعلها قباحة ، ولا يُنكر على فاعلها ، ولا يتأثر إيمانه من ذلك ، فيقال : إنك لم تتحقق بقوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ إذا لم تـرَ ما قَبّحه

---

(١) الرجز بضم الراء وكسرها بمعنى واحد في لغة العرب .

الشرع قبيحاً ، ولم تهجره وتبغضه ، فارجع إلى نفسك وحاسبها ، وتب إلى الله تعالى ، وابذل الجهد في زيادة إيمانك وتقويته ، وذلك بفعل الصالحات ، والإكثار من ذكر الله تعالى ، حتى تَرى ما قبحه الشرع قبيحاً ، وما استحسنه حسناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: ولا تُعطِ أحداً مستكثراً عطاءك له ، ومعظماً إحسانك له ، بل اجعل عطاءك وإحسانك إلى خلق الله تعالى خالصاً لوجه الله تعالى ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تُقَدِّم عملاً تَمُنُّ به على ربك مستكثراً لذلك العمل ، كَمَنْ يقوم الليل مثلاً في عبادة الله تعالى وطاعته ، حتى إذا أصبح رأىٰ لنفسه الفضل على غيره ، ونظر إلى نفسه أنَّه الرجل العابد الذاكر ، القائم المصلي ، مستكثراً عمله ، وكأنه يَمُنُّ به على ربه ، ما دَرى هذا الأحمق الجاهل أَنَّ المِنَّة لله عليه في أَنْ هداه للإيمان ، ووفقه لفعل الطاعات: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] فلا يُضَيِّع ثواب طاعته باستكثارها واستعظامها ، وليعلم أنّه مهما عَمِل وَعَبَدَ الله تعالى فهو مُقصر عاجز عن القيام بحق الله تعالى عليه حَقَّ القيام ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أعبد العابدين لرب العالمين، وأحمد الحامدين لرب العالمين ، وأعظم مَنْ أثنى على الله تعالى قال: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

---

(١) تقدم تخريجه ص/ ٤٥٠/.

واعلم أَنّ المنة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم على كل عبد وَفَّقَهُ الله تعالى للإيمان.

ولما وفد قوم من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلوا يَمُنُّون عليه أَنْ أَسلموا نزلت الآيات في حقهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فَلَمّا مَنَّ هؤلاء على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فَقد مَنّوا على الله تعالى، ولذلك نزلت الآيات: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فله سبحانه المِنَّة عليكم ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: وفقكم للإيمان ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إيمانكم.

ولذلك مَنْ كان صادقاً في عبادته وعمله، وطاعاته لله تعالى؛ فليعلم أَنّ لله المِنة عليه أَنْ وفقه لفعل الطاعات، فليحمد الله تعالى على ذلك، حتى يَزيده توفيقاً وفضلاً. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. والحمد لله رب العالمين.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

* * *

المحتوى

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون
وكلما غفل عن ذكره الغافلون ، صلاة وسلاماً دائمين
إلى أن يقوم الناس لرب العالمين والحمد لله رب العالمين.